

الحروب العالمية وما نتج عنها من علاقات
اجتماعية واقتصادية وثقافية بين العرب والافرنج

تأليف
زكي النقاش

١٩٤٦ م ١٣٦٥ هـ

مقدمة الكتاب

لقد جاءت دراستي لهذا الموضوع تحقيقاً لرغبتين ، الأولى منهما قديمة وهي
امنية عزيزة عليّ أن أجمع تاريخاً جامعاً لما كان يعرف حتى امد غير بعيد بـ "سيرة
الكبرى" وقد طالما دغدغتنى هذه الامنية وطالما حلت بها في البقعة والنام
واما الثانية فحديثة اذ اتخذته موضوعاً لاطروحتي في سبيل نيل شهادة أستاذ
في الاداب M.A. اما اختياري له فجمع بين الغائبتين اذ هو جزء منم لما سبق
لي واعدته من اجزاء هذا التاريخ الشامل. وهو فوق ذلك تاريخ لحفنة لعلمها من
أهلك الحقب في تاريخنا أحييت ان اجلوها ما استطعت الى ذلك سبيلاً .
اما الان وقد وصلت الى النهاية او كدت فباستطاعتي ان اصرح فخورا
باني اتممت على هذا العمل الشاق مع وفرة اعمالى " لأثبت للشباب ان التلمذة
لا نعرف سناً وان الواحد منا طالب علم ما كان في قيد الحياة وانها فضلاء
ذلك للذة روحية لا يثمر بها الا من عاناها .

ولا يسعني هنا الا تقديم الشكر الجزيل لمن كانوا لي خير معوان
على تخطي ما اعترضني من صعوبات واعني بهم اساتذتي الكرام = الدكتور قسطنطين
زريق قبا ^{الاطلاع} باعياً منصبه السياسي في الولايات المتحدة . والدكتور غليم
اذ كان لي شرف التلمذة عليه مدة سنة كاملة قبل ان اضطره المرض الى السفر .
اما من كان له الفضل الاوفر في مساعدتي على انمام الشوط الى نهايته فهو الدكتور
نبيل امين فارس . وكذا لك أحب ان اسجل كلمة شكر لادارة المكتبة في الجامعة الاميركية
ببيروت وموظفيها ^{الرائحين} اذ كان لي فيهم انصار واى انصار في الوصول الى بعض المراجع
الهامة .

واخيراً لعني أن يكون في جهدي المتواضع هذا حافز لبني الشباب
والدابات من بني قومي الى عدم الاكتفاء ابداً بما لديهم من معرفة ضئيلة او كثيرة
فان العروبة بحاجة ماسة اليهم والانسان بحاجة امس ولا شك .

(1) في اصداره واشعلهم واشتأب المدة

(2) وفي ذلك في موضوع: "بابهم الادبانية" المدة والفترة والفترة "به اسوة

الفصل الأول

- مقدمة تاريخية في ماهية الحروب الصليبية وأسبابها المباشرة
- ادوارها - ضعف الحكومات الإسلامية
 - فوز الافرنج وتأسيس مملكة القدس والامارات الثلاث
 - مظاهر القوة والضعف فيمتلكات الافرنجيين
 - دور الانتكاس او هجوم المسلمين المعاكس
 - ضعف الدولة مودود - عماد الدين زنكي لو استرجاع الرها
 - الحملة الثانية وفشلها في الميزة
 - نور الدين زنكي وسياسة توحيد الافرنج
 - ضعف الفاطن ونزاع الوزراء - فوز شيركوه
 - صلاح الدين واعادة الخطبة للعباسيين
 - نور الدين بوجسر خيفة من صلاح الدين
 - وفاة نور الدين وترفع صلاح الدين الى السلطنة
 - الافرنج بن راسي الكماندة - غرته لهم في حطين
 - نحط المملكة في القسدر وممتلكاتها في فلسطين
 - تجمع الافرنج في صور - انتقالهم بعد وصول المركيس ككونراد المونغراني
 - مناهج صلاح الدين - السلطنة الثانية وحصار عكا
 - المعاهدة بين ريدار وصلاح الدين - وفاة صلاح الدين ونجوز السلطنة بعده
 - الصليبيك وانهم في استرجاع البلاد
 - كيشيرس - فلاون - الاشرف - خليل

الفصل الاول

اختلف الناس في نظريتهم الى الحروب الصليبية ، فمنهم من رأى فيها حملات دينية صرف
دعت اليها البابوية واستجابت لها الشعوب الأوروبية ما بين جرمانية وشمالية وفرنجية وابطالية عن اقتناع
فحسب بوجوب انتزاع "بيت المقدس" وتخليص "قبر المسيح" والاستيلاء على الاراضى المقدسة في سورية
وفلسطين تسهيلا للطريق امام الكحاج من اهل الغرب لبقدوا شعائر الدين ، ومنهم من رأى فيها حملات
هوجاء لحمنها الفظاعة وسداها الوحشية فاعتبروها كائنها بجمالها حدث غريب نبا عن مجموع مظاهر التطور
العام .

والحقيقة انها حلقة في سلسلة الاحداث التى بفضلها تمت العلاقات بين الشرق والغرب
منذ ايام التاريخ الاولى عندما امتد في مطلع الالف الاولى ق . م . نفوذ الفينيقي ولارامى من قلب عالم
البحر المتوسط . شرقا وغربا وسط جناحي حضارتها على جميع بلدانه من ^{صنفا} الحضان السند حتى سواحل
الاطلسي .

ثم هاد ذلك السلطان فانكم امام بقعة الفرس واليونان في القرن الخامس ق . م . وما ان
استسلم ابناء فارس بقوتهم المادية وتفوقهم العددي على منافسيهم من ابناء هلاس حتى سموا الى غزو
بلادهم وضرهم في عقر دارهم ولما لم تكن المركة حاسمة انقلبت الاية واذا بالمكدونى الكبير يفود القوم
سنة ٣٣٢ ق . م . ويحملهم شرقا حتى قلب الهند ، وكان ان امتزجت للمرة الاولى في التاريخ الحضارتان
الاربية والخرية وكونتا نواة الحضارة الانسانية الدامة .

ولكن ما ان دار الفلك دورته وعطت سنة التطور عملها حتى دب الضعف من جديد ففى
مفاصل حكومات السلافيين والبطاللة ^{المدقية} والفرسيين هلت في الغرب موجة جديدة هي موجة الرومان تحمل
جحافلهم الى حيث رفعت اعلامها قوة نخوم ايران كما ركزت رايانها قوة جنوبي جرمانية وعلى هضاب
بريطانية .

واظل المسكوران - الشرق والغرب - متقابلين متنازعين ، بقرب من ٧٠٠ سنة حتى
اعزاهم الضعف وسادتهم الفوضى فاطلت عندها كتابت العرب سنة ٦٣٠ من بوادبها صارخة مدوية ان
منحوا ايها الآريون "فها هم الساميون قد عادوا وها هي الروبة آنية لنيسط اجنحتها وتبعث في الشرق
والغرب حيويتها وكان ما كان من جمعها لشدات العالمين من خضرة سهول الصين الى تلاطم افواج الاطلسي

واذا الحضارة واحدة لا شرقية ولا غربية يعمل الجميع تحت راية الضاد ويستظلون بسلامها وينعمون
بعدلها .

وفيما العالم كذلك اذا بشعوب اوربه قد اهتزت وسرت في سرايبنها دما الحباة فقامت
تشنها غارات على العرب في اسبانية وسردينية وصقلية بغية النفلة من قبضتهم ، غير انه كان عهدو
ظروف قامت البابوية تغنمها فرصة للتدليل على عظم سلطانها وكبير نفوذها فسمعت الى قلبها حروبا
" دينية " كما رغبها ان تكون . وبقيت هجوما فرنجيا معاكسا كما فهمها على العرب ورضوهم منذ
ذاك (ابن الانبرج ١٠ ص ١١٢)

فما هي تلك الظروف يا نرى ؟

من تلك الظروف في الشرق ان كانت الخلافة قد دب في جسمها الضعف بعد تلك
السطوة فاسترخت منها الاغصاب ووهنت عندها القوى فذلت امام الانراك وتلاشت امام البويرين (القرن
الخامس الهجرى) فلاح في ذلك للمغرب برقى امل خلب ونوهم الروم ان يستعبدوا سطونهم ولكن ما
لبثت الخلافة ان الفت نفسها متجددة الطاقة منبعثة النشاط بظهور السلاجقة على مسرح التاريخ
العام فعاد قلبها ينبض بالقوة وجبوشها تعمل ، بعد امتلاكها لآية مصرى على ازاحة الروم من طريقها
وقد وقفوا على ضفاف البوسفور حاجزا دون اجتياحها لاوروبه من الشرق واذا ببيزنطية تنادى بالويل
والنبور وتلؤلل مرتعدة خائفة فتستغيث بملوك اوروبه وامرائها وبابا رومية على اختلاف بينها وبينهم
في المذهب وتنازع في السياسة .

ولكن اتى للملوك والامراء ان يلبوا الطلب والاقطاع ملوئهم في حروب دامية وكيف للبابوية
ان تلبى دعوة القيصرية وهى في خطر من الامبراطورية فكان لا بد وان يدبروا لها اذنا صما نارة ودعوها
بين الباس والرجاء نارة اخرى حتى وانت البابا ظروف اكثر ملامة واستطاع التغلب على مناوئيه من أباطرة
الالمان العتاة في الحرب . هذا وكان ان تحطمت ايضا وحدة الاسلام في الشرق بموت ملكسة السلجوقى
سنة ١٠٩٢ فتبعثرت امبراطوريته المتراصة الاطراف اشلاء ونهضت عندها البابوية متلفة باوربان الثانى
سنة ١٠٩٥ تسعى الى توحيد جهود القوم بالقضاء على فوضى الاقطاع وتعنات الفرمان وتوجيههم
بمطر الشرق حيث تبسط سلطانها وترفع رايها فكان دورها في ذلك دور من ينهر بالدعايات كوامن النفوس
وموه بالخطب والمختلفات الحقيقة على السذج من الشعب فيدفع بهم الى تخيل ما ليس بالواقع محرقة
فيهم اوتار التعصب الدينى طورا ومنيرة عندهم للاحقاد الجنسية طورا آخر ، مصورة لهم قيام مأس فى
الشرام قد بولغ في وصفها . فكم اوهمنهم نحاسة الحجاج لسو تصرف الحكام من السلاجقة معهم ولتعسف

الخلافة من الفاطميين بمعاملتهم وكما اظهرت لهم المسلمين قائمين على عبادة الاوثان وهاكفين على السجود امام صنم محمد ومهينين " لقب المسيح " . غير انها لم تستطع مع هذا ان تخفى الحقيقة كلها فلوحت لهم بما في الشرق من كنوز مدفونة وسهول خيرة وممالك عظيمة وتجارات رابحة ننظروهم جميعها .

وهكذا ما زالت بهم حتى اندفعوا فوجات متتالية بين فترات متفاوتة لمدة قرنين كاملين من الزمن تكسرت اخيرا على صخور الوحدة في سورية ومصر وثلاثت ناركة من الانار ما هو باق الى يومنا هذا وما لم بقو على البقاء مع الايام .

وليس مستغرب ان تلقى تلك الدعاية عند مختلف الطبقات من الشعوب الأوروبية آثارا صاغية وقلوبها واجبة . ألم تكن مثل الحياة عندهم " دينية تزهدة كما رسمتها لهم الكنيسة والتقاليد وطبعتهم عليها الطقوس والمراسم فان لم يتح لافراد الشعب ان يحبوا جميعهم في عزلة الدبارات مع الرهبان والنسك فلا امل من ان يعتاضوا عنها بحمل الصليب وفحص الاكف بدما " الوثنيين " فبكفروا بذلك عن خطايا ارتكبوها وقالوا رضى الكنيسة رؤوسائها . ثم اليس^(١) في استجابة الطبقات الدنيا من الشعب تخفيف عن كواهلهم فكم كانوا يلقون في كسب العياك عننا ونصبا . كما انه (٢) كان للفرس والامرات والملوك فيها سبل لتحقيق مراميهم في المغامرة وحب الغزو والفنح والسيطرة ولسنا بناسين ذلك الشعب الشمالي " النورمان " وتدفع جماعته من منازلهم في الشمال الى فرنسا وانكلتره وسردينيا وصقلية بعد ما ارتادوا البحار واجتازوا الانهار ثم كيف لا يجيب النداء الابطالون من بنديقيو من جنوبيين وبيزبين والكل منعك الى اكتساح الشرق واسواقه واملاك طرق تحارته واخيرا لماذا لا يلجى الفرنسيون من اهل الجنوب الدعوة وفي ذلك متنفس لاحقادهم المتراكمة في الصدور . السمع يسبق لهم ان مدوا يد المساعدة الى اخوانهم الاسبان من المسيحيين ضد المراكبيين من العرب المسلمين تلك هي الظروف التي فيها ولدت " الحروب الصليبية " .

ولعلها هي التي جعلت بعضهم يصفونها بالوحشية والفظاعة بل والغرابة ايضا متوهمين اسبابها الحقيقية وهي ليست في الواقع بجمليتها من مكوناتها في شيء بل ولا من مسيحتها البنسة . فما هي إذاً الدوافع الحقيقية لها ؟ ان الدوافع الحقيقية لها في اعتقادنا انسان لا نالك لهما . العامل التاريخي وهو ضعف الشرق بعد المنع والسطوة وشعور الغرب بوجود الثقلت منه واسترجاء اراضيه بل والاخذ منه بالنار . العامل الاقتصادي الذي تنتقل به مرافق الحياة الى ابدى الفهم مع انتقال الممالك لايديهم بفعل الاول . وهي كما ترى حدث طبيعي منطقي

كان لا بد له من ان يقع ولولم يكن هنالك بابوية او خلافة ولا اسلام او مسيحية ابضا وليسر ما بنوه به بعضهم من دور خطير لعبه بطرس الناسك وامثاله في استنارة الفلاحين وقيادتهم لهم في حملات شعواء الا اسطورة الاجبال وبدعة الخيال . هذه هي الحروب الصليبية كما نخيلها بعضهم وكما تصورها البعض الاخر وتلك حقيقة امرها واسبابها ومهداتها نرحوان نكون قد وفقنا الى تبيانها وكشف اللثام عن كنهها حتى نتقدم الان الى درس ادوارها وما تطلبت فيه من ظروف ومناسبات .

مرت الحروب الصليبية في ادوار ثلاثة خلال قرنين كاملين من الزمن اعترض الناني والثالث منها فترة هدوء نسبي جاءت على اثر وفاة السلطان صلاح الدين وقيام النزاع بين خلفائه من اخوته وابنائهم .

وقد امتد الدور الاول نحو من ٤٠ سنة من ١٠٩٧م الى ١١٤٠م امتازت حملاته بالحمية الدينية عند القائمين بها وبكثرة المذتركين بها من الشعوب والافراد . وقد برز بعض القواد من كان لهم اثر بعيد في سير الحرب ونتائجها . اما الشعوب التي استجابت دعوة البابا اوربان الثاني في مدينة كليرمون من فرنسة سنة ١٠٩٥ فعديدة منها النرمان والايطاليون والفرنج ، الا ان فترة عدد هتولا من جهة وانرا اصطدام العرب بهم منذ ٧٢٣م في بوانيه وتوركان ما جعل العرب يطلقون اسمهم على الجميع فيقولون "حروب الفرنج" رغم تعدد العناصر المذتركة فيها من غير هذا الشعب .

ومن ابرز قوادهم الامراء بوهمن سيد او ترانتو وابن اخيه تنكريد وكلاهما من النورمان ثم غودفروا امير بويون في بلجيكا واخوه بولدومن وريمون الطولوزي امير بروفانسة في جنوبي فرنسة وغيرهم آخرون ممن كانوا اقل شأنًا واطفأ انرا .

وكان من نتائج هذه الحملة ان تغلب القوم على المسلمين في آسبه الصغرى واشرد فبصر الروم حسب تعهد الفرنج له بمضعف ما كان فقداه من قبل ١٠٩٧ و ١٠٩٨ ثم تقدموا الى سورية واسسوا فيها امارتي الرها وانطاكية ثم "مملكة اللانين" في القدس وكونينة طرابلس .

وليس بمستغرب ان ينسأل الواحد منا منعجبا "كيف استطاع اولئك الفرنج ان يتغلبوا على السلاجقة والفاطميين بتلك السهولة وتلك السرعة مع ما كان بينهم وبينهم من فوارق . / . . .

فى العدد والعناد وفى القوة والاستعداد * الم يكن الفرنج غرباء فى بلاد جهلوا منها دروبها وشعابها كما طالت فيها عليهم طرق مواصلانهم فنعذرت عليهم منها سبل التموين والإعاضة . اما كان عليهم ان يهاجموا الحصون والقلاع ليدكوا منها الاسوار ويحرقوا الابراج ثم لئن ريت راية الصليب بين يديهم احدانهم الم تكن الاحقاد القومية قد باعدت بين قلوبهم كما انهم وان انفقوا على الفتح وكسب المسلمين فقد اختلفوا على اقتسام الاسلاب وتوزع المقاطعات فلا عجب وحالتهم ما وصفنا ان يفقد حملتهم طابع الوحدة فى الغاية والقيادة ومع ذلك فقد فازت وكان من نتائجها السريعة ما اسلفنا ذكره فما هو تحليل ذلك ؟

الحالة

ليس تحليل ذلك بحسب مرمى تفهمننا للطفة فى الشرق والنا رب وربابنا ما كانت عليه مسن ظروف قاهرة ساعدت على ظهور تلك النتيجة المستغربة .

كان سبق للمسلمين فى الشرق ان شهدوا فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشرم) وحدة فى صفوفهم بم قامت اولى امبراطوريات الاتراك على سواعد السلاجقة وامنت اطرافها حتى ضمت مع ممتلكاتها اراضى الخلافة ايضا وقد رفع قواعد السلطان طغرل بك سنة ٤٢٥ - ٤٥٥ هـ . ١٠٢٣ - ١٠٦٣ م . فاستولى فى سنة ٤٢٥ هـ و ١٠٢٣ م على خراسان وقرمن العمال وخطب له فى نيسابور . وما زال امره فى لوح حتى هابه ملك الروم وهاداه ثم انفذ رسوله الى الخليفة القائم بامر الله * بالهدايا وسار يريد بغداد فدخلها لخمير يقين من رمضان سنة ٤٤٧ هـ . و ١٠٥٥ م . ولقب بالسلطان ركن الدين وقضى على الملك الرحيم ابي نصر وعلى قواده وازال دولة بني بويه واخبر مات بالرى سنة ٤٥٥ هـ و ١٠٦٣ م . وقام بعده بالامراة ايلام اخيه عضد الدولة ابن سنجاع محمد البارسلان فسار الى حلب واقترع عليها صاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس ولقى ملك الروم وهزمه فى معركة ملازكرد الفاصلة سنة ١٠٧٠ م . و ٤٦٣ - ٤٦٤ هـ واستولى عندها على جنوبى الاناضول وسالى سورية ثم تقدمت جيوشه جنوبا ففتحت القدس والرملة وحضرت دمشق غير انه مات فى ربيع الاول من سنة ٤٦٥ هـ و ١٠٧٢ م . وقام بالامر بعده ابنه ملكشاه فاستولت حوشه بغداد اصفر اخونه تنطى على دمشق كما فتح آسنقر الموصل ثم قدم ملكشاه بنفسه الى حلب وسلمها الى هذا الاخبر وعاد هو الى بغداد فامتد حكمه تسع عشرة سنة وشهرا وكان يخطب له من اقصى بلاد الترك فى الصين الى بلاد اليمن بيد انه ما كاد يلقى حتفه سنة ٤٨٥ هـ و ١٠٩٢ م . حتى تغير الموقف فى الشرق وتبدلت الحال اذ قامت المنازعات بين اخوته وابنائهم فتمزقت وحدتهم وانقسمت الاسرة الى فروع ثلاثة - واحد فى بلاد العجم جت تبلى افرادهم واستجموا وآخر فى الاناضول

حيث رسخت قدمهم وثبتت لغتهم اما الثالث فكانوا في سورية حيث استعربوا وتوطنوا . وكان اقوامهم
تتبع سبيل سورية فقام بحاول بسط نفوذه على جميع الامراء وقد بلغ في حملته سنة ٤٨٢ هـ و ١٠٩٤ م .
شرقا مركز السلطنة نفسه غير ان السلطان بوكيارق رده من حيث اتى واستخلص السلطنة لنفسه واحتفظ
نفسه عندئذ بدمشق وحلب وعين نائبا عنه في الرها توروس الارمنى كما عين سليمان بن ارشق على القدس
وهكذا قامت دولته حاجزا بين السلاجقة في مدينة ^{قونية} الاناضول وبين الفاطميين في القاهرة من مصر .

وما ان توفي الله نبيهم سنة ٤٨٨ هـ و ١٠٩٥ م . حتى خلفه ولداه رضوان ودقاق
في كل من حلب ودمشق اما في الجنوب فتقدمت جنود الملك الافضل شاهنشاه وزير الفاطميين وطرد
الارتقيين من القدس سنة ٤٨٩ هـ و ١٠٩٦ م . وقد تم ذلك كله دون ان يعبره تركبار من اقل عنابة
او اهتمام بل اكتفى بان يعترف له ابنا نبيهم بشي من النفوذ الاسمي غير انه ساند الامبربريوسا
في انتزاع الموصل من بني عقبا العرب ثم اقامه نائبا عنه في الغرب .

تلك كانت حالة المسلمين في الشرق خلال القرن الخامس الهجري او الحادي هو
الميلادي اما حالتهم في الغرب فلم تكن خيرا منها . اذ كانت خلافة الامويين في الاندلس قد هال مال
نجمها الى الافول وسرع النصارى الاسبان بزحفون من الشمال لاسترداد اراضيهم واخراج المسلمين
منها كما ان النورمان كانوا ايضا قد اخذوا في ١٠١٨ بزحفون الى كاتالونية لمظاهرة الاسبان هناك .
هذا فضلا عن ان كفة النصارى من الغرب ^{البرتغالي} في قلب البحر الايبير المتوسط اخذت ايضا في الرجحان
وجعلوا يستردون الجزر القريبة من ابطالية فاستولى البيزيون على ^{سمرقند} ديبني في ١٠١٦ وبعد حرب امتدت
ثلاثين سنة ١٠٦٠ الى ١٠٩٠ استخلص النورمان من العرب صقلية . فليس عجبا ان يكون هذا وذاك
من مشجعات بوهمند وهو سليل هثولا لان بطمع الى تاسيس ملك له في الشرق او الغرب على حد
سواء . ولذلك نقرر ان حملات الفرنج على الشرق انما جاءت منعمة لتلك التي سبقتها في الغرب وهذا
نفسه ما يقول به المؤرخ ابن الانبريط طحطح الكامل . المرجع [ج ٢ ص ٨٠ ص ٨٨٢]

في تلك الآونة العصبية من تاريخ المسلمين في آسيا واوروپة وصلت جموع الفرنج الزاحفة
من الغرب عن طريق البر والبحر الى القسطنطينية ولكن كان عليهم قبل ان يجنازوا المضيق الى الاناضول
ان يبعدوا شكوكا قامت في نفس الكسوبر لدى رؤيته اباهم اذ وجد نفسه بين امرين اما ان يعينهم
حلفاء قد توافدوا للتعاقد معه على قهر العدو المذمت ثم اقتسام ما ينتزعونه بينهم بالسوية واما
ان يعتبرهم اتباعا فيكون له وحده الحق فيما يفتحون من ممتلكات العدو وعلى هذا الرسايل الاخير

استدرجهم الى ان يتعهدوا له بان كل ما يفتحونه من قديم ممتلكاته فهو له وكل ما يسمح به لهم بملكوته باسمه فاعذا كانت النتيجة عندها نفتت في الصدور احقاد قديمة زادت في توسيع شدة الخلاف بين الكيستين ان الشرق ظهر بمظهر المستبد فلا الامراء اصابوا ما كانوا يتوقعون ولا الاباطليون — ما عدا البندقية لما كان بينها وبين القسطنطينية من قبل — كانوا راضين عن سياسة القيصرا الاحتكارية ، اضاف الى ذلك ان بقاء القيم في ممتلكاتهم الجديدة كان في خطر ان ملوك الروم كانوا ينظرون الى اماره انطاكية مثلا التي اختص يوهنند نفسه بها رغم تعهده لأكسيوس — معين الحسد ولم يتورعوا عن نُفْرة المسلمين في استردادهم اماره الرها من الفرنج فيما بعد ولعل الكسيوس كان مغدورا فيما ذهب اليه وذلك بسبب سوء تصرف القيم الى حد لم يستطع معه ان يرى فيهم شركاء له في حمل السلاح وهكذا نرى ان الروم والفرنج لم يكونوا على وفاق رغم ما كان يبدو وعند من وحدة دينية وان اختلفوا مذاهبا وما ان تم الاتفاق بينهم وبين الكسيوس ولو ظاهرا حتى مشت طلائعهم في شهر ايار من سنة ١٠٩٧ الى الاناضول في ممتلكات فليح ارسلان السلجوقي وفي اقل من شهر استطاعوا انتزاع نيقية من حاميها فنفدوا عندئذ الى سهل بوريلام (سيفل) حيث قضوا على جيش فليح ارسلان في واحد نموز فاسترد الكسيوس نصف ما كان قد انتزعه السلاجقة منه من قبل . ان كان عليه ان يواجههم ويصد اليهم وحده دون ما معونه بلقاها من حلاجة التراق او سورية .

فما كان من الفرنج الآن الا ان تركوا فليح ارسلان بطمئن الى عاصمته قونية في موقفها الحصين ونحبوا شرفا بجنوب الى كيليكيا حيث يقوم الارمن والرم على حراسة بعض المدن الامر الذي سهل مهمتهم فانتزعه " تنكرد " " طرسوس " ثم فيما كان الجيش الرئيسي يسير جنوبا الى انطاكية وعلى راسه يوهنند كان بوغدوين يسير شمالا بشرق ثم اتجه عند مروره الى الرها فلم يجد كبير عناء في فتحها وعلبها كما راينا ذلك الارمني نوروس وفي اواخر تشرين الاول سنة ١٠٩٧ كانت جموع الفرنج قد وصلت الى جوار انطاكية وكان باعسيان صاحبها عندئذ على طريقة للاشتراك مع رضوان صاحب حلب بمباغنة جناح الدولة امبرحمص وذلك لمناداته بنفسه مستقلا عن حلب فما ان سمع باعسيان باقتراب الفرنج من اراضيها حتى عاد مسرعا الى مدينته التي كانوا قد سبقوه اليها واقاموا الحصار عليها من ١٢ تشرين الاول سنة ١٠٩٧ الى ٣ حزيران سنة ١٠٩٨ ذاق الفرنج خلالها الارمن ان ما كاد الشتاء يحل حتى فرسهم البرد وانتشرت بينهم الامراض وعظم الجوع بالرغم من تامين المراكب الراسية في السويدية ، مرفأ انطاكية ، لاهائتهم ومن مساعدة الارمن لهم ايضا . اما السلاجقة فبالرغم من تنازعهم المحلي قد ثابوا الى رشد هم واتفق كل من جناح الدولة وُفقاق على مظاهرة

بأغصان لا سيما وقد علموا بان الفاطميين شرعوا بفاوضون الفرنج طمعا باستخلاص فلسطين منهم فهاجم الحلفاء موقعة الجيب، الفرنجى عند بلدة البارة فاخروا بذلك الزحف المبصر على المدينة وان لم يردوهم عنها نهائيا . بويعد اسبوعين او اكثر وصلت من احلب النجدات فصدّهم الفرنج عند بنجرار وصارم . غير انه بعد اربعة اشهر اخرى من ذلك الحين غدر احد الارمن بأغصيان ودلّ بوهمند على منفذ سرى الى المدينة فدخلها رحاله فى ٣ حزيران سنة ١٠٩٨ ومات بأغصيان فيما كان بطاب النجلة لدى علمه بسقوط المدينة . ولكن الفرنج ما اعتوا ان راوا كريوغا امير الموصل وقد وصل بغتة على رأس جيب كبير مقيم الحصار على انطاكية واستمر على ذلك لمدة ٢٥ يوما سقطت المدينة بعدها وبقيت الحامية فى القلعة صامدة حتى اوشك القوم ان يصلوا الى اتفاق مع كريوغا غير ان هذا كان مكروها عند بعض فرقه كما ان الخلاف كان قد دب بين العرب والترك فى جيشه بسبب مكابد رضوان فاخذ الكثيرون يغادرون فرقههم . واما الفرنج فعداودهم الامل على اثر انه تور على " الحرة المقدسة " وصدوا فسى مواضعهم مستبسلين حتى تمت لهم القلعة . الخليفة

فلما استسلمت لهم الحامية بعد اسبو ارتأى القو تاخير الزحف على القدس حتى شهر تشرين الثانى عليهم يستريحون من طول ما اصابهم من العناء ويستقلون مددا جديدا يغذون به صفوفهم بعد ما نزل فيها من الخسارة فى الارواح بين الفرسان على الاخص . هذا مع ما قام بينهم من نزاع على قضية انطاكية وما اذا كانوا يتخلون عنها للقبصرام بيقونها فى عهدة بوهمند . وفيما هم فسى نزاعهم وتردد هم كان بوهمند وتشارك بدملان على نفوية مراكزهما فى كل من كيليكية وانطاكية كما ان ريمون تقدم من البارة وانتزعها اما غودفريد فكان يسعى الى تامين مركز اخيه غودوين فى منطقة تل بامر حيث قضى **وَرَجًا** من الزمن راحا قاديا بينها وبين انطاكية حسبما كانت تقتضيه الظروف والمصلحة

ولكن ما لبث التذمر ان دب فى القوم للتأخر عن الزحف على القدس مما جعل المتنازعين يتفان على مباغثة المدة وبعد شهرين من الحصار سقطت المدينة وكان فى ذلك حل لمشكلة اجتمعت كلمة الاكثرية على المصير جنوبا فما كان من ريمون الا ان رضى وساروا جميعهم ما عدا بوهمند اذ عاد هو الى انطاكية حيث نبت قدمه .

وما ان سار ريمون مصعدا فى وادى العاصى حتى وجد نفسه امام مقاومة ضعيفة اذ فضل العرب فى تلك المدن تقديم الموت لهم وروئيتهم يسترون فى زحفهم جنوبا على ان يفاوضوا او يبرؤوا اراضيهم تتخرب .

فقدت اليهم وفود حمص وطرابلس وهم في سهل حصن الاكراد فكان في ذلك ما اوصى الي ريمون تاسيس كونية له تجاور انطاكية وتغوثها ولعل هذا الامر نفسه ^{او} اليه ان يحاصر عزقة القائمة على ^س هضبة لبنان الشمالية على مسافة قليلة من الوادي الواصل بين حمص وحماة والساحل فحرب فيه ريمون خيامه في ١٤ شباط بعد مغادرته حصر الاكراد وما ان تقدم من طرطوس حتى غادرتها حاميتها مما جعل الفرنج يتصلون من جديد بالاساطيل البحرية ويتمنون فضلا عن انضمام قوى جديدة اليهم ثم اتخذوا السير على طول الساحل وحاصروا جبلة في طريقهم وهكذا اجتازوا سهل طرابلس ومضيق نهر الكلب دون اقل مقاومة وهكذا ظلوا ^{تدبر} حتى وصلوا الى فلسطين حيث مروا بعكا وحيفا وقسارية وارسون وما ان توغلوا قليلا فسي الداخل حتى وصلوا الى مدينة الرملة فوجدوها وقد غادرتها الحامية فكانت هذه اولى ممتلكاتهم في فلسطين فاقاموا فيها حامية وفي صباح ٧ حزيران سنة ١٠٩٩ اطلت عليهم المدينة المقدسة وكانت حاميتها من الفاطميين تقدر ب ١٠٠٠ رجل اما الفرنج فكانوا يتقدرون بما يقرب من ٤٠ الفا منهم حشرون الف مقاتل وبعد حصار دام اكثر من شهر سلمت الحامية في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ على ان يسمح لهم بالالتحاق بعسقلان سالمين .

غير ان القوم نكثوا العهد واعملوا السبي في رقاب المسلمين في مذبحه فظيعة جرت فيها الدماء في النوارع بل "خاضت فيها الخيول حتى ركب الفرسان" وعند الغروب كان الفرنج قد نفقوا غل صدورهم فذهبوا برفعون اكلهم المملوطة بالدماء في الصلاة الى الله شكرا على ما اولاهم من نعمة النصر على "الكفار" غير انهم ظلوا في خوف من الجيوش المربطة في عسقلان فما ان علموا بان المصريين يستعجلون للكرة عليهم باغثوهم في الغرب من عسقلان وقازوا عليهم في ١٢ آب سنة ١٠٩٩ ثم كادوا يدخلون المدينة لولا ان الخلاف بين ريمون وفود فريوا مما جعل المسلمين يتقون ويرفضون التسليم .

وما ان تسلم القوم "القدس" حتى اعترضتهم قضايا جديدة منها - الحكومة وشكلها ان برز عندئذ حزب الكنيسة بدعمه ريمون لاقامة حكومة اكليريكية . ولما رفض هذا ترشيحهم له بدعوى انه لا يتقبل ناجا في مدينة نالم فيها "السيد المسيح" تقدم للمنصب غودفريد مؤثرا لقب "حامي القبر المقدس" على لقب "صاحب الناح" وبعد ايام شغلها احد رجال الدين منصب نائب البابا فكان النائب الاول المنوفى .

غير ان هذه القضية عادت الى الظهور لدى وفاة غودفريد ان ان يوهند سيد انطاكية قد ^م رشحه للمنصب حزبه وكاد حزب الكنيسة هذا بفوز بامنيته لولا ان وصل بفردوس اخو غودفريد من الرها وتدخل مع حزبه في الامر فاز بالتاج في سنة ١١٠٠ وعلى هذه الصورة تم تاسيس "مملكة القدس"

ولكن استمر النزاع بين الفكرتين (العلمانية والاكليركية) حتى سنة ١١٠٣ عندما فاز بغداديين بعزل نائب البابا ومع ان الخلاف بعث في عهد بغداديين الثاني (١١٢٨ - ١١٣٠) غير انه ختم بموت النائب البابوي الثالث وانتهت القضية بتغلب العلمانية على الاكليركية .

وهكذا دلت هذه القضية على مدى الخلاف في الحقيقة رغم دعوى قيام الوحدة الدينية . الا ان فوز الملكية لم يكن ضربة على الكنيسة فحسب بل كان كذلك على حزب بوهمند النورمانى ايضا اذ ان انطاكية لم تكن اقل حسدا للقدس من الاكليركيين للعلمانيين . الم يكن بوهمند اكثر نفرا من غودفريد كما ان انطاكية اكثر خميا من القدس نفسها . لكن القدس بمركزها الدينى كانت تجعل قلوب الآلاف تهوى اليها سنويا ثم وان لم يستقروا جميعهم فيها فقد كان الكثيرون منهم يبقون وكان في ذلك سبيل دائم من الواقدين الذين كانوا ينفذون حيويتها ويقدمون بحديد دهم فجموع الفرنج . ولا بد من الاشارة الى ان قضية العلمانيين والاكليركيين تدل على صحة ما ذهبنا اليه سابقا من ان " الحروب الصليبية " كانت تنسب بالصيغة الدينية فقط .

واما القضية الثانية فكان السعى وراء حماية " الملكة الجديدة " من الفاطميين مع العمل على توسيع رقعتها على حساب ما يحيا ورهائن المدن والقرى وهذا هو ما اضطلع به غودفريد وبعنه خلفائه .

هذا مع العلم ان ذلك التوسع لم يكن الى الداخل لقلعة المحاربين من الفرنج ولقوى دمشق وضعف القاهرة من جهة ثانية . ثم لو كانت القدس ان تلتفت شرقا لتعذر عليها النجوس لذلك كانت مضطرة لان تلتفت دائما الى الغرب وعليه فيكون الفضل في نموها يرجع الى الابطاليين واساطيلهم بينما الفرنج الواقدون عن طريق آسية الصغرى كانوا قلما يستطعمون الوصول الى سورية بسبب قوة السلاجقة ولاستنكاف الروم من متابعة الحرب والقتال ايضا .

وكان بين الابطاليين الحنوسون والبيزنطيين والبندقيون غير ان الجنوبيين كانوا اكثرهم انرا في حياة " ملكة القدس " ولا عجب اذ كان قد سبق للقسطنطينية ان منحت البندقيين بعض الامتيازات منذ سنة ١٠٨٠ م . هذا مع العلم ايضا ان البيزنطيين كانوا اصدقا انطاكية

بينما كان الجنوبيون حلفاء القدس وبموازتهم استطاع بغدوين الاول ان يقهزوا ارسون وقيسارية وعكا . لكن الجنوبيين قد ساعدوا ريمون في فتح حبيلا سنة ١١٠٤ كما ساعدوا خلفه في فتح طرابلس سنة ١١٠٩ وكذلك فقد شدد ازربغدوين في سنة ١١١٠ ملك النوروج في فتح صيدا وفي ايام بغدوين الثاني ظهرت البندقية القدس وذلك عندما رأت ان جمهورية البيزين في سنة ١١١١ قد نالت بعض الحقوق دونها من القسطنطينية وفي سنة ١١١٨ اضطرت ايضا الى ان تومي وجهها لسطر القدس فقدم اسطول لها مؤلف من ١٢٠ مركبا في سنة ١١٢٣ وصد هجومها للمصريين كما ساعد في فتح صور سنة ١١٢٤ . وكان ذلك مقابل السماح لها بالدخول الى فلسطين والتمتع بامتيازات وصلاحيات عديدة ومع ان الامور اختلفت بينها وبين الروم فقد حافظت على امتيازاتها في القدس وفي القسطنطينية ايضا .

وهكذا فقد اتسعت " مملكة القدس " حتى امتدت على طول الساحل من بيروت (١١١٠) الى الحريث على الحدود المصرية ومع هذا الامتداد جنوبا وشمالا فلم تكن لتتسع شرقا الى ابعد من مقاطعة الاردن . اما في الشمال فكانت تحدها امارة دمشق .

لكن بغدوين الاول استطاع ان يمتد في الجنوب الشرقي حتى ابلة على البحر الاحمر وصد المصريين في تلك الجهة فانتقم في سنة ١١١٦ قلعة الشوب في منتصف الطريق بين ابلة والبحر الميت وفي سنة ١١٤٠ ايام الملك فلك قد اضيق الى ذلك كله الاراضي الواقعة شرق البحر الميت حيث اقاموا قلعة الكرك .

وكان لبعض هذه الفتوحات عوامل تجارية اذ كانت تقع على الطريق العام للتجارة البحرية والبرية بين دمشق والقاهرة فيكون العاملان الاقتصادي والاستراتيجي قد تضافا على رفع " مملكة الفرنج " الى مركز السيادة في فلسطين .

غير ان القدس وممتلكاتها لم تكن في الحقيقة سوى النواة التي عليها مدار الامور في المقاطعات الفرنجية الثلاث - الرها وانطاكية وطرابلس اذ ان الاولى منها وقد تأسست سنة ١٠٩٨ من بلدوين الاول نفسه كانت بحكم الواقع نابة للقدس وقد حكمها بغدوين الثاني قبل حكمه على القدس كتابع لبغدوين الاول من سنة ١١٠٠ - ١١١٨ ثم بعد ذلك تعاقبت على حكمها اميرات تلي باشر من اسرة جوسلان حتى فتحها زنكي سنة ١١٤٤ ولما كانت تقع الى الشرق

من الفرات مع اتصالها ببلاد الارمن وبالطريق التجارية العام الممتد على مجرى الفرات حتى الرقة والمنتح من ثم الى انطاكية ودمشق نقول ولما كانت مقاطعة الرها تقوم في هذا الموقع كانت حباثتنا قصيرة الامد .

اما المقاطعة الثانية * كونتين طرابلس ، فقد وقعت تحت نفوذ القدس في عهد مبكر من تاريخها ومع انها قد اسمها ريمون ما بين ١١٠٢ - ١١٠٥ بملأهرة الكمبوس وبالاتفاق مع الحنوبيين فانها لم تثبت على العاصمة حتى سنة ١١٠٩ وحتى قبل هذا الفتح اضطرت بسبب ما قام فيها من نزاع بين ابن ريموند وابن اخيه على ورايتها - الى مساعدة القدس لها وبمساعدة الملك بنديون الاول فقام لها فتح العاصمة . وهكذا نرى ان كونتية طرابلس ايضا قد وقعت تحت نفوذ القدس منذ بدء تاريخها .

وفي تلك الاثناء - ايام حكم بنديون الاول - كانت اماره انطاكية - وعلى ادارتها اولا تنكرد ثم روجبر بعد سفر بوهمند - مشغولة بالمدائن مع جيرانها المسيحيين في كل من طرابلس والرها ومع امراء ماردن والموصل من المسلمين . غير انها عند وفاة روجبر سنة ١١١٩ دخلت تحت وصاية بنديون الثاني ملك القدس حتى سنة ١١٢٦ عندما بلغ بوهمند الثاني سن الرشد وكان بوهمند قد تزوج باحدى بنات بنديون ولدى وفاته سنة ١١٣٠ غدا بنديون الثاني للمرة الثانية الوصي على انطاكية . فيمكن اعدار انطاكية منذ ذلك الوقت مقاطعة تابعة للقدس . وعلى هذا استطاعتنا ان نعتبر عهد بنديون الثاني في سنة ١١٣١ الوقت الذي فيه تم نشوء " المملكة اللاتينية " بحدودها الممتدة من بيروت في الشمال الى العريش وابلة في الجنوب وضمها لمملكتها الشمالية الثلاثة . وعندئذ عدت سيدة امورها .

الا ان العوامل التي ساعدت الفرنج على تأسيس هذه المملكة حدودها وملحقاتها فترجع بالدرجة الاولى الى ما شاهدناه في سورية من فوضى بيا سية ومنازعات اقطاعية واختلافات جنسية ودينية . اضاف الى كل ذلك ما كان السوريون انفسهم قد قدوروا من شعور بالكرامة القومية لتعدد الحكام عليهم وكثرة ما لاقوه من عنف وعسف . هذا مع مساعدة الروم والارمن للفرنج . اما القول بيسالنتهم فلا نستطيع رده ان شهد لهم بذلك خدمتهم انفسهم غير ان ما يدعيه ستيفنسن من تفوقهم بفنون الحرب والقتال فنسمح لانفسنا ان نقف منه موقف المردد بقوله ان صح الاخذ به بالاضافة الى الفاطميين وعم في ابان نبخوختهم فضلا

نستطيع الاخذ به بالاخذة الى السلاجقة وقد كانوا في ارج مجدهم العسكري . وان ننسى
فلسنا بناسين ما قدم الابطاليون من مساعدات قيمة بفضل اساطيلهم بنقلها الحجاج والجنود
وتزويدهم بالاعاشة والمؤن وغيرها من آلات الحار ومواد البناء . واني لأرى من واجبي هنا
ان انفي عن مجموع النصارى الوطنيين مهمة ~~مهم~~ ان كثير ما اتهمهم بعض المعرضين بانهم
مدوا يد المساعدة للفرنج ضد مواطنيهم من المسلمين منذ ان اطل القوم على البلاد وانهم
فعلوا ذلك تحسبا للروابط الدينية . اما الحقيقة التي لا بد من ثبوتها ان الذين - وهم من
النصارى كانوا اول من ظاهروا للفرنج ولكنهم فعلوا ذلك بدافع قومي وحبا بتبيل الاستقلال
لا بدافع النعصب الديني وكذلك لم اقد في مطالعاتي على ما يبرهن لي ان مجموع طائفة من
الطوائف في لبنان قد انضمت الى جموع الفرنج وان اكن قد وقفت على ما يوضح بصراحة ان بعضا
من الموارنة والمسلمين قد انضموا الى القوم بعد تغلبهم بحامل الارتزاق ليس الا . كما ان
الفرنج قد استظاهوا في ابان سلطانهم ان يخبروا البعض للتجند عندهم وتاليف ما قرؤوه بالفرق
الخفيفة حتى تسير تلك الفرق في القتال على النظام المعروف اذ ذاك في البلاد .

تلك كانت كثرة العوامل التي مكنت الفرنج من التغلب على اهل البلاد
والفوز بتاسيس ملك لهم في تلك السرعة وذلك البسر . وليس في اعتقادنا من الاهمية بمكان
ان يستطيع القوم ذلك فحسب بل ما هو اهم منه قدرتهم على المحافظة عليه والاستمرار فيه
طويلا . وهذا ما نحب ان ندرسه ونضع بين يدي القارى ما توصلنا اليه من نتائج .

لا بد لكل دولة تأسست عن طريق الزوال والفتح ورغبت في الاحتفاظ بكيانها
فضلا عن توسعها وتقديمها مهما اتسعت رفعتها او ضاقت نفول لا بد لتمثل هذه الدولة مسن
انظمة داخلية تدعمها ومؤسسات مدعيتها تشدد اجزاءها وتربط اقسامها بعضها ببعض بل ومن
قوة مسلحة تدعيمها من غارات الغير وتصد عنها المعتدين .

فلننظر كم استظاء الفرنج - وقد اتاموا لانفسهم في جزء من سورية خلال
ثلاثين سنة او اقل " دولة لاتينية " تكونت من " مملكة القدس " ومقاطعة الرها " وامارة انطاكية
وكونتة طرابلس حتى شملت اراضيها الساحل السوري باجمعه مع تبسط قلبا الى الداخل في الشمال
والجنوب - ان يحفظوا بها . ولكي ننفذ على الحقيقة قبل ان نفررها بجدر بنا ان ندرس اولاً

حالتها الداخلية في انظمتها الادارية والقضائية والمالية وثانيا مكانتها الخارجية في قوة جيشها ومختلف فرقته .

واذا توجهنا الى التاريخ بهذا السؤال " الى أي حد استطاع الفرنج الاحتفاظ بدولتهم في الشرق خلال " الحروب الصليبية " القبياء بجيبتنا على الفور بقوله " الى امد قصير " وذلك لاسباب داخلية وعوامل خارجية تضاعفت معا على اهلاكها قبل ان تفرغت للعمل على توسعها والاخذ باسباب النقص .

اما الاسباب الداخلية لذلك فنتلخص فيما يلي -

(١) - ان انقسام الدولة الى اربع وحدات سياسية هي " مملكة القدس ومقاطعة

الرها " وامارة انطاكية وكونتة طرابلس كان وحده عائقا هاما ، طريق تقديمها وتدد اجزائها وربط اقسامها بعضها ببعض . واذا ما ذكرنا ان هذه الوحدات كانت تتألف ايضا من عناصر مختلفة وان امورها كانت في ابدى زعما متنازعين ، ادركنا كم كان في هذا وذاك من اسباب داعية للتنافر والتباغض . الم تكن الرها والقدس تمان بالنسب الى البرغنديين بينما كانت انطاكية نورمانية الاصل وطرابلس بروفسية الدم " ثم ان الخلاف الذي نشب بين الزعما المؤسسين قد اتصل بعدهم بالخلفاء ايضا فان ذلك سببا رئيسيا في فشلهم وعدم تعاونهم وهم في اخرج الاوقات من تاريخهم فضلا عن انشغال بعضهم الحسام احبانا وقتالهم بعضهم بعضا با . وثمة اقد الآخرين مع المسلمين احبانا اخرى .

(٢) ثم ان قلة عدد المقيمين من الفرنج في سورية بالاضافة الى سكانها من المسلمين

وغيرهم مع ما كان بين اولئك من الخلاف والفرقة وهشولا من الوفاق والوحدة كانت عاملا هاما آخر في هدم تلك الدولة . فان عدد الواقدين منهم قد بالغ المؤرخون الاولون فيه كثيرا مع ان الذين غادر منهم اوطانهم فعلا لم يصل منهم الا عدد ضئيل الى سورية ولبيلون منهم تواتوا في الثورة بعدها . وعليه فيكون سكان " الدولة اللاتينية " من الفرنج مع من كان بينهم من الزعماء ومن المسلمين اقل من القوى المهاجمة لهم والتي كانت اكثر منهم تماسكا واتحادا .

(٣) - واذا ما انرفنا الى هذا او ذاك ما كان بينهم وبين الروم من مشاحنات احبانا

ندرك مبلغ ما كان لذلك من بعد الانروسو العاقبة . لهذه الاسباب غلب الوقت القصير الذي فيه

أحرزوا ذلك الفوز السريع وقت أطول اضاعوه في المشاحنات والمنازعات بينما استفاد منه المسلمون باستعادة نشاطهم واسترداد وحدتهم .

(٤) - ولم يكن ذلك وحده من عوامل "فتت في عضو" الدولة اللاتينية "من الداخل بل كان هناك ما هو شر منه ومعنى به حالة كل من تلك الوحدات الأربع نفسها فلواخذنا "ملكة القدس" ودرسنا مكانة الملك فيها من اتباعه "البارونات" لوجدناه بحكم القانون كأحدهم وأن من شئ كان يميزه عنهم فهو إجماعهم على اختياره رئيسا عليهم كما كان الحال مع غوفريد وبندوسن الأول لكن اعتلاء العرش ما لبث أن أصبح ورائها فكان للمجلس الأعلى أن يتدخل فيما كان يفرضه من اختلاف على ورائه . ولبيد هذا فقط ما كان هذا النظام يسوغ للورث إذا كان انشئ أن تنقل التاج لزوجها وفي ذلك أيضا من أسباب الخلاف ما زاد في حال الدولة سوءا على سوء . لذلك نقرر مع Baker أن الأسباب لانحلال الدولة سنة ١١٨٧ لا يبعد أن تكون قد تسببت بسبب تلك الحقيقة وما نجم عنها من الاختلافات والمنازعات " (ص ٣٩) *The Crusades* وإذا اكتفتنا إلى النظام العسكري في "الدولة اللاتينية" رأينا حظ الملك منه كحظه من نظام الحكم إذ كان عليه أن يدفع للمتجندين من إعانات الاقطاعات حملا وأن يقدم لهم الخيول أيضا ولا استنكفوا من القتال واضربوا عن اللحاق به في الغارات والمعارك وهناك غير هؤلاء من الفرقة كجماعة المرتزقة ^{ممن} لم يكن لهم قطائع أرضية يستلمونها من المال بل يتقاضون من الملك إعانات معينة . وكذلك فرق "الفرسان" الخفيفة المؤلفة من السوريين والمسلمين وكانت في قتالها تسرع على النظام الدرو في الكر والفر كما أن "الغداة" كانوا من الأرض أما رماة الغداة فكانوا من "الموارنة" .

أضف إلى تلك الفرقة منظمي "الستارية" "والداوية" وفرسانهم وكانوا حمية هم يرحون إلى رؤسائهم المستقلين بأمورهم كاستقلال أميرى انطاكية وطرابلس ثم أن مجموع هذه الفرق كلها لم يكن يزيد عن ٢٥,٠٠٠ بل لحمل قوة المملكة كانت تستند في الدفاع عن المدن إلى الحصون والقلاع التي بناها "السنارية" "والداوية" أكثر منها إلى قوة الجيش وفرقه . ولا محب فإن بقايا تلك الحصون والقلاع ما زالت ماثلة وهي شاهد على ما كان لها من أثرين في الذود عن المملكة .

ثم ان اكبر خلل في نظام الدولة كان الملك والحكومة يعانيان من جرائه الامرين فقد انها نظاما ماليا ثانيا . اذ مع ان دخل الملك - من الضرائب المفروضة على القوافل التجارية والمكوير الجمركية في المرافى ومن ارباحه من الاحتكارات ورسم المحاكم وخريبة الراس (الجزية) على اليهود والمسلمين والتعويضات الحربية من الدول الاسلامية - كان ضخما . غير ان مصاريفه كانت ايضا ضخمة الى حد يبرز معه تحت عبثها بالرغم عما كان يتناوله من مساعدات مالية يقدمها له ملوك اوربية بدلا من اشتراكهم في " الصليبيات " وما كان يغنمه هو من الغزوات التي كان يفتحها على البلاد الاسبوية المجاورة . وقد كان دائما في اضطراب مالي اذ كان ينقصه نظام للضرائب الوطنية كالتي حاولوا فرضها فقط في سنة ١١٨٣ والتي كان يحول دون ولا جبايتها امتيازات النجار والكنيسة . وبقيت الكنيسة تملك الاراضي الجديدة مع رفضها المساهمة في الدفاع عن المملكة مع انها كانت تنفاسي حصتها كاملة من العشر عن كل فحل تملكه يدها ولو كان ذلك من غنائم الحرب . وبالرغم من انها كانت اغنى المؤسسات في الدولة فقد كانت باعفائها من الرسم تساهم بطريقة غير مباشرة في تفويض دوائرها . ولعل منظمتي " المشارية " و " الدارية " التابعتين لها كانتا من اخطر شي على حياة المملكة .

وكذلك لم يكن النظام القضائي في " الدولة اللاتينية " باقل تعقدا وبالناتسي اضرارا في الدولة من الانظمة السابقة الذكر اذ كان في القدس محكمان انتتان = الاولى المحكمة العليا تقضى بين المتنازعين من الاشراف او بينهم وبين الملك ، والثانية تقضى بين المتخاصمين من عامة الفرنج المدنيين وكان من صلاحياتها النظر في الحرائم ايضا . الا ان كلتا المحكمتين كانتا تعتمدان في حكمها على العرف اذ لم تكن الشريعة مدونة . ولم يكن ضرر النصارى من ضرر الاشراف ورجال الدين في هذا النظام اذ كانوا على الاغلب عديدين واثريا مما جعلهم في جسم الدولة وحدة قوية مستقلة بامورها الاجتماعية والسياسية بل والقضائية وفي ذلك ما فيه من عرقلة لسر الدولة ونفوذها .

وما كان يسود في " مملكة القدس " من المحاكم بفضل هذا النظام كان يسود مثله في

في كل مقاطعة ايضا = فمحكمة للاشراف واخرى للمدنيين النصارى ، فضلا عن محكمتين أُخرين احدها في المدن التجارية الكبرى^(١) وثانيتها محكمة " السلسلة " في المرافى . وكانت الاولى تنال من اربعة سوريين واثنين من الفرنج وكانت تنظر في القضايا التجارية المتعلقة بالسوريين والثانية (من ايام الملوك سنة ١١٦٢ - ١١٧٤) كانت تنظر في قضايا التجارة وكانت كسابقتها تنال من رئيس ومعاونيه . وكان هناك محكمة اخرى مستقلة عن كل ما ذكر ونختصر بالابطاليين في كل مدينة تحت ادارة فناصلهم وكان من حقها النظر في جميع القضايا العادية عدا ما كان منها يتلف بحريمة القتل والسرقة او الاحتيال . ولما كانت هذه المحاكم تدخل في دائرة الاعفاءات من الرسوم والواجبات المالية كان ذلك مضرًا مصلحة الدولة . وكان للكنيسة ايضا محاكمها الخاصة لتنظر في جميع القضايا المتعلقة بالاحوال الشخصية وباملاكها وكانت هي ايضا تعفى من جميع الرسوم والواجبات .

ولعله من المفيد ان نذكر هنا ايضا ان " الدولة اللاتينية " لم تكن لتترك النقطة في الجهاز الحكومي فحسب بل كانت تعاني تدهورا في الاخلاق ايضا مما حمل محمود القوة الحاكمة بالاضافة الى الحكومتين تنضال شيئا فشيئا حتى عجزت عن النهوض بنفسها .

تلك بعض الهماما الداخلية التي كانت تنخر في جسم " الدولة اللاتينية " فيما كانت الاسباب الخارجية تنضاف للقضا عليها نهائيا . اما هذه الاسباب فتتمثل في هجوم المسلمين المعاكرو^{وهم} بدأ فعلا بامتلاك عماد الدين زنكي للموصل سنة ١١٢٧ . غير ان عام سنة ١١١٠ يشكل في الحقيقة نقطة التحول في تاريخ هذه الحروب او دور الانكسار بالاضافة الى الفرنج والانعكاش باعتبار المسلمين ان فيه سرع هتولا في الشامك والارتباط حتى استعادوا وحدتهم من جديد .

وكان مصدر تلك البقطة في الجزيرة العليا من ارضها بين النهرين حيث تبلورت فكرة الجهاد والاستشهاد في سبيل استرجاع البلاد الدامية من مغنبيها واحلافهم عنها نهائيا .

(١) محلة المعنفه كما لا بد ان يستوعق

ولعل الفضل في ذلك يعود الى حد بعيد لمدينة طرابلس ان صعدت
طويلا وصبرت صبرا جميلا ولا تعجب فقد كانت من " اعظم بلاد الاسلام واكثرها تحملا
ونروة (الكامل ج ١٠ ص ١٧٢) ويعود شيء من ذلك الفضل لصاحبها فخر الملك
ابى على بن عامر الذي " ظهر منه صبر عظيم وشجاعة وراى سديد " (نفسه ص ١٧٣)
في الدفاع عنها حتى اذا كان عام ١١٠٨ وقد شعر بما لم يحد له به احتمال
توجه الى بغداد يستنجد بالسلطان فوعده خيرا لكنه عاد في سنة ١١٠٩
عندما سقطت المدينة فجدد طلبه للنجدة وصدق ان استقرت اماره الموصل
لشرف الدولة مودود سنة ٥٠١ هـ . رجل الساعه ان ذاك فاستطاع بموافقة
اخيه السلطان محمد بن ملكشاه وتشجيعه ان يبحث في نفوس المسلمين الحمية
الدينية ويهيب بهم الى الجهاد . وظل مدة اربع سنين لا تفر له همة عن
القبيل بما ندب نفسه له حتى توفاه الله بعد ان ترك من بعده وصية لخلفائه
بوجود المناورة على الجهاد ، وان ما عرف عن خلفائه من عزم اكيد في الاستمرار على
القتال قد دفع بامراء الجزيرة الفراتية لان يتابعوا عملا بداء مودود ونشوا عليه
الامير الغازي بن ارتق صاحب مارد بن حتى كانت نتيجة حملاته باين سنة ١١١٨ -
١١٢٣ ان ضم الى ممتلكاته مدينة حلب وسكانها . وهكذا فان الحركة التي
اجهزت على " دولة اللاتين " كان مبعثها من الموصل ومارد بن .

وكان في جهتي مودود تركي آخر من فرسانهم المعدودين والشهود لهم
بالشجاعة وجودة الراى وحسن القيادة كما عرف فيما بعد بضغط ما ولبه ايضا بحنة
وكفاة ونعنى به عماد الدين زنكى فقد ارتفع له صوت في ارض الجزيرة وظل له
فيها قدر حتى اذا ما كانت سنة ٥٢١ هـ و ١١٢٧ م . وقد شمرت آنشد اماره
الموصل من سيد بدير امراها بوفاة صاحبها ابن آقسنقر البرسنى وورثته لم يكن
خيرا من عماد الدين لها فولاه السلطان البلاد كلها وكان لزنكى هذا في الدولة
راى حصف دل على مبلغ تفهمه بلامور تفهما صحيحا ان كان يقول - " ان البلاد
كيسنان عليه سباج ، فمن هو خارج السباج بهاب الدخول ، فاذا خرج منها من
يدل على عودنها ويطمع العدو فيها زالت الهبة وتطرق الخصم اليها " . ولما

كانت بلاده "بجدة" بها الاعداء وكلهم يقصدوا ويريدون اخذها واختلطت
ولابانهم بولابته من كل جهاتها " لم يكن ليفتح بحفظها بل كان لا ينفذ على عليه
عام حتى يفتح من بلادهم وظل يقصد هذا مرة وذاك مرة اخرى وباخذ من هذا وصانع
ذاك الى ان ملك من كل من يلبه طرفا من بلاده . ولما رأى ان بلاده قد اصبحت
كبستان عليه سباح وان كل من هو خارج السباح هاب الدخول ادرك ان الوقت
قد خان للانفصال على فرسته "الرها" فاخذ بوجه القوم من الفرنج اخذ لا يقصد هم
وانه في شغل "اغل عنهم في ديار بكر حتى اذا أكد له عيونهم ان جوسلان امير
الرها قد جازت عليه الحيلة واظمان حتى فارق المدينة وعبير الفرات غربا باغت
القوم في ٦ جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ و ٢٣ كانون الاول سنة ١١٤٤ م . وقالها
ثمانية وعشرين يوما وما زال يضيق عليها الخناق حتى اخذها "عنوة وقهرا" ثم
تسلم مدينة سروج وسائر ما كان من البلاد بيد الفرنج شرقى الفرات ما عدا
البيرة . وبذلك يكون قد سدد خربة من اولى الصربات التي قضت على دولة اللاتين
في بلادنا .

ويرجع بعض الفضل في ذلك الفوز الى تفكك الفرنج وعدم الاتفاق بينهم
اذ كان جوسلان في نزاع مع انطاكية كما كانت القدس بعيدة عن مركز القتال ومع
انها ارسلت المدد فلم يصل الا بعد فوات الوقت (ستافانسون^{مستقدمون} ص ١٤٩ - ١٥٠)
وبهذا الفتح تم الاتصال بين حلب والجزيرة العليا كما اصبحت هذه تواجه عدوها
مع الممثنائها الى مؤخرتها وشرعت حلب فوق ذلك تحديق باراضى اللاتين بعد ان
كانت هي معهم في حصار دائم تقريبا (ص ١٥٣^{نفسه}) .

اما قول بعضهم ان عماد الدين لم يكن ليهتم لامر الجهاد فدراهتمه
لنوسيع رقعة ولايته فمردود انه كان يرمى من كل غزواته وفتوحاته الى جعل
ولايته "بلاد اكستان عليه سباح" وما ثبت ما نوافق ابن الانير على
تقريره ويدحض دعوى فروسيه وسواه من مؤرخى الغرب امثال ستافانسون قوله^{مستفزة} "
واما انا فاذا اخذت الثلثين كان قلبا لما انا بصدده من قصد اعداء الجهاد
وزولواي لطال عليك ان تشرب الماء آمنا في مارددين ولكان الفرنج ملكوها " ص ١٤٩ (نفسه)

غيران سقوط " الرها " قد اتار في اوروية موجة من الغضب مشوب
بغزو وهلع مما احاب ببعض رجالهم الى القيام بدعوة الى " صليبية جديدة " .
ولكن هبهات ابن القوم اليوم منهم بالامر ، فلم يكن لدعوتهم الا القليل من الصدى
وبالرغم من ذلك التحول فقد استطاع هؤلاء اخراج ملك فرنسة لويس السابع
وامبراطور الجرمان كونراد الثالث .

الا ان وصولهما الى بلاد الشام كان في ربيع سنة ٥٤٣ هـ و ١١٤٨ م .
في حين كان التفاهم بينهم معدوما كما كان الامر بين الفرنج ايضا . لذلك
اخذا بنسالة ابن بجبان نجه حملتهما الى نور الدين بن زنكي وخليفته
في حلب الى ان رفي دمشق . ولكن القدس ما عنت ان اوقعتهما اذ اقنعتهما
بوجوب العمل بخد دمشق . وهكذا ظلت طرابلس وانطاكية بمعبدنين عن ضم
جهودهما الى الحملة .

وما ان نوافدت قوى الالمان والفرنسيين الى طبرية حيث اجتمعوا بفرنج
الشام حتى اتجهوا جميعهم نحو دمشق واقاموا عليها الحصار في صاير ربيع الاول
سنة ٥٤٣ هـ و ٢٤ تموز سنة ١١٤٨ م . فخرج اليهم اهل المدينة والعسكر
فقاتلهم وصبروا لهم في معركة البترب على نحو نصف فرسخ من دمشق فقوى الفرنج
وضعف المسلمون . عندها تقدم الامير الاميراطور حتى نزل في الميدان الاخضر
فخشي الناس ان يملك المدينة غير ان معين الدين كان قد ارسل الى سيف
الدين غازي بن زنكي بدعوه الى نصرة المسلمين وكف العدو عنهم فما كان من
هذا الا ان قدم الى الشام مستسجيا معه اخاه نور الدين محمودا من حلب
فنزلوا في حمص وارسل الى معين الدين يخبره بحضوره مع كل من بقوى على
حمل السلاح من بلاده ويطلب اليه ان يسهل لنوابه دخول المدينة حتى اذا
انهزم دخلها هو وعسكره واجتمعوا بها وقد أكد له انه ليس له في ذلك اي
مطمح اقليمي . ثم ارسل الى الفرنج يتهددهم ان لم يرحلوا عن المدينة فلم يطل بهم
الامر حتى كفوا عن القتال خوفا من الهزيمة اولا ومن ان يضطروا الى قتال سيف الدين
ثانيا . فابقوا على انفسهم وقوى بذلك اهل دمشق على حفظها واستراحوا من متابعة
القتال غير ان معين الدين آنر لم يكن لبضع الفرصة فقام بدوره بفاوض الفرنج الغرباء

بخوفهم بسيف الدين وعلمهم بحضوره لتجديده وانه ان لم يرحلوا عن دمشق
اخطر هو الى تسليمها اليه . حينئذ يندمون ولا تساعة مندم . ثم ارسل السبي
فرنج الشام بعدهم ويتوعددهم ان هم استمروا في مساعدة هؤلاء ويقول لهم " انكم
لتعلمون انهم ان ملكوا دمشق اخذوا ما بآيديكم من البلاد الساحلية وانه ان دمر هو
باى عجز عن حفظها سلمها الى سيف الدين . وعندئذ لا يبقى لهم معه مقام في الشام .
فاحابوه الى التخلي عن الاوروبيين واجتمعوا الى الامبراطور والملك وخوفوهما من
سيف الدين وكثرة عساكره مع تنازع الامداد اليه . وانتهى رما ملك دمشق وضعفوا هم
عن مقاومته وما زالوا بهما حتى رحلا بعساكرهم عن المدينة فسلموا هم قلعة بايناس
من أنر كما كان وعدهم وارتدوا من حيث اتوا (الكامل ج ١١ ص ٥٨-٥٩)

وهكذا انكسفت الغمة عن الدمشقيين ونجت مدنهم من خطر تهددها
مدة من الزمن . وكاد الحظ بخونها فكان في ذلك فوز كبير للبلاد واهلها اذ انهم اى
المسلمين تقوا وضعف مركز الفرنج لا سيما بعد ان تعلم الاوروبيون وجوب نزح نفقهم
من الفرنج المقيمين وعدم المبالاة بهم واذا ذكرنا ان الفوز لم يكن فوزا عسكريا بقدر ما
ما كان فوزا سياسيا اذ ركنا ان اوروبية لم بعد نرى - ولو الى حين - ان تمد يد المساعدة
لهم . وبهذا اصبح المسلمون ولبر لهم من خصم سوى فرنج الشام وقد ظهر ذلك
حالا فلا جنود حضرت ولا مساعدات مالية وعملت بل ولا حجاج وفدت واصبحت العرب مع
نور الدين دون ان يلقى القوم نجدة ما من الخارج .

ولئن كانت ضربة زنكي في الرها موجعة فان " لعبة " معين الدين
في دمشق لم تكن اقل اثرا طبيا من هذه الوجهة . ومن نتائجها انها فتحت المجال
امام نور الدين لان بهاحم انطاكية ويتفرغ بعدها الى انعام الفتح في مقاطعة الرها ويجلى
القوم عنها . ففتح كل ما وقع منها في الغرب كتل بائرسنة ٥٤٥ هـ . و ١١٥٠ م . كما انه
كان قد هزم ريموند سيد انطاكية وقتله سنة ٥٤٤ هـ . و ١١٤١ م . بعد ان تسلم
عدة مدن في شرق امارته . اما بخدوين الثالث ملك القدس فقد حاول ان يستفيد من
تلك الحال فصعد الى التقرب نارة من دمشق واخرى من القسطنطينية وبالفعل فقد ساد
حسن التفاهم بين القدر والقسطنطينية طوال عهدي بخدوين واخيه امرى بفضل ما

تبادل البيتان من النساء عن طريق الزواج الامر الذى جعل الفرنج يصعدون فى وجه نور الدين . الا ان النزاع الداخلى بين افراد الاسرة المالكة من الفرنج ظل سائدا بينما كان المسلمون يشددون الخناق تدريجيا عليهم من الشمال والجنوب اذ ان نور الدين كان يسعى - ثمان من سبقة من ابطال المسلمين - الى الاحاطة ببلاد الافرنج ووضعها بين راسى الكباشنة . وبالفعل فقد سقطت دمشق سنة ٥٤٩ هـ و ١١٥٤ م . فى يديه وانضمت بذلك الى بقية البلاد وخسرت عندها مملكة القدس اكبر صديق لها كما فتحت الطريق الى مصر .

الا ان بلدوين كان قد سبق له ان انتزع من الفاطميين عسقلان سنة ٥٤٨ هـ و ١١٥٣ م . بعد ان صمدت فى وجه الافرنج خمسين سنة وهكذا نوهم انه قد اصبح الطريق مفتوحا امامه الى القاهرة .

اما الحالة الداخلية فى مصر فكانت من الفلق والاضطراب بحيث طمع بها كل من دمشق والقدس اذ ما كاد طلائع بن رزك وزير العاضد فيها يقضى نحبه فى ايلول سنة ٥٥٧ هـ و ١١٦١ م . حتى خلفه ابنه الملك العادل وارسل بعزل شاور امير الصعيد بالرغم من كفاءته ومكانته فما كان من هذا الا ان زحف على القاهرة فانهمز الملك العادل منها ونبت اور مكانه فى صفر سنة ٥٦٢ هـ و ١١٦٦ م . غير ان طامعا جديدا باسم ضرغام جمع جموعا ونازه شاور الامر فانهمز منه الى الشام حيث اتحا الى نور الدين فى دمشق فى ربيع الاول سنة ٥٥٩ هـ و ١١٦٣ م . وطلب اليه ان يحجزه بالعساكر ليسترجع منصبه على ان يكون له ثلث دخل مصر عدا ارزاق العساكر ويبقى له نائب بقم بحنوده فى مصر . فانتدب نور الدين لذلك اسد الدين شبركوه متحيزا وسار معه شلور فى حمادى اولولى سنة ٥٥٩ هـ و ١١٦٣ م . بينما اتجه نور الدين الى اطراف بلاد الفرنج مما بلى دمشق بعساكره منعاً للقوم من التعرض لاسد الدين وحملته .

ولما وصل اسد الدين الى مدينة بلبيس من ارض مصر انهمز امامه ناصر الدين اخو ضرغام فنقدم الى القاهرة ودخلها ظافرا فخلع على شاور ^(الزكي) اعيد الى الوزارة واقام اسد الدين بظاهر القاهرة غير ان شاور غدر به ونكت عهده وارسل اليه بامر بالمودة الى الشام فامتنع وطالبه بتنفيذ ما كان استقر بينهما من شروط فلم يحبه شاور الى ذلك

عندها امر نوابه تسلم مدينة بلييس والقبن على اقية الامور في البلاد الشرقية فارسل
ساور الى الفرنج يستعدهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر كان لهم في ذلك
ما لم يحسبوه وسار امرى الى تلبية الدعوة .

وكان قد وصل آنثذ الى الساحل الشامى جمع غفير من نصارى الفرنج
لزبارة القدس لاستئذان بهم الفرنج الساحلية فاعانوهم ونوجه بعضهم معهم واقام الآخرون
في البلاد لحفظها . فلما قارب القوم مصر قصد اسد الدين تبركوه بلييس فاقام بها هو
وعسكره وجعلها له ظهرا يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والفرنج ونازلوه ببلييس
وحصروه بها ثلاثة اشهر وهو ممتنع بها بلاديهم القتال وسراجهم فلم يبلغوا منه وطرا .
وفيما هم كذلك اناهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم وتملك نور الدين لها ومسيره الى
بانياس فاستقط في ابيديهم فراسلوا اسد الدين بالصلح وطلبوا اليه مفارقة مصر وتسليم
ما بيده منها الى المصريين فاحابهم الى ذلك انه لم يكن قد علم بفهر نور الدين
للفرنج في الشام واستيلائه على حارم فضلا عن ان الاقوات والذخائر قلت لديه
فخرج في ذي الحجة سنة ٥٥٢ هـ و ١١٦٣ م . وعادوا هم الى الشام ليدركوا بانياس
فلم يملوا الا وقد ملكها نور الدين وعاد منها الى دمشق .

غير ان اسد الدين ظل بعد رجوعه الى الشام يتحدث عن مصر
ونفسه تستحثه اليها فاقنع نور الدين براه فجهزه في سنة ٥٦٢ هـ و ١١٦٧ م .
بجيد قوى وسير معه جماعة من الامراء ، بينهم ابن اخيه صلاح الدين بلغت عدتهم الفى
فارب . فلما احتج العسكر سار الى مصر برا فوصلها وعبر النبال الى الحانب الشرقى
ونزل بالجيزة مقابل القاهرة ونصرف في البلاد الغربية وحكم عليها واقام ثبعا وخمسين يوما .
اما ساور فلما بلغه دخول اسد الدين الى مصر ارسل الى الفرنج
يستنجدهم فوافوه على " الصعب والذلول " طمعا في ملكها وخوفا عليها من اسد الدين .
غير ان هذا عاجلهم وهزمهم مع المصريين وتقدم بدها الى نخر الاسكندرية فتسلمها
بمساعدة من اهلها واستناب بها صلاح الدين وعاد هذا الى الصعيد . ولكن المصريين
والفرنج عادوا فاجتمعوا على القاهرة واصلحوا حال عسكرهم وساروا الى اسكندرية فحاصروا
صلاح الدين بها غير ان اهلها سبوا حتى عاد اسد الدين من الصعيد اليهم فما علم

القوم به حتى خافوا وارسلوا يطلبون الصلح فاجابهم اليه وشرط على الفرنج ان لا يقيموا بالبلاد ولا يملكوا فيها قرية واحدة فاذعنوا واصطلحوا وعادوا الى الشام ونسلم المصريون الاسكندرية في نصف شوال ورحل شبركوه الى دمشق في الثامن عشر من ذي القعدة . غير ان الفرنج كان قد استقربينهم وبين المصريين ان يكون لهم مخرج في القاهرة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار . هذا كله استقر مع شاور اما العاضد فلم يكن له معه حكم وعاد الفرنج الى بلادهم في الساحل الشامى وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم .

وفي ربيع سنة ٥٦٤ هـ و ١١٦٨ م . زاد طمع من كان منهم في مصر فراوا ان ليس في البلاد ^{من} يبردهم عنها فارسلوا الى اميرى ، ملكهم في القدس يستدعون لملكها وقد هونوا عليه امرها وحملوه على السير اليهم . فلما سمع نور الدين بالخبر سره هو ايضا بجميع عساكره وامرهم بالقدوم عليه فحدد الفرنج في السير الى مصر حتى قدموها ونزلوا بليبس وملكوا قهرا بمسئتها صفر سنة ٥٦٣ هـ و ١١٦٨ م . ثم ساروا منها الى القاهرة وحاصروها فخاف الناس منهم ان يفعلوا بهم ما فعلوه باهل بليبس فحملهم ذلك على الامتناع فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في ضعفه حتى ضاق بهم الامر وارسل الخليفة العاضد الى نور الدين يستغيث . فامر اسد الدين ان يسرع الى القاهرة فوصلها في ٧ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ و ١١٦٩ م . فوجد الفرنج وقد رحلوا عنها الى بلادهم خائبين مما املوه فاحتنع بالعاضد لدين الله فدخل عليه وفرج به اهل مصر . غير ان اسد الدين لم يطل به الامر حتى توفاه الله في ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ و ١١٦٩ فكانت ولايته شهرين وخمسة ايام فارسا العاضد الى صلاح الدين وخلص عليه وولاه الوزارة بعد عمه وتثبت قدمه وهونائهم نور الدين فاستمال قلوب الناس وبذل الاموال فمالوا اليه واحبوه وضعف امر العاضد ثم ارسل بطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته واهله ففعل وشرط عليهم طاعته والقيام بامره ومساعدته فاخذ اقطاعات الامراء المصريين فاعطاها اهل وامراءه الذين معه وزادهم فازدادوا له حبا وطلاقة غير ان هذه السياسة منه قد استفزت

المصريين وراحوا يفاوضون الفرنج باستعدادهم للقيام بثورة بمساعدتهم غير ان صلاح الدين علم بامروقضى على الفكرة في مهدها واهمل امر العاصد حتى اصبح وليس له من الامر شيء .

هذا وان الفرنج لما ابغضوا بالهلاك لدى تملك شبركو مصر راحوا يستنفزون حمية الروم عليهم يتعاونون معا على انتزاعها من الاتراك فلبى هؤلاء نداهم وجهزوا اسطولا من مائتى سفينة ووابتعدوا للنزول على دمياط فارسا صلاح الدين العساكر في النيل وكتب الى نور الدين بالامر فسير هذا بدوره الجميع كما توجه هو ايضا الى ديار الفرنج فافار عليها واستباحها ووصلت الذارات الى ما لم تكن تبلغه من قبل لخلو البلاد من مانع يمنعها فلما ابغى الفرنج انهم اصبحوا بين نارين رجعوا خائبين كما وحدوا بلادهم خرابا واهليا بين قتيل واسير وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما اظهر فيها صلاح الدين من حسن القيادة والدرابة ما سجله له التاريخ بالحمد والثناء كما اخرج العاصد من المال ما لا يعد ولا يحصى . وراح الفرنج والروم يتلاومون فاضلر امرى بعدها الى الاكتفاء بالمحافظة على ما تبقى له من بلاده في الشام وثبت قدم صلاح الدين في مصر فقام عندها بعمل على تاسيس ملك سبقي فو اعقابه من بعده ولعل هذا ما شغله عن مجاهدة الفرنج بالسرعة المتوقعة وتحت امره سيده نور الدين . اما العاصد فابغى صلاح الدين له لقبه الاسمى لمدة سنتين اخربتين ان لم يجد من الحكمة خلعه نوا لثلا يشهر عليه الراى العام الدبنى والقوى في مصر بل اثران تفعل الابام فعلها . غير ان نور الدين خرج اخبرا عن صمته وامر بقطع الخاية للعاصد وباقامتها للعباسى في بغداد (المستضى) ولما تردد صلاح الدين في استجابة الامرالح عليه * والزمه الزاما لا فسحة له في مخالفته * ان كان على الحقيقة نائبا له وانفق ان مرض العاصد واشتد عليه الالم فاقدم عنده صلاح الدين وحل العقدة فقطع الخطبة في اول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ هـ . او ايلول سنة ١١٢١ م . * ولم يمتطح فيها هنزان * ثم كتب فجلس بذلك الى سائر البلاد المصرية ففعلوا ثم ما لبث العاصد ان توفاه الله في ١٠ محرم فجلس صلاح الدين للعرزا واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه من كنوز وتحف .

عندئذ لم يبق امام صلاح الدين لتحقيق حلمه سوى سيده الاسمى نور الدين غير انه هنا ايضا فضل التريث والاناة على العجلة والندامة وترك الافذار

نحل المشكلة الباقية كما حلت غيرها من المشاكل السابقة وراح بنجنب حتى الاجتماع مع نور الدين كما فعل عندما سمع نور الدين بخزونه لحصن الشوبك فدون ان يكون له بها علم ورغب في الاجتماع به فدخل صلاح الدين الى مصر عائدا من الشوبك وكتب بعذر بالقتال البلاد غير ان نور الدين لم يقبل منه وتغبر عليه وهم على قصد مصر واخراجه منها . الا ان القضاء جاء بفصل بين السيد ونائبه بالموت اذ توفي الله نور الدين في شمال سنة ٥٦٩ وتوز سنة ١١٧٤ م . في دمشق عن ٥٦ سنة قضى اكثرها فيما قتال الفرنج . فخلفه في دمشق ابنه صالح اما عبل وله من العمر ١١ سنة فاطلعه الناصر في الشام وصلاح الدين في مصر وخطب له فيها وخرّب السكة باسمه غير ان الملك الصبي ما لبث ان لعبت به الا هراة فنقلته الى حلب فكان في ذلك لصلاح الدين فرصة ان سار الى دمشق في ٥٧٠ هـ . ١١٧٤ م فملكها كما ملك بعدها حمص وحماة ومن ثم اتجه الى حلب وحاصرها وفيها الملك الصالح ولما ضيق عليها الخنقاء استنجد خصومه بالاسماعيليه وصاحب طرابلس ريموند الثالث الوصي على عرش القدس (اذ كان في نفس الوقت من وفاة نور الدين قد مات ملكها امرى ابها وخلفه ابن له حنظير السن مجزوم) . فما ان علم السلطان بعزم الفرنج على المسمرن نحو حلب حتى رحل عنها فارندا وهم ابها ونسلم في طريق بعليك . وصار اكثر بلاد الشام بيده . غير ان العداوة بينه وبين رجال الملك الصالح استمرت عدة سنين اخرى استولى خلا للهل على قلعة بعرين وبزافه ومنيج واعزاز وحاول ان ياخذ حلب فمجز عنها وتم الصلح بينه وبينهم فارند عنها وقصد بلاد الاسماعيليه فذهب بلدهم مصاف واخره واحرقه وما زال بهم حتى طلبوا الصلح فاجابهم اليه ورحل عنهم في سنة ٥٧٢ هـ . ١١٧٦ م . ثم التفت الى مدن الشمال كآمد وهيتاب وما زال ينتقل بين الشمال والجنوب فيقاتل الفرنج نارة ويضم من مدن الشمال تبعضا نارة اخرى حتى كانت سنة ٥٧٩ هـ . ١١٨٣ م . فدار من هيتاب الى حلب ونزل عليها في المحرم وكان صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي فاستقر بينهما ما الصلح ونسلم صلاح الدين حلب وعرضه عنها بسنجار ونصيبين والخابور والفرقة وسروج واقام السلطان فيها الى ان غفيرة من تقرير قواعد ها ود بوانها واقطع اعمالها وبذلك قد تم له ان يجمع بين وادي النيل وبلاد الشام وجعل الفرنج بذلك بين فكي الاسد

فلم يجد السلطان الان بدا من قتال الفرنج اكنة نعد بهم على فوافل المسلمين في طريقها بين القاهرة ودمنة ولعل أقطع ما أثار من ميعظه البربر ارباط صاحب الكرك وكان من اعظم الفرنج واخبرهم وانددهم عداوة للمسلمين ان لم يكف بسلب القوافل التجارية واعزوا الحجاج في طريقهم الى مكة والمدينة - رغم ما كان بين الفرنج والسلطان من مهادنة - حتى قام في ١١٨٢ - ١١٨٣ م بعمال لغزو الحجاز بحرراً الامر الذي اخرج صلاح الدين عن حلمه وجعل يندره ان يقتله ان ظفريه ، فراح عندها يستنفر الناس للجهاد ويحثهم عليه ويبعث الى بلاد المصرة ومصر وسائر بلاد الشام بدعوتهم الى الجهاد وبامرهم بالتجهز له ثم خرج من دمنة في اواخر المحرم من سنة ٥٨٣ هـ و ١١٨٢ م في عساكرها وسار الى رأس الملك في حوران حيث تلاحقت به العساكر المماليكية ، فلما اجتمعوا جميعا عليهم ولده الملك الافضل عليا وسار هو الى بصرى ليمنع البربر ارباط من طلب الحجاج ، ولجعله يلزم بلده خوفا عليه فلما سمع ارباط قرب صلاح الدين من بلده لم يتأوه وانقطع عما طمعه فيه ، فعمل الحجاج صالحين عند عليا سار السلطان الى الكرك وبت سراياه من هناك على ولاية الكرك والذويت وغيرهما فذهبوا وخرّبوا واحرقوا والبربر محصورون وكرو لا يقدر على الدفاع عن بلده وكذلك فعل سائر الفرنج فلزموا طرة بلادهم خوفا من العسكر الذي كان معه ولده الملك الافضل (الكامل ج ١١ ص ٢٢٩) .

وفيما كان صلاح الدين حيث راياه كان انه الافضل قد ارسل من رجاله من يتعدى للفرنج في صفورية فخرج اليهم الفرنج في جمع من الدولة والاستنارة وغيرهما فالتقوا هناك وحرّبت بينهم حرب شابت لها المفارقة السود * فانهم الفرنج وقتل منهم جماعة واسر الباقون .

ولما انت صلاح الدين البعثات بذلك النصر المبين على الاستنارة والدولة عاد عن الكرك وقد تلاحقت به سائر الامراء والعساكر واجتمع بهم وساروا حتى نزلوا بالاقعوانة قرب طبرية . عندئذ اتفقت كلمة الفرنج بعد فرقتهم وجمعوا فارسهم وراحلهم وساروا ٢٠,٠٠٠ من عكا الى صفورية فنقدم المسلمون حتى خلفوا طبرية وراء ظهرهم وصعدوا جبلها ، ولما جنهم الليل قاتلوا المدينة ونقبوا بعض ابراجها واخذوها عنوة .

فلما علم الفرنج بالخبر اجتمعوا للمشيورة وبعد اخذ ورد قرار بهم على قتال المسلمين ، وكان صلاح الدين قد عاد من طبرية الى عسكره ونزلوا على الماء والزمان قبض شديد الحرقاجهد العطش الفرنج ولم يتمكنوا من الوصول الى ذلك الماء اذ كانوا قد استهلكوا ما هناك من ماء الصحاريج ولم يستطعوا الرجوع خوفا من المسلمين فتقوا على حالهم الى الداء وهو يوم السبت في ٤ تموز سنة ١١٨٧ م وقد اخذ العطش منهم ماخذة فركب المسلمون في الصباح وتقدموا الى الفرنج فاقتتل الفريقان قتالا شديدا حتى انتهزم الفرنج وكان بعض المنطوعة قد القى في تلك الارض نارا وكان الحريق كثيرا فاحترق وكانت الرياح شديدة فحملت النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال وحسبوا انهم لا ينجيهم من الموت الا الاقدام فحملوا حملات متدركة باءت جميعها بالفشل لوهنوا لذلك وهما عظميا . عندها اخاطبهم المسلمون احاطة السوار بالمعصم فارفع من بقى منهم الى تل بناحية حلبين وارادوا ان ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ومنعهم مما ارادوا ولم يتمكنوا من ان ينصبوا خيمة الملك . فلما صار الملك على التل في مقدار مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين حملوا حملة صادقة على من بازائهم من المسلمين غير ان هؤلاء صدقوا ثم كروا عليهم فالتقوا خيمة الملك واسروه من بكرة ايبيهم ، وبينهم الملك واخوه البرنس ارناط وصاحب حبيلا وابن هنفري ، ومقدم الداوية وجماعة من الاستنارية والداوية ايضا . وما اصاب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل سنة ٩١ ٤ هـ و ١٠٩٧ م . الى الان يمثل هذه الواقعة (في ٤ تموز سنة ١١٨٧ يوم السبت ٥ ربيع الاول سنة ٥٨٣ هـ) التي فاقت بالمها ما تركته فيهم معركة الزها على يد عماد الدين زنكي ل . ٤٣ سنة خلت ، كما انها ذكرتهم بارندادهم عن دمشق في معركة المزة ايلم كوتشراد الثالث ولويس السابع وتاكيد لديهم انهم لا يبقوا لهم في الشام بعدها .

ولما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته ~~واحض اليه~~ ملك الفرنج — ومعه البرنس ارناط — وقد اهلكه العطش فسقاء ماء ملوفا فشرب واعطى فضله ارناط فشرب ايضا فقال صلاح الدين — ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني

فبنال امانى " ثم كلم البربر وقرعه بذنوبه وعدد عليه عوراته ثم قام اليه بنفسه
فضرب عنقه وقال = " لقد كنت نذرت دفعتين ان افنته ان ظفرت به " فلما قتله
وسحب واخرج ارتعدت فرائص الملك فسكن السلطان جاشه وامنه واما الفهم صاحب
طرابلس ، فانه كان قد انهزم في وسط المعركة وبجا ورحل الى صور ثم قصد طرابلس
ولم يلبث الا اباما فلائيل حتى " مات غبظا وحنفا لما جرى على الفرنج ٠ ٨ (الكامل
ج ١١ ص ٢٤١ - ٢٤٣) .

لقد كان للضربة النجلاء التي سددها صلاح الدين الى قلب
" الدولة اللاتينية " سهل حطين في ٥ ربيع الاول سنة ٥٨٣ من الانار والنتائج
ما جعلها غرة في جبين التاريخ ومن آثارهم انها مزقتهم شرمزق وقلبت معنوياتهم
راسا على عقب حتى تركتهم لا يلبون على شيء ولا يدرون ما يفعلون فاخذوا بشارهون
الى ملاجئهم نساء الحيوانات الى اوكارها وقد احست بهزة ارضية او بتغيير فجائي
في العوامل الطبيعية .

ومع هذا كله فلم تفار صلاح الدين الرافة ولا الرحمة بل راح في
نصره وفوزه يكتنقو على فقيرهم ويحن على ضعيفهم ويؤمنهم على ارواحهم فيسمح لهم
بالرحيل الى حيث شاءوا ، فلم يجدوا من ذلك المصاب مهريا ولا منه ملجا غير
التجمع في مدينة صور ، علمهم باستعدادتهم وعيهم بقدرهم على التفكير في الامر
فينتدبرون مصيرهم قبل ان يوجههم صلاح الدين برجاله وينفيهم عن بكرة ابيهم
بعد ان امنهم وهو في نشوة النصر وطمانتهم وهم في غمرة الهزيمة .

هذا ما كان من انزالك في نفوس القوم اما ما كان من النتائج
الطبية التي جناها المسلمون = ان السلطان لم يدع خمرة الفوز تلعب في اعصابه
ولا فرصة النصر توثر في تفكيره بل راح من وقته يفكر ويعمل على مطاردة القوم في
كل مدينة وبلد وكا قلعة وحصن حتى لا يدع لهم فرصة الهدوء او اللحو الى التفكير

بأمرهم فما ان فرغ من امر حطين حتى توزع هو واخوه الملك العادل وبقية الامراء
العمال فراحوا جميعهم بتلفقون قلول الفرنج ويهاجمون مدنتهم ويحاصرون قلاهم في
الشمال والجنوب والوسط حتى جنوا ما استطاعوا ان يحنوه من النار الشبهية بعد
ذلك الظفر المبين - ففتح العادل على حدود مصر مجدا بابا ومدينة بافا كما تسلم
صلاح الدين مدبنتى طبرية وعكا ودخل امراؤه بعساكرهم الناصرة وقيسارية وحيفا
وصفورية والقلعة وغيرها من المدن والحصون والقلاع في البلاد المجاورة كتبنين
وصيدا وجبيل وبيروت ثم ملكوا نابلس وسبسطه حتى لم يبق امام صلاح الدين اهم من
عسقلان والقدر لاسباب عديدة منها - انهما على طريق الى مصر يقطع بينهما وبين
الشام وكان فوق ذلك يريد ان تنصل الولايات لبسمل خروج المعسكر منها ودخولهم
اليها ثم لما فى فتح البيت المقدس من الذكر الحمل والصبى العظيم الى غير
ذلك من الاغراض فصار عن بيروت نحو عسقلان "عروس الشام" التى صدت الفرنج
عنها خمسين سنة وصدت فى وجههم سبعة اشهر فى سنة ١١٥٣ فاجتمع الى اخيه
الملك العادل والى من معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الاحد فى سادس عشر
جمادى الآخرة سنة ٥٨٣ هـ و ٢٩ تشرين الاول سنة ١١٨٧ م وكان سبق للسلطان
ان احضر من دمشق ملك الفرنج ومقدم الداوية وقال لهما - "ان سلمتما البلاد الى
فلكما الامان" غير انه اخطر الى قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وضرب الحصار
حولها لمدة ١٤ يوما فلما راوا انهم كل يوم يزدادون ضعفا ووهنا راسلوه فى
تسليم البلد على شروط اقترحوها فاجابهم اليها وسلموا المدينة سلم جمادى الآخر
سنة ٥٨٣ هـ و ٤ ايلول سنة ١١٨٧ م

وبعد ان فرغ من امر عسقلان وما جاورها من البلاد امتلأ الرمل
والزروم وغزة والخليل وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية فى اطراف
البلاد المجاورة امر باسطول مصران بخروج ويقطع الطريق على الفرنج ثم سار هو الى
البيت المقدس فنزل عليه فى ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ و ٢٠ ايلول سنة ١١٨٧ واقام
الحصار عليه وما زال يضيق عليه الخناق حتى دخله المسلمون يوم الجمعة السابع
والعشرين من رجب و ٢ تشرين الاول - وكان يوما مشهودا وقد اظهر فيه صلاح الدين

من الاربحية والشهامة ومن الرفافة والانسانية ما سجله له التاريخ بالفخر والاعجاب .
وانا لنكتفى بالاشارة اليه والتنويه به هنا لنفوسع في ذلك بمكانه . واذا ما ذكرنا
انه لم يكن بين سقوط القدير ومعركة حطين سوى اربعة اشهر وتذكرنا ما تم خلالها
من فتح ونصر ادر كنا ان صلاح الدين لم يترك دقيقة دون ان يستفيد منها في مجاهدة
الفرنج ومصابرتهم والعمل على استرجاع البلاد والتخلص منهم .

وها هو وقد فرغ من امر القدير بذاورها في ٢٥ شعبان فاعدا
الى صور وقد تفرغ لها بعد ان كان توقف عن فتحها قبلا لحصانتها وامتناعها . لكنه
وجد انه قد اخطا فقد جاءها بحرا بعد فتح عكا وغيرها من المدن الساحلية بقليل ،
المركيس "كونراد صاحب مونقرا" للزيارة والتجارة فدخلها وقد اصبح فيها خلق كثير
ممن قصدوا من فلول الفرنج ومثرت بهم بعد معركة حطين ، وقد ظلوا وليس لهم راس يجمعهم
ولا قائد يقاتل بهم ، وفيما هم يفكرون في مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد اليه ،
اتاهم المركيس ، وهم على ذلك الحزم ، فردهم عنه وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة
وبدل ما معه من الاموال وشرط عليهم ان تكون المدينة واعمالها له دون سواء فاحابوه
الى ذلك واقام عندهم ودبر احوالهم " وكان حسن التدبير " شجاعا فشرع في تحصينها
بتجديده حفر خنادقها وعمل اسوارها حتى زاد في حصانتها .

تلك كانت حالة صور واهلها لما وصل اليها صلاح الدين في ٢٢
رمضان من السنة نفسها وها " مقاتلتها في البر ولكنه وجد ذلك قليل الجدوى لضيق
المجاا بين المدينة والبر فرحاه عنها وقد ادرك انه باهماله لها من قبل قد جعلها
نقوى عليه الان لا سيما وقد تعب هو ومن اصحابه القتال ونبت معهم النفقات واصبح
الثناء على الابواب فاذن العساكر جميعا بالعودة الى اوطانهم والاستراحة والرجوع
اليه في الربيع المقبل .

ولم تكن صور وحدها هي التي اقلقت السلطان بل كان هناك ايضا
قلاع كوكب وصفد والكرك ، ان كانت البلاد الساحلية من عكا حتى جبيل قد اصبحت جميعها
في قبضة بدء ، ما عدا هذه الحصون وكان يود لو لم يبق في الداخل ما يشغل قلبه ويقسم
همه ويحتاج الى حفظه ، لثلا يقع منها ضرر على الرعايا والمجتازين لها فلم يبردا

وقد امتنعت عليه قلعة كوكب من الذهاب الى دمشق بعد ان ترك عليها من يقيم محاصرتها حتى ولّى الشتاء بيرده ووصله وهاد الربيع بصحوة ونواره فاخذت العساكر تنوافد عليه حتى اجتمعت وكثرت عنده فتوجه الى الشمال ونزل تحت حصن الاكراد وجعل يغير منه حتى فتح صافينا والمرصة وحمور وغيرها من البلاد والولايات ووصل الى قرب طرابلس لايصر البلاد وتعرف الى مسالكها ثم عاد الى معسكره سالما وقد غنم الكثير من الدواب على اختلاف انواعها ما لا حد له واقام تحت حصن الاكراد الى آخر الربيع سنة ٥٨٤ هـ و ١١٨٨ م ثم اتجه شمالا وراح ينتقل من فتح الى آخر حتى دخل حيلة واللاذقية وصهيون وملك حصون بطنس والشفرو ودربسات وغيرها وكلها من املك صاحب انطاكية فلما سمع هذا بكل ذلك خافه واشفق منه فارسل يطلب الهدنة وبذل اطلاق كل اسير عنده من المسلمين فاجابه السلطان الى ذلك واصطلحوا ثمانية اشهر اولها ثلثين الاول وآخرها آخر ايار سنة ١١٨٩ م و ٥٨٥ هـ وكان صاحب انطاكية في هذا الوقت اعظم الفرنج ثانا واكثرهم ملكا فانه كان تسلم طرابلس بعد موت القمص عن غير ولد بخلفه فيها .

وهاد صلاح الدين الان الى حلب حيث فرق السكر الدرقية وسار هو منها الى دمشق ودخلها في اول رمضان فاشير عليه بتفريق العساكر فقال = " ان العمر قصير والاحل غير مأمون ، وقد بقي بيد الفرنج هذه الحصون = كوكب وصفد والكرك وغيرها . ولا بد من الفراء منها فانها وسط بلاد الاسلام ولا يؤمن شر اهلها وان اغفلناهم ندمنا فيما بعد " .

وهذا برهان على شدة قلق السلطان من جهة وعلى عزمه ان لا يقع فيما وقع فيه مع صور من قبل فراج بتلفت الى الجنوب وكان قد جعل على الكرك - اثنا غيا به في الشمال - عسكرا يحصروه ، فلازموا الحارثي لم يبق للصبر عند الفرنج مجال فراسلوا الملك المعادل فتسلم منهم القلعة وامنهم وملك ايضا ما بقاره من الحصون كالشويخ والدعبرة والسليخ ، فاطمان الى ذلك صلاح الدين كما امتد قلوب من في ذلك الصنع من البلاد كالقدس وغيرها ، فقام عندئذ السلطان بفاد دمشق

الى قلعتي صفد وكوكب وملكهما عنوة فاجتمع المسلمين بفتحهما من حد ايلة الى اقصى اعمال بيروت لا بفصل بينه غير مدينة صور وجميع اعمال انطاكية .

عندها راج صلاح الدين بتفقد المدن وتحصيناتها فزار القدس وقبض فيها عبد الاخرى ثم سار منها الى عكا فاقام فيها حتى انسلخت السنة ٥٨٤ هـ ولما حلت سنة ٥٨٥ هـ وشاء انهاء ما كان بدا به من فتح ما بقي من الحصون والقلاع طرد الفرنج سارفي ربيع الاول سنة ٥٨٥ هـ و ٥ مايو سنة ١١٩٩ م عكا الى شقيف ارنون لبحصره فنزل فو مرج عيون حيث جاءه ارناط صاحب صيدا فدخل اليه واجتمع به واظهر له الطاعة والمودة وطلب اليه ان يمهله ليلسلمه الشريف حتى يكون قد احضر اولاده من صور لثلاثين اليهم من صاحبها اذى ، فخدع صلاح الدين واحابه الى ما ساء فاستقر الامر بينهما على ان يتسلم صلاح الدين الشريف في حمادى الآخرة من السنة وثلثا ينتظر فو مرج عيون وهو على قلق لا مريح هما (١) قرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين بوهمند صاحب انطاكية فما كان منه الا ان ارسل من يكون مقابلها لثلاثين من صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة (٢) لما بلغه عن اجتماع الفرنج بمدينة صور وما بنوا بهم من الامداد في البحر وان ملك الفرنج "غى اللوزيناني" الذي كان قد اسره السلطان واطلة سراحه بعد فتم عسقلان قد اصطلح هو والمركب بعد اختلاف كان بينهما وانهم اجتمعوا في خلق كثير وخرجوا من مدينة صور الى ظاهرها . فكان هذا واشباهه مما يزعمه ويخاف من ترك الشريف وراء ظهره والتقدم الى صور وسها الحموى المتوافرة فتنتظم البرة عنه . واخبرا عندما كلم صلاح الدين ارناط اذركه وخداعه فاخذه وحبسه ، وفو اتنا هلك جاءته الاخبار بخروج الفرنج من صور لحصار صيدا فبران عساكره اعجزوهم عن الوصول اليها فعادوا الى مكانهم . ولكن صلاح الدين ادرك انه قد اصبح عليه ان يتخذ خطة الدفاع كما وانه بعد ان كانت المبادرة في بدء كل تلك المدة وانما سها تنتقل الى العدو .

وكان صلاح الدين — وهو في عسقلان — قد احضر من دمشق الملك

عقلى واطلقه بعد تسليم عسقلان ، كما راينا واخذ عليه عهدا بانه ينادر البلاد ولكنه ما لبث ان ينتقل على عقبيه في صيف سنة ١١٨٩ م و ٥٨٥ هـ ويشير بالزحف على عكا رغبة منه في استرجاع ما كان الفرنج قد فقدوه بعد هزيمة حطين . وما

البت كونراد صاحب صوران وفد ايضا بحساره ، كما انضم اليهم جموع الوافدين من اوروبا .

وكان ذلك في ٥ شعبان سنة ٥٨٥ هـ و ١١٨٩ م واستمر الحصار على اشد ما يكون بين الفرنجيين ٨ من قتال حتى استنفد كل منهم ما لديه من جهد وفن وذخائر وآلات حصار في البر والبحر ما لم تشهد مثله في جميع ادوار هذه "الحروب الصليبية" واستمرت الحال على هذا المنوال حتى كان ربيع سنة ٥٨٧ هـ و ١١٩١ م حين وصلت امداد الفرنج من البحر الى من كان منهم على عكا وكان اول من وصل الملك فيليب اوست في ١٢ ربيع الاول سنة ٥٨٧ هـ و ٢٠ نيسان سنة ١١٩١ فقويت بذلك نفوس القوم والحواف في قتال المسلمين ثم وصل ملك الانكلتار (الانكليز) .

وكان فيمن خرج من ملوك الفرنج في هذه الحملة ملك الالمان فسار رجاله واريفه على القسطنطينية حتى ^{عبروا} غلبوها وعاصرها ار بلاد الاسلام فاهلكهم البرد والحوء والتركمان ، ولما تاروا مدينة نونسة نزودوا وساروا حتى اتوا بلاد الارمن فامدهم ملكهم بالاقوات والعلوفات ثم اتجهوا نحو انطاكية وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم اليه ليقتل فذرق فيه . فصار ولده ملكا بعده غيرانه اختلف عليه اصحابه وما كاد يسير بهم حتى وقع فيهم الوباء والموت وما انا وصلوا الى انطاكية حتى نسم بهم صاحبها فساروا حتى طرابلس ولم يبق منهم الا القليل فركبوا البحر الى عكا ولما راوا ما نالهم في الطريق من جهد ونصب عادوا الى بلادهم وكان هذا آخر العهد بهم (الكامل ج ١٢ ص ٢٣ - ٢٤)

ثم وصل ملك الانكلتار (الانكليز) في حمادى الاولى سنة ٥٨٧ هـ و ٨ حزيران سنة ١١٩١ وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرص واخذها من الروم غدرا ولما فرغ منها سار الى عكا فوصل اليها في ٢٥ قطعة كبار مملوءة رجالا واموالا فعظم به امل الفرنج واشتدت نكايتهم بالمسلمين وضافت به ولاء الحبل فارسلوا الى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يقدر لهم على نفع فعزموا على تسليم البلد يوم الجمعة في ١٧ حمادى الآخرة و ١٢ تموز على الشروط الآتية (١) بذل مائتي الف دينار وخمسمائة اسير من المماليك (٢) اعادة الصليب . (٣) دفع ١٢ الف دينار للمركب صاحب صوران فقبل الفرنج ان يودوا المماليك مقابل ذلك (١) خروج من في البلد باموالهم وانفسهم

على ان ينفذ صلاح الدين تلك الشروط . فاجابوه الى ذلك وحلفوا له عليه وان يكون مدة تحصيل المال والاسرى الى شهرين فلما حلفوا له سلم البلد اليهم ودخلوه سلما . فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى اموالهم وحبسهم واظهروا انهم انما يفعلون ذلك رغبة منهم في ان يبروا شروط الصلح في حيز التنفيذ وراسلوا صلاح الدين في ارسال المال والاسرى والصلب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال فلما اجتمع عنده من مائة الف دينار راسلهم طالبا اليهم ان يحلفوا اليه على اطلاق الاسرى وان يضمن الداوية ذلك . لانهم اهل دين يرون الدماء . فكان جواب الداوية انهم لا يحلفون ولا يضمنون لانهم يخاصون غدر من عندهم وقال ملوكهم = " اذا سلمنا البنا المال والاسرى والصلب فلنا الخيار فيما عندنا فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيئا واعاد الرسالة اليهم وقال " نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصلب ونعطىكم رهنا على الباقي ونطلبون اعدائنا ونضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم فقالوا = " لا نحلف انما نرسل الينا المائة الف دينار التي حصلت والاسرى والصلب ونحن نطلب اعدائكم من نريد ونترك من نريد حتى يجي باقى المال فعلم الناس حينئذ غدرهم فلم يجيبهم السلطان الى ذلك .

فلما كان يوم الثلاثاء في ٢٧ رجب سنة ٥٨٢ هـ و ٢٠ آب سنة ١١٩١ ركب الفرنج وخرجوا الى ظاهرا البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون اليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكسروا من مواقعهم واذا اكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الامراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من نواهم من سوادهم واصطلح بهم ومن لا مال له فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان حقه واعاد الاسرى والصلب الى دمشق .

وعلى كل حال فليس امتلاك الفرنج لعمكا بالشىء العظيم انهم قضا

فوق ذلك سنتين من الزمن وكان الاجدر بهم ان يبذلوا ما بذلوه من مال وجهد ورجال في مقاتلة صلاح الدين نفسه وكسر شوكة اذ ربما كانوا قد استطاعوا ان يحصدوا شوكة المسلمين وان يستردوا ما خسروه بعد معركة حطين وهكذا يكون الفرنج قد ربحوا مدينة واحدة وابقوا على قوة صلاح الدين كاملة هذا فضلا عن ان جيش الفرنج كان مؤلفا من جنسيات عديدة

كان معها الحسد والنزاع والفرقة اغلب عليهم من الاتحاد والتعاون الوثيق . وقد كان وجود
فيليب وريشار في نفس المعسكر كقبلا سوفيق منا ذلك ان كان كل منهما قد جعل معه
حقده على الآخر وكان تفاخر كل منهما على الآخر يكفي لابقاع الاتفاق والفرقة بينهما
وبين قواها هذا ولم يكن كونراد وفي بجيز منهما ان كان الاخران ينافسان كل منهما
صاحبه وبعد حصارها بقليل وقع بينهما الخلاف على تاج القدس ان كونراد تزوج
بإيزابيل ابنة زوج سبيل في اواخر سنة ١١٩٠ م وبذلك يكون قد نال الحق الشرعي
في عز القدس لان سبيل كانت الان قد توفيت فقام فيليب بسانده في دعواه فما كان
من في الا ان تمنى على ريشارد ان يدعمه هو ابنا في قضيته ولعل هذا ما كان
ريشار ينتظره . وهكذا تشابكت منافسة فيليب لريشار مع منازعة كونراد لغسي واخذوا
يتدخلون بهذا وذاك مما كان من فيليب الا ان استعد للرجوع الى فرنسا فاجبر ريشارد
في اليوم الاخير من تموز سنة ١١٩١ م مدعيا ان السبب لذلك حالته الصحية ولعل
الحقيقة ان لم ترقه الحال في فلسطين ان مصالح ^{فرضت} ~~فرضت~~ اقتضت وجوده هناك .
على كل حال فقد ^{وضعه} ~~وضعه~~ الانكليز بذلك بالقدور والخبارة للفضية الكبرى . غير ان
مذاكرته لفلسطين لم تحسن الحلة فيها ان بقيت اكثرية الصليبيين من الفرنسيين
بقيادة امير برغانديه وظلت القيادة العامة لريشار وان كانت سلطته قد حددت منها
كثيرا ان لم يترك معه في مداريعه احد من كانوا يساندون كثراد الذي بقي في
صور بترقب القوس ليزيد في رفعة املاكه وما لهما ان دخل في مفاوضات مع صلاح الدين .
(الشان) واصبح الممول/الآن في تحسين لمعالجة الفرج في القام خاصة
وحالة الحملة الثالثة عامة ، على كم ببرهن ريشارد في حملاته من سياسة وحسن قيادة
ان لم ببرهن انه فهم مقدار اهمية القضاء على قوة صلاح الدين واكتفى بالعمل على استرجاع
القدس غير انهم ترددوا في العمل ايضا قد زاد في سوء الحال حتى كان سفره الى
انكلتره نالته الاسافى .

ولما فرغ الفرج من اصلاح امرها برزوا منها في ٢٨ رجب و ٢٥ آب
وساروا مستهل شعبان نحو حيفا فنزلوها ثم منها الى قيسارية فارسوف فباقا فنزلوها
ولم يكن فيها احد من المسلمين فملكوها ولما هزم المسلمون بارسون سار صلاح الدين

الى الرملة وامر بتخريب عسقلان فخرت في ١٩ شعبان والقيت حجارنها في البحر وهلك فيها من الاموال والذخائر التي للسلطان والرعية ما لا ينفذ تحت حصر وعنف انرها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع ولما سمع القوم بتخريبها اقاموا مكانهم ولم يسبروا اليها .

هذا ما كان من امر ربه اربعد اخذهم عكا اما المركيز كونراد صاحب صور فلما رأى ما رأى من من ملك الانكليز وغدره به عاد الى صور ولما سمع بتخريب عسقلان ارسل الى ريشار بنحى عليه باللائمة وبقراءه قائلا = " لو كنت مكانك لاريت كيف اسرع الى المدينة فاحتلها عنوة قبل ان ادع للسلطان فرصة ليفعل بها ما فعل " .

وعندما فرغ صلاح الدين من عسقلان رجع الى الرملة فغرب حننها ومنها دخل القدس وبعد ان تفقدتها واطمان الى حالها توجه الى الشطرون في الثالث عشر من رمضان والرابع من تشرين الاو فراسله جيفنث ملك " انكلتار " يطلب المهادنة اذ لم يعد يجد من اى الفرنج ملازمته في حروبه المشؤومة . فثلث الرسل تتردد الى الملك العادل اخي صلاح الدين حتى استقرت القاعدة = (١) ان ريشار يزوج اخيه من العادل (٢) ويكون القدس وما يابدى المسلمين من بلاد الساحل للعادل (٣) وتكون عكا وما بيد الفرنج من البلاد لاخت ملك " انكلتار " مضافا الى مملكة كانت لها داخا البحر قد ورنتها من زوجها (٤) وان رضى الداوية بما يقع الاتفاق عليه . فعرض العادل ذلك على صلاح الدين فاجابهم اليه . لكن رجال الدين كانوا الحائل دون تلك الامنية التي لو تمت لكان للتاريخ . ان غير هذا الشأن ولكن

وهكذا لم يتم الصلح وراح ريشار يهجم صلاح الدين بعزمه على قصد القدس وظل بماطل ويتردد حتى كان الشتاء وحالت الاحوال والامطار بينهما . وكان ريشار اراد ان يبرر عجزه عن مهاجمة القدس فطلب الى من كان معه من الفرنج " الداميين " ان يصوروا له مدينة القدس ولما فعلوا ذلك قال = " هذه مدينة لا يمكن حصرها الا طالما صلاح الدين حى وكلمة المسلمين مجتمعة " فلما قال لهم ذلك علموا رايه وراوا قلة العبرة عندهم فاضاروا عليه بالعودة الى الرملة فعادوا حائبين خاسرين . ولما حجز الفرنج عن القدس رحلوا في المحرم سنة ٥٨٨ هـ و ١١٩٢ م الى عسقلان ودخلوها ثم شرعوا في عمارتها لكن صلاح الدين لم يدهم بذوق طعم

الراحة بل ظل بواصا ارسال سرايا فئارة تواقع طائفة منهم وتارة تقطع المبرة عنهم دون ان يكون له فيها ملجأ .

وفي خلال ذلك راسا صلاح الدين مقدم الاسماعيليه وهو سنان بوجوب العما بواسطة رجاله على قتل المركب صاحب صور فكان ذلك في ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٨٨ هـ و ١٢ ايلول سنة ١١٩٢ م ونسب الفرنج قتله الى تدبير من ريشار لينفرد بملك الساحل الدامي . اما الملك "غنى" فكان قد اتى من ريشار جزيرة قبرص وذهب لبمسلمها . فقام على حكم الفرنج فكان المركب المذنب الكونت عنرى ابن اخت ريشار وزوج ابزابيا ارملة المركب وعاد حتى سنة ٥٩٤ هـ و ١١٩٢ م .

فى تلك الاثناء عزم ريشار على مغادرة البلاد اذ رأى اجتماع عساكر المسلمين وعجزه هو عن مفارقة ساحل البحر ، وقد طالت غيبته عن بلاده فراح يرسل السلطان فى الصلح فنرد السلطان بالاحاجة خوفا من ان يكون ريشار انما يفعل ذلك حديعة ومكرا وارسا بطلب من المصافى والحرب فاعاد الفرنجى رسله مرة بعد مرة الى الملك العادل فى تقرير الصلح فاحاب صلاح الدين حينئذ مضاهرا الى الصلح فحضر رشا الفرنج وعقدوا الهدنة لمدة ثلاث سنوات وثمانية اشهر ٢٠٢٠ هـ بان ٥٨٨ هـ و ١١ ايلول سنة ١١٩٢ م . وتحالفوا على هذه القاعدة : (١) تبقى البلاد الساحلية للفرنج والداخلية للمسلمين (٢) تبقى القدس فى اليدين المسلمين ويسمح للحجاج الفرنج بدخولها مع بقاء كنيسة القيامة فى حوزتهم . (٣) اما عسقلان فتخرب ولا تكون لاي من الطرفين وبذلك انتهت الحملة الثالثة بالفشل الذريع اذ كان حينها بدون قيادة موحدة فضلا عن الخلافات التى كانت مستحكمة بين الزعماء من الفرنج الوافدين منهم والمتبلدين بينما كان المسلمون على الصد من ذلك موحدين القيادة بزعامه رجل الساعة صلاح الدين هذا مع وحدة فى الهدف ورغبة اكيدة فى العمل لتخليص البلاد .

اما صلاح الدين فصار عندئذ الى القدس وتنفذ شؤونه ونحصرنا ثم توجه الى دمشق وجعل طريقه على الشور الاسلاميه كنايلو وطبرية وصغد ونين وبيروت وتعهده هذه كلها وامر باحكامها وفيما كان ببيروت اتاه بوهند صاحب انطاكية وافعالها واجتمع به وخدمه فخلق عليه صلاح الدين وعاد الى بلداء ورجل صلاح الدين الى دمشق بدخلها بن الاربعاء فى ٢٥ شوال وكان دخولها اليها يوما مشهودا وفرح

الناس فرحا عظيما لطوا غيبته ولذهاب العدو .

وفي هذه السنة ٥٨٩ هـ في عفر توفى صلاح الدين بدمشق في ٣ اذار سنة ١١٩٣ بعد حمى اصابته في ١٦ عفر - نبي ٢٧ منه ٥٨٩ هـ وهره ٥٧ سنة .
لقد طوى القرن الثالث عشر (١١٩١ - ١٢٩١) آخر صفحة من تاريخ الحروب الصليبية وكان السبب الاكبر في ذلك ان الامدادات التي كانت اوروبية تواصل بها الفرنج في بلادنا قد خفت الى حد لم يعودوا يستطيعون معه الدفاع عن انفسهم فضلا عن هجوم جديد يقومون به .

ولم يكن مرد ذلك ، في اعتقادنا ، الى ان ^{حمية} حشبة القوى الدينية قد خمدت اذ انها واصابها شئ من الفتور بسبب فشل " الحملة الثالثة " بل على الضد من ذلك فقد ظلت تلك الحمية تلهم قلوبهم ببولبل ان البابا لم ين من دعوة الاوروبيين الى استرداد فلسطين كما قال الامراء والملوك يعتبرون ذلك من اقدس واجباتهم ، غير ان هوانا جديدة تجمعت للحيلولة دون ما كانوا يبتغون ، فمن ذلك حملات ناصية (عرفوها بالصليبية بحوراً) حملتهم الى نواحي عديدة من اوروبا نفسها ~~والمسلمين~~ وحالت بذلك دون القصد الى ديارنا ولوت الصليبيين عنها الى المانية واسبانية وسواهما .
ففيما كانت الحملة من افقر الحملات (الراحة) تعد للتوجه الى بلاد الشام في ١٢٠٢ اذ بها تحول الى القسطنطينية (١٢٠٢ - ١٢٠٤) فكان في ذلك لفت لانظار القوم الى بلاد الرم لمدة سنتين سنة ونيف ونحويلهم عن ^{الشرق} اوطانهم خو ان مرقه الفرسان النوفون التي اسست حوالي ١١٩٨ لنعمان في الشام قد صرفت جهودها في خدمة الكنيسة والامة في جرمانية نفسها .

ورغم ذلك لم يكن مثل هذه الحملات لمعنى وحده القوم عم مد يد المعونة الى الفرنج في بلادنا بل كان هناك ايضا ما شغل البابا والامبراطور عن ازعاج المسلمين في الشام وذلك ما كانا فيه من نزاع مبيت آنذاك . ولعل فردريك الثاني كان يستطيع ان يسترد ما كان انتزعه صلاح الدين لو لم يبق طوال حكمه مشغول بالدين في نزاعه مع البابا (١٢٢٠ - ١٢٥٠) وقد بلغ ذلك النزاع بين الكنيسة والاسراطورية الذروة بعد موت فردريك في حين كان الفرنج في بلادنا ^{الشرق} يائس الحاجة الى مدد اذ كانت حياتهم / أصبحت تنوقف حقا على مقدار ما كان يصلهم او يمكن ان يصلهم من المدد عن

من طريق أوروبا . انخف الى كل ذلك ان اعظم ملوك أوروبا في اواخر القرن الثالث عشر (١٢٦٢ - ١٢٨٥) ونعني به شارل انجوس ملك صقلية) قد شغلته القضية القديمة القائمة على النزاع بين النورمان والروم من اجل املاك القسطنطينية عن كل اهتمام وعناية بامر الشام وقايا الفرنج فيها ، حتى انه نوى حملة صليبية منها الى ~~مصر~~ ^{مصر} ولم يلبثت في كل حياته الى التفكير بها او بمن فيها من الفرنج .

ولم يكن ما سلفنا ذكره هو كل شيء ، بل ان الفرنج انفسهم في بلادنا لم يكونوا خيرا ممن في أوروبا اذ كانت المنازعات بينهم ايضا قائمة قاعدة الى حد لم يعد استجداهم بأوروبا لبتك في نفوس القوم اقل اثر .

ثم ان ما كان يتصف به صلاح الدين من الحمية الدينية والرغبة الشديدة في جهاد القوم ، لم يكن احد من ورثته وخلفائه قد ورث شيئا منه ، فقد كان اخوه العادل وكذلك الكامل (ابن العادل) تسيرهما عوامل اخرى ، فشغلتهما المنازعات المحلية والمناقصات على الملك فكان ان استطاع الفرنج استرداد

بعض ما كان انتزعه منهم صلاح الدين كبيروت والقدس وطبرية وعسقلان مع ان ذلك لم يهيئ بقصصهم ^{ومعاضة نفق} العادل او ابنه الكامل او اسماعيل وابوب وذلك في السنوات (١١٩٨ - ١٢٠٤ - ١٢٢٩

١٢٤٠ - ١٢٤١) وما بلغت النظر آنذا ان الصليبيين الغربيين انفسهم لم يحرزوا انتصارا عظيما بذكر فضلا عن انهم لم يفتحوا بلدة واحدة عنوة واستبقوها في ايديهم . فحملنا (١٢١٢ - ١٢٢١) و (١٢٤٩ - ١٢٥٠) ، كانتا اكثر الحملات عددا وخطورة ومع ذلك فكلتاها تلاشت في مباء النيل دون ان تنبت لهم قدما فيها .

ولقد لاف سياسة المتأخرين من الابويين المسلمة هوى في

نفس فردريك الثاني امبراطور جرمانية وملك صقلية ، فكان على ^{وفائق} تام مع الملك الكامل . اما السلطان ابوب ، فعلى قصر عهده في السلطنة = ١٢٤٠ - ١٢٤٩ قد شغل

ايامه في الحروب الداخلية . وظلت الحال كذلك حتى وفد ^{الخوارزميون} (١) لترك ^{الخوارزميون} واشتركوا معه في طرد الفرنج ثانية من القدس وجعلهم يفتحون اعينهم على ما قد خبا لهم المستقبل القريب من المفاجآت . وهكذا انقضى عهد المهادنة والتساهل معهم

وكان آخر اللابويين توران شاه بن ابوبفا ان استدعير المالك بضعفه حتى اغتالوه وانتخبوا من بينهم من خلفه في ١٢٥٠ .

وكان لا بد لمؤسسي الاسرة الجديدة من ان يشغلوا موقنا في حروب اقتضاها انقراض سلالة وقيام اخرى ، فضلا عما اعترض طريقهم من عزوة التتر وقتل للدمار الدامية . وقد كان ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) اول من تصدى بوقف زحفهم وجهاد الفرنج بعد صلاح الدين ولا عجب ان تشابه انتصاراته بانتصارات سلفه العظيم ، فقد اكتسح باقا وارسون وقيسارية في الجنوب كما احتل حصن الاكراد وصافيتا وحصونا اخرى في مقاطعة طرابلس فضلا عن فتحه لانتاكية واكثر ملحقاتها في الشمال . ثم جاء بعده في الامة السلطان قلاوون وما لبث ، بعد هدنة مع الفرنج عمل خلالها على تقوية نفسه ان كثر على طرابلس وانتزع ما تبقى منها . وفيما كان يعد العدة للانتفا على عكا اذا بالوفاة تحول بينه وبين مبتغاه ، لكن امانيه قد حققها بعده خلفه وابنه الملك الاشرف خليل اذ ما كاد يتسلم زمام السلطنة حتى سارع الى تسديد الشرية الفاضية في ١٢٩١ الى الفرنج في عكا فاخذت على انرها المدن نسلم واحدة بعد الاخرى فكانت النهاية كبيت من الورق او خيط من العنكبوت . وهكذا اسدل الستار على آخر فصل من مأساة قام ودارها الغربيون باسم الدين ظاهرا وباسم الاستعمار باطنا

تلك نظرة خاطفة في تاريخ الحروب الصليبية كان لا بد منها قبل الخوض في موضوعنا الاصلى وهو العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الفرنج والعرب في الشام خلالها وما تم من تبادل بينهم في هذه النواحي وغيرها وما كان له من اثر في نهضة اوربية وتخليق الشام .

الفصل الثاني

- ١ - المجتمع النامي في القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي
- الحالة السياسية - السكان وكثرة اجناسهم - حالتهم الاجتماعية -
- الحالة الدينية عندهم - تسامح العرب في حكمهم - تعليل بعض الشذوذ -
- الحالة الفكرية - الحالة الاقتصادية - الفنون الحبلية

الفصل الثاني - ١ - المجتمع الدامي في القرن الخامس الهجري

الموافقة للقرن الحادي عشر الميلادي .

الحالة السليمة ان ما منبت به الخلافة في القرن الثالث الهجري من ضعف وامتهان على يد مالبكها الاثرات قد انداع الفوضى في ممتلكاتها ونشر الذعر والقلق في امصارها حتى طمع القواد والامراء في القرن الرابع من مختلف العناصر والقوميات في الاستئلال عنها وناسير الحكومات هنا وهناك فعدت الامبراطورية العربية كرقعة الشطرنج اجزاء والوانا .

وكان للديار الشامية من ذلك نصيب كبير ان نالت عليها الدولات ،
بقيمها قواد انراك مستبدون او زعماء عرب متالمون ، فكانت الدولتان الطولونية والاشيدية التركبتان ثم الحكومتان الحمدانية والفاطمية العربيتان ، فما كان من الروم الا ان ادلوا دلوهم وسط تلك الفوضى علمهم بفوزون ببعض الغنيمة او كلها . واذا بهم ، وقد عجزوا عنها جميعها ، يتنحمون حلب ويخربون قصر الامير سيف الدولة الحمداني فيها سنة ٣٥٠ هـ و ٦٦١ م ، ثم عادوا مرة اخرى ونزلوا في كبلبيكة عام ٣٥٩ هـ و ٩٦٩ م . فتفتحت امامهم ابواب الشام وتقدمت جيوشهم حتى انطاكية التي ظلت في ايديهم الى عام ٤٧٧ هـ .
و ١٠٨٤ م .

ثم بعدها بقليل طمعوا ببيت المقدس فجاسوا خلال الديار حتى دخلوا دمشق ونفاضوها الجزية ، لكنهم فشلوا في الدخول الى فلسطين وقد تحدث ابن الفلانسى عن تغل القوم في البلاد حتى بلغوا السواحل حيث اقتحموا بيروت وحملوا بعض اهلها عبيدا وكذلك فعلوا بحبيل ، لكن طرابلس صمدت لهم اربعين يوما فاضطروا بعدها الى رفع الحصار .

وفيما كان سيف الدولة في كروفر مع الروم اذا بالفاطمين يزيدون طينة البلاد بله وسهاجمونها من الجنوب كان ما حل بها لم يكن كافيا ليحجز عليها حتى اتوا برهقونها فتزداد ضعفا على ضعف وفوضى على فوضى .

ثم لما انكشف عنها الروم وتغلب الفاطميون ظهر المرداسيون ففى
اوائل القرن الخامس الهجرى فى حلب وما زالوا فى قتال مع الفاطميين
حتى ضعفوا وزالت امارتهم عام ٤٧٣ هـ . و ١٠٨٠ م .

فى تلك الاثناء كان السلاجقة قد ثبت ملكهم فى العراق وانبسط
نفوذهم على بلاد الروم عامة وعلى الشام خاصة سنة ٤٦٣ هـ و ١٠٧١ م .
وليس غربا ان يتساءل الواحد منا فيقول = " وماذا كان موقف
الشاميين انفسهم من تلك الحال التى تروى بلادهم تتخبط فيها كالاكرة بين ابدى
صغار اللاعبين وارجلهم " . فالجواب على ذلك = " ان المصائب التى نالت
عليهم منذ سقوط الامويين وعلى البلاد كانت على ما يظهر قد اوهنت منهم
العزائم واضعفت فيهم العزة القومية فجعلتهم يسكنون الى كل غاز ويعنون الى
كل فاتح فيتغنون من كل ذلك موقفا سلبيا غربيا كان ما يحدث عندهم لا يحثهم
منه شي . ولا يتاثرون منه بامر "

الحالة الاجتماعية . ويحسن بنا الان ان نلقى نظرة على السكان فتحللهم الى عناصرهم
وادبانهم لننتفهم مجتمعهم فى تلك الفترة من تاريخهم .

ان اقدم من عرف التاريخ من اهل الشام يتكون من الشاميين
(١) الآراميين (٢) والعبرانيين (٣) العرب . اما قبل نزول هؤلاء فكانت البلاد
مقاما لقشات لا يعرف اصلها . وكان الساميون اقوى منهم فتغلبوا على بلادهم
واستقروا فيها واخذ اولئك بالانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهكذا تمت
الغلبة للشاميين ولآدابهم وادبانهم (زيدان النمدن الاسلامى ج ٥ ص ١٠)

على ان موقع الشام الجغرافى جعلها عرضة لطامع الفاتحين من الامم
القديمة كالمصريين والحثيين والاشوريين والفرس ، وتقاطرت شعوبهم اليها ، ولكن
الامر لم يستقم لامة من هذه الامم فى الشام كما اسقام للسيلوقيين من خلفاء
الاسكندر ، فتوافد اليها اليونان واقاموا فيها واختلطوا بآدائها لا سيما بعد ظهور
النصرانية وهى فى سلطة الرومان غير انه ظل الحنصر اليونانيون متغلبا عليها فى مواعيل
البلاد كما بقى بضعف فى الداخل تدريجيا .

ومع ذلك الاختلاط بقيت الشعوب السامية محافظة على آدابها
ولغاتها وعاداتها وخاصة اليهود منهم في الجنوب ، واما الآراميون فسي
الداخل فتنصروا وانفردوا بأديبهم وعاداتهم .

وعلى هذه الصورة كانت حدود النمام الغربية على الساحل
يغلب عليها العنصر اليوناني وعلى حدودها الشرقية مما يلي البادية
يغلب عليها العنصر اليوناني وعلى حدودها الشرقية مما يلي البادية
سقط عليها العنصر العربي . وكان ، منذ القرن الرابع قبل الميلاد ،
امة عربية عرفت بالانباط ، تنزل وراء فلسطين غربا بجنوب في بقعة تمتد
من شبه جزيرة سيناء الى حوران تعرف ببلاد العربية الصخرية ولا تزال
آثار عاصمتها سلم (البترا Petra) باقية الى الآن . وكذلك في القرن الثاني
قبل الميلاد بسط الايطوريون وهلم جبل من العرب نفوذهم على الجهات
الشمالية من جبل لبنان (الكورة وكسروان) وعلى الساحل ما بين طرابلس
وببيروت وظلوا حتى الفتح الروماني ، ولسنا بناميين ايضا ملكة ندمر
العربية باكثرية سكانها والدور الهام الذي لعبته ابان القرن الثالث
الميلادي في تاريخ البلاد وحضارتها . وما ان طلع القرن الرابع
الميلادي حتى كان "ملوك الشام" من الفساسنة في الحولان وحوران . . .
فسكان الشام عند الفتح العربي إذا كان معظمهم من بقايا
الآراميين الاصليين وبقايا الانباط والايطوريين والشميريين والفساسنة
وتدخلهم جميعهم مئات من ام اخرى غير سامية كالجراجمة في جبل النمام ^{جراجمة}
واختلاط من مؤلفي اليونان والرومان في الساحل ومؤلفي الفرس والاكروا
في الشمال .

على انه لا يعرف على التحقيق عدد القبائل النازحة عن
جزيرة العرب ابان الفتح ^{الفرس} ولكن المؤكد ان اكثرينهم لم تكن مما بقى
ان يكونوا السواد الاعظم في البلاد التي نزاوها آنذا . بل كانوا
في كل منفع حفنة صغيرة اذبه ما تكون بالخميرة في مدجن العجسان .

صنع

ذلك لان القبائل التي هاجرت منهم الى البلاد المغلوبة لم يكن عددها ليزيد عن نصف المليون من النوير في الخمسين السنة الاولى وقد قدر بعضهم من نزلوا الشام بمائتين وخمسين الفا ، والشام اقرب الاقطار الى الاختلاط بحزيرة العرب ، ومع هذا فظل عدد العرب في الشام الى قلة ، ثم حدث في اثنا الفئوج الاموية والحروب الداخلية ان انتقل بعض الطوائف والجماعات كالزط الى الساحل في ايام معاوية والجراجمة الى الداخل ايام عبد الملك وذلك لياخذوا مكان الروم الذين نزحوا عن البلاد ان ذاك .

وهكذا في اواخر القرن الاول من الهجرة اخذت قبائل جديدة تغد على البلاد فكانوا النواة مع من سبقهم البها في تعمير البلاد واهلها ثم اتوا اهل الذمة يتعلمون اللغة العربية بحد الطبيعة اذ فتح لهم العرب باب الخدمة في الدولة ولم يمتد القرن الثاني الهجرى حتى غدت الاكثية الساحقة في القرنين التاليين من العرب وان لم نقل في الدم والجنس ففي اللسان والثقافة .

غير ان المرأة في تلك الاثناء كانت قد فقدت كثيرا مما دعت به في العهود الاولى من احترام وكرامة ، نعم كانت تشارك الرجل على عادة العرب ، في نضاله وشباطه العزة في فخاره ، اذ انزل سبق الرجل ، بعد ذلك ، الى مهاو سحيقة من الانحلال الخلقي بسبب الحوارى والقيان وما تبعهما من تخفت وامتياع ، توارت على اثر ذلك المرأة العربية عن العيان وانخذت مكانها في المؤخرة تهتم بعض الاهتمام بالآداب والعلوم وتعنى بشئ غير يسير من التنسك والتصون في .

وهكذا بعد ان كانت رهبة الدين وهيبة الخلافة في عصر الراشددين تحولان دون تودي العرب في مهاوى الشهوات والملاذات حامت دولة الامويين ، واذا بهم يشفقون في العرب روح العصبة فيحجرونهم بذلك عن مخالطة من يملون امورهم من الام الا مخالطة الحذر المترفع .

غير ان بعضا من وسائل اللهو ما لبث ان جلب الى الامصار
ومنها الى دمشق فتذوقه الخواصر من سادات العرب حين اطمان بهم الملك
وانقطعت اواصر الفتن ، ومن هذه الملهيات الغناء . على ان ذلك لم يستمر
بَعْدَئِ القليل من ذوى الجاه ^{من تانوا} ، بسامون في كثير من النجمل والاعتدال وما
زالت تلك حالهم حتى كان خليفهم الوليد بن يزيد فانهحرف عن سبيل
آبائه واجدادهم الى اللهو والخلاعة والتبذل .

ولم يكن للجوارى في ذلك العهد شان ولا حظرا ان لم يتخذن
الا فهام للخدمة او سرارى للاستبلاء وقد كانوا مع ذلك ينكرون على الهجنا
- ابنا الاما - ان يطلبوا الخلافة ولو كانوا من بيت النبوة . وهذا ما
صاح به هشام بن عبد الملك زيد بن علي بقوله - " بلغنى انك تطالب
بالخلافة ولست تصلح لها لانك ابن امة " .

^{مادة سرسوة}
فظلت المرأة العربية بفضل تلك العصبية في الثروة والسمام
من الاكرام والاحترام ولم يوتر فيها ^{شيم} ما احتلته من مظاهر النعيم ومجالي
الترف في شئ من نفاق فطرتها ولا قوة نفسها ولا توفرها على تربية
ابنائها لان العصبية استبقت للرجل حمية وحفظت عليه غبرته وعفته والرجل
مرآة المرأة

ولكن لم تلبث ان اضطوت احوال الامويين ^{والناتج صفوفهم} وتبددت جماعتهم فقامت خلافة العباسيين وقام الفرير ^{زبدون طيعة الجمع العرب ليه} ^{يختصون} آخر جذوة من
الحمية العربية ويقطعون آخر عقدة من العصبية العربية فاجلبوا عليها بكل ما
بوهن النفوس وبصبي القلوب من سماع وشراب وكواعب اتراب واغرقوهم في بحر
طام من الترف والاسراف ، وما ان انساق الرجل الى الزهو واللهو حتى
تبعته المرأة .

فكان للرجل العربي في حياته الجديدة امور صرفته عن نصفه
الافضل من بنى قومه ثم زالت الصلة بينهما نهن والعقد نحل حنسى
استحال هو عدوا لها ياخذ عليها مدايح انفاسها ويخصي عليها لحظات
عينيها وتبرأت صوتها وخطرات نفسها .

ولعل أوضح مظاهر انحطاط المرأة العربية في العصر العباسي
تجنى الشعراء عليها واغراؤهم الرجل بها حتى مرتت الالسنه واطمانت
الاسماء الى مقالة السوء واتساعة الفاحشة بين النار ونتمثل هذا في
اقوال الشعراء واذا رحنا نوازن بينها وبين ما كان يقال بها في العهد
الحاهلي وصدر ا سلام والعهد الاموي عندها ادركنا ما وصلت اليه
المرأة من الانحطاط في نظر الرجل وفي نفسها من ذلك الى قول احدهم
في العهد العباسي -

لا بُؤْسُنْكَ من مخدرة
قول تغلظه وان جرحا
هضر النساء الى مباشرة
والنسيء يسهل بعدما جمعا

وقول الآخر -

كان الشباب مطية الجهل
ومحسن الضحكات والهزل
والباعثي والناس قد رقدوا
حتى ازور حليلة البعل
اما في العهود السابقة فدونك ما يمثل راي الشعراء - وهم
المعبرون عن الراي العام - بالمرأة اذ ذاك -

قالت - وقلت نخرجي وصلى
حبل امرئ بوصالكم صب
صاحب اذ ابعلى - فقلت لها
القدرشي ليس من ضربتي
نمنان لا ادنو لوصلهما
ميس الخليل وجارة الجنب

اما الخليل فلست غادره

والجار اوصاني به ربي

كما ان في صدر الاصلام كان الشاعر بفوا .

ما ضرّ جاري اذ يجاورني

ألا يكونَ ليبنه سنرُ

وكذلك كان الشاعر في الجاهلية يقول -

واغتر طرفي ان بدت لي جارني

حتى بواري جارني ماواها .

وهكذا ما زالت حالة المرأة في تفهقر وانزلاق حتى جاء ابو العلاء في القرن

الخامس وراح ينهمها في ذمتها وامانتها ودينها وخلقتها . ولم يدع لها

لمحة من الخير ولا حجب عنها لفحة من الشر وهو الى كل ذلك لم يعد

ما بقوله فيها اهل عصره .

ولم يكف الرجل ان يقصّبها عن منال العيون وسدل دونها

الاستار حتى راح يتاول فيها اباح الدين 'رُؤْيَقُهَا' وبالح في ذلك المناخرون

من فقها الحنفية . ولم يلبثوا ان تاولوا ايضا في صوتها فقالوا - لا يجوز

لها ان تلبى جبهة . هذا فضلا عن الحيلولة بينها وبين نادية الصلاة جماعة

كل ذلك مما تاوله فقها اقرن الخامس باسم الدين -

والدين منه براء - ورأ للفتنة وحسما للدا' الويل على رايهم .

ولقد اغرق الناس في حجاب المرأة حتى عيب عليهم ان يذكروا

اسمها . وبعد ان كان معاوية يتحدث عن نفسه الى مجلس خلافته فبيدا

جدنه بقوله - " انا ابن هند " . وبعد ان جاء شاعر بني امية بمدح فحل

أَجْمَسْتُمْ عبد الملك بن مروان بقوله -

انت بن عائشة النسي فُضِّلْتُ اَرومُ بنسائسها

بعد كل هذا وذاك اصبح اسم المرأة بعاب ذكره وتخلص

وجوه الكتابة عنه حتى لقد اراد ابو الطيب المتنبي ان يرثي خولة بنت

حمدان اخت الامير سيف الدولة فسماها فعلة -

كَأَنَّ فَعْلَةً لَمْ تَمْلَأْ مَوَاجِهُهَا دِيار بكر ولم تخلع ولم نهيب

لكننا نفر ونعترف بسوء ما اتاه المتوكل والرشيد من قبله والحاكم من بعدهما غيران لذلك نعللنا برفع الشيعة فيه عن العرب عامة والاسلام خاصة . ومرد ذلك عندهم الى (١) خلق الرجل منهم خاصة او (٢) الى احوال طارئة جعلتهم يتخذون ذلك الموقف من المؤمنين .

اما المتوكل فقد كان شديد الوطاة على النصارى ولا نستغرب منه ذلك اذ لم يكن اقل وطاة على غيرهم ايضا فلقد شدد التكبر على الشيعة واهلك العلماء والكتاب . على انه لم يرتكب هذا الشطط لغیر داع اليه فقد حملة على ركوبه انتصار بعض النصارى لاعداء الدولة . وذلك ان المسلمين من اهل حمص قد وثبوا بعاملهم فلعانهم النصارى عليه فكان هذا داعيا الى النفقة عليهم (ابن الانبرج ٧ ص ٢٩)

واما ما يقال عما حدث في ايام الرشيد من الضيق عليهم (ابن الانبرج ٦ ص ٨٢) بالرغم مما عرف عنه من اعتدال وتسامح فمرجهه الى ان النصارى قد ساعدوا الروم في الغزوات

وكذلك يقال في اضطهاد الحاكم الفاطمي لاهل الذمة من يهود ونصارى فانه يرجع الى خلفه الخامس وعقله المضطرب والى قيام حرب بين الروم وبينه يومئذ فتبادل الروم وللعرب تخريب المعابد هنا وهناك فكان ان امر الحاكم بهدم كنيسة القيامة بالقدس تشفيا لما كان فعله الروم من تخريب جامع كان في القسطنطينية . واذا ما ذكرنا انه قد انزل الحاكم مثل ذلك في المسلمين انفسهم علمنا مبلغ تعصيه وحمقه .

وما يشهد بتسامح بعض الخلفاء مع اهل الذمة وتركهم لهم الحرية

الدينية تامة غير منقوصة ما جاء في " الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري "

تأليف الاستاذ آدم قر استاذ اللغات الشرقية بجامعة بال بسويسرة وقد نقله الى العربية محمد عبد الهادي ابوزيد بكية الآداب الشرقية قد ذهبت الدولة الرومانية

في معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في التفكير ابعد مما ذهب

اليه الاسلام بالتحية الى اهل الذمة . فلما اعاد الامبراطور نقفور افتتاح

بلاد الشام كان ما وعد به اهل الشام وامسهم به ان يحبيبهم من مضايقة

كنيسة الدولة ولكنه رغم هذا الايمان لم يال جهدا في مضايقة البعقوبيين ،
فاضطرتهم مثلا الى الخروج من انطاكية " هـ . وقد جاء في نفس المصدر
٦٩٠ = " وكثيرا ما كان رجال الشرطة المسلمون يتدخلون بين الفرق
النصرانية لمنعهم من المشاحرات ، حتى عتب حاكم انطاكية في القرن
الثالث الهجرى رجلا يتفاخى ثلاثين دينارا من النصارى في الشهر
وكان مثره قرب المذبح . وعمله ان يمنع المتخاصمين من قتل بعضهم
بعضا " هـ . وما يجدد التنويه به في هذا الصدد ما جاء لنفس المؤلف
ايضا ص ٨٧ " لا نجد المؤرخين حتى المسيحيين منهم يذكرونه الا قليلا
من المشاغبات بين المسلمين واهل الذمة في القرن الرابع الهجرى " هـ .
هذا فيما يتعلق باهل الذمة فلنر ما كانت عليه الفرق الاسلامية نفسها .

اما الفرق الاسلامية فكانت في القرن الرابع الهجرى
كما يلي = (١) السنة (٢) والشيعة والأكثر ما كان بينهما من نضال وقتال
مرده السياسة حتى كتب للشيعة ناسير دولة الفاطميين فنبت التشيع
الذهنى رسما . ثم كان ان انضم القوم بالاضافة الى سوء الامانة
في ابناء علي بن ابي طالب فكان الاثني عشريون وكان الاسما علبون وما
ليث هؤلاء ان تفرقوا مبعدا فكان منهم في الشام الحشاشون والنصيريون
كما كان من الفاطمية الدرزية .

الحالة الفكرية

بم فتح العرب الشام لم تكن اللغة العربية جديدة على
اهلها . ولا غريبة عن اسماع ذويها انه كان الفلاسفة في الجولان وحوار
كما كان التنوخيون في الشمال . هذا فضلا عن كان ينزلها من القبائل
والبطون في ارجاء تدمر والفرات وسبنا .
فما ان تم الفتح حتى اخذت العربية تنتشر وتبذت الرومية
والآرامية . ولم يضر القرن الاول حتى اصبحت اللغة العامة في النظر كله
تقريبا اللهم ما عدا بعض القرى النائية حيث ظلت الآرامية تستعمل في تخاطبها
وطوقها الدينية .

فما ان تم الفتح حتى اخذت العربية تنتشر ونبتت الرومية والآرامية ولم يمتد القرن الاول حتى أصبحت اللغة العامة في القطر كله تقريباً اللهم ما عدا بعض القرى النائية حيث ظلت الآرامية تستعمل في مخاطبتها وطقوسها الدينية .

وقد علل ابن خلدون انتشار اللغة العربية بقوله " لما كان لسان الدولة عربياً ، اقبل الناس عليه يتعلمونه لان الناس تبع للسلطان فصار استعماله من طاعة العرب ومار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في البلاد وصارت الالسنه الاعجمية دخيلة فيها وغريبة " (الاسلام والحضارة العربية - لكردي علي ج ١ ص ١٧١)

ويرى الاستاذ العلامة فليبي حتى " ان هذا الغزو اللغوي كان اعسر عمليات الغزو الاخرى لدى العرب وقد يكون ذلك صحيحاً بالاضافة الى فارس واسبانية البلاد الآرية . اما الاملا الشام بوصفها سامية فلم تبد مقاومة في هذا الصدد . اما ما ظل سائراً من اللغة السريانية في بعض القرى في جبل لبنان مثلاً - فمردء الى البعد عن مراكز السياسة من جهة والحركة الفكرية من جهة ثانية .

ونحسن الملاحظة في ان العربية كلغة تدوين وتاليف قد سبقت اللسان في التخاطب .

وقد احتفظت الشام بعد انتقالها الى بني العباس بصيغتها العربية واخذت اللغة نحل محل اللغتين اليونانية والآرامية حتى غدت لغة العلم ولغة التخاطب العامة ، وعظم حظ البلاد في الادب واشتهر فيها شعراء كبار منهم ديك الجن الحمصي وابو تمام البحتري وتمثل الحركة الفكرية ابان القرن الهجري الثالث في اتساع حركة النقل من الرومية والفارسية والهندية الى العربية وقد قامت الشام بفسطها منها وقدمت لها نفراً من النافلين نذكر منهم فسطان لوقا البعلبكي وحيبر بن الحسن الاعشى الدمشقي وعبد المسيح بن عبد الله الناصي الحمصي فقد نقل هتولا * كتباً لافلاطون وارسطو في الفلسفة ولجالينوس وابقراط في الطب كما نقلوا كتباً غيرهما .

(١) قدس سره ابن خلدون ص ٣٢١ الجزء الرابع من الجزء ١٨٧٩

الكتاب السامية المحلقة في سورته رابطة . حتى يندب

أما في القرن الرابع للهجرة فمع ما شهدته البلاد من فوضى في السياسة واضطراب في الاحتماء فلم بقو لا هذا ولا ذا على وقف النهضة الفكرية فيها فضلا عن اطفاء جذوتها بل ظلت تار الفكر مضطربة موقدة . وما ان انتصف هذا القرن حتى ظهر فيه الادب في مظهر عظيم لم يسبق له عهد بمثله الا في عهد الامويين ، ويكفي ان تستشهد على ذلك بما كان ينحلو ما مآتبه في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب حين قصده نوابغ الشعراء والادباء حتى قيل : " ان لم يجتمع بباب احد من الملوك ، بعد الخلفاء ، ما اجتمع بباب سيف الدولة من ربوع الشعر وامراء النثر " . ولا عجب فالسلطان سوق بحلب اليها ما ينفع لديه " وقد كان رب القصر نفسه ادبيا واعرا محبا لحيد الشعر تردد الاهتزاز لما يسمعه منه .

هذا في الادب ، اما العلوم الدينية فقد ظهر فيها نقد فسي المائة الرابعة بعد الهجرة على قول السيوطي ، غير ان العلوم المادية كالطب والهندسة والفلك فقد نبع فيها فحول وظهرت بها نجوم تذكر منهم ابا الحسن كثرانيا الطيب العالم وعيسى الرقي المنجم (١) واما القاسم علي بن احمد الانطاكي وكان رياضيا مهندسا . ومن المهندسين الرياضيين المحبتي الانطاكي كما ان نبع في الجغرافية والتاريخ محمد بن احمد بن ابو بكر البناء المعروف بيا المقدسي ، صاحب كتاب " احسن التقاسيم " وكان لقبه الماروني كتاب حسن في التاريخ (٢) ومن ازدان بهم بلاط سيف الدولة وعقدوا محالهم العلم والمناظرة فيه ثم انتقل معه الى دمشق المعلم الثاني فيلسوف العرب ابو نصر محمد الفارابي .

أما القرن الخامس للهجرة فقد امتاز بان نشأت فيه طائفة من الرحا الذين عتوا بالفلك ، والعلوم السعي والرياضي والطب فكان ممن نشأ منهم في الدبار الدامية ابو الفضل الحارثي الدمشقي المهندس الرياضي العالم بالحساب والطب ، ومحمد التيسراني الدمشقي العالم بالحساب والنجوم وعلى المسلحة والثلث وحورجر بن يحننا البيرودي العالم بالطب .

(١) وكان عيسى بنقل من السريانية الى العربية (٢) الخطط ٤ ص ٢٥

ولما اعظم ما بفاخر به هذا القرن نبوغ ابي العلا احمد بن
سليمان المعري التنوخي حكيم العرب واديبهم الاكبر .

ومما يحسن التنويه به في هذا الصدد ان الفاضل جلال الملك
ابا الحسن علو بن محمد بن احمد بن عمار قد حدد في طرابلس دار العلم
في سنة ٤٧٢ هـ . فشرت العلوم والاداب واصبحت طرابلس بفضلها مباءة علم
ودرس ومارة في الزمان .

ولقد استلزمت تلك النهضة الادبية العلمية جمع الكتب وتأسيس
المكتبات حتى صار في كل جامع كبير مكتبة واخذ السلاطين وامراء بنسابقون
في ذلك .

ولعل اول خزانة للكتب العربية في الاسلام قد انشئت في دمشق
انشاها حكيم آل " مروان " خالد بن يزيد الاموي المنوفى سنة ٨٥ هـ . وان لم
يصح البناء فهو كبير من اعمارها ، فانها كانت تحوى بعض الكتب التي نقلت
الى عن النجاشية والسوانية (الروية) والسريانية في الكيمياء والنجوم والطب
ولربما كان فيها بعض من كتب الجغرافية لانه بنيت مما ناله ابن المنبدي
عندما زار خزانة الكتب في القاهرة في سنة ٤٥٣ هـ . انه كان فيها كوة من
نحاس من عمل بطليموس وقد كتب عليها حملت هذه الكوة من الابن خالد
بن يزيد بن معاوية (المهدية في ذلك كله علو الجماعة محمد كرد علي
في حطاطه ج ٦ ص ١٨٩)

وجاء القرن الثاني للهجرة والاسلام نفى باعظم فاحشة سياسية
في تاريخها وذلك بسقوط دولة بني امية وقيام بني العباس فلم يؤثر عنها
انه كان فيها خزانة كتب ان كانت الكتب تجعل ان ذاك في الحوامع او
في بعض الدور الخاصة (نغم المؤلف) .

ثم ان الاسلام لم تعرف دار حكمة مع دار للكتب كالتي انشاها
المأمون في بغداد او دارا للعلم مع خزانة للكتب كالتي انشاها الحاكم في
القاهرة الا في القرن الخامس عندما انشا مثلها بنو عمار في طرابلس وكذلك
كان في كل من كفرطاب والمعدة في زمن حكمها خزانة للكتب وقد زارها كما
زار خزانة طرابلس . وهذه كانت قبل بنو عمار بمدة لابن الفضل بنو عمار

لم يستولوا على طرابلس الا بعد الاربعين واربعمائة ٤٤٠ هـ . وكان ابو العلا قد زار طرابلس قبل هذا التاريخ وانتفع بخزانتها وكتبها الموفرة .

وكان ابتدا في جامع حلب الخزانة كتب مهمة في زمن ابو العلا المعمر وقد ظلت هذه الخزانة عامرة الى القرن السابع ولم يعلم ما اذا كانت الخزانة الكبرى التي انشاها في حلب الاسر على سيف الدولة الحمداني وجمع فيها من الكتب الامهات كانت عامة للناس ايذ كخزانة الصوفية ام كانت خاصة به بوجعائه في قصره وكذا اشهر عنه ولع بالكتب عظيم . وربما ذهبت هذه الخزانة وغيرها في هجمة الروم على حلب وتخريبهم قصر سيف الدولة .

وقد قلت عنابة الملوك بخزائن الكتب ، عندما كثرت المدارس في هذه الديار في القرن الخامس ككثافتا بخزائن الكتب في المدارس التي انتهوا من حيث انها بذلك امر . ولم تكن لتخلو مدرسة من المدارس في الشام من خزانة كتب . وكان لحلب ودمشق والقدس وهي من حواضر العلم الحظ الانوفر من ذلك . غير ان طرابلس نازعتها هذه المكانة لوحود معمل الليرة الجيد فيها (الخطط ج ٦ ص ١٩٠) وهذا يفوتنا بطبيعة الحال الى درر المدارس .

لم تكن المدارس في الشام من ابتداء الحرب بل كان سبق لهذه البلاد ان عرفت المدارس من قبل بدليل ان المسلمين كانوا في دمشق يشاركون الفسارى في مدرستها التي كانت تخرج رجالا في الدين والعلم والادب ويظهر ان المساجد ظلت للعبادة وتلقى القرآن وعلومه والحديث وفنونه وعلم اللغة وتفرعاته وما يتعلق بذلك كله من المطالب التي فيها قيام امرهم حتى منتصف القرن الخامس الهجري يوم انشا في دمشق رابن نظيف بن نما شاء الله ابو الحسين الدمشقي مدرسته المعروفة بالرشابية سنة ٤٤٢ هـ . وكان الحسن بن عمار قاضي طرابلس للفاطميين قد سبق له ان اسر فيها دار حكمة او مية مدرسة جامعة على نحو دار الحكمة التي انشاها الحاكم في مصر سنة ٤٠٠ هـ . وقد غدت طرابلس في النصف الاخير من ذلك القرن بفضل دار

الحكمة ديبها ، كعبه المتعلمين كما كانت حلب في القرن الرابع على عهد سيف الدولة كعبه المتأدبين .

ويحب ان ندرك ان هذه المدارير كثيرا ما كانت لتلقى العلوم الدينية وما تستلزمه من فنون لسانية . اما الطب والفلك والهندسة فكان لها جميعها جامعات خاصة بها . وهكذا نرى ان المدارس في الشام لم تعرف على سورتها الحاضرة الا على يد ملوك الطوائف فيها من اترك واكراد وان بدأت في القرن الخامس وكثرت وتعددت في القرون التي تلت ودراستنا لها تتعلق في غير ما نحن بصدد الان .

الحالة الاقتصادية - ومن مميزات الشعب النامي انه مهما توالى عليه المصائب وتغلغل في بلاده فوضى الادارة وارهقه حكامه بالضرائب فانه يبقى مالا الا لنشاطه ، جادا في العمل ليكسب عيشا رغيدا ويحيا حياة طيبة سعيدة . ولعل الفضل في ذلك يرجع الى خصب اراضيه وعندال مناء بلده ، ووفرة الانهار فيه وتدفق مياه بنابيعه . وقد عرفنا فيه تلك الحيوية وذلك النشاط منذ ابعد عصور تاريخه . عرفنا فيه الزارع النشط والصانع الماهر والتاجر الدائب .

ولما جاء العرب بعد الفتح وظهر ما اظهروا من حب الاستقرار والاخذ باسباب حياة جديدة يتوفر فيها النعيم ورغد البعث جعلوا قانونهم من احبا ارضا موانا كانت له . واطرد ذلك عندهم ان اغتبطوا بما وجدوه من الخصب في هذه الربوع بالاضافة الى جذب بلادهم وبواديها المحرقة . فكان لذلك منهم من الانتر البليغ ما انطق شاعرهم في عمر بن قح ابلابا (القدس) بقوله -
والقت اليه الشام افلاذ بطنها وعيشا خصبا ما تعد ماكله .

وما ان تربعت امية في وسط الحكم واخذ آلهم ورجالهم يقتنون المزارع وبالقون في اتخاذ القروى والزروع المنمرة حتى جعلوا القرى مستغلات لهم وتنافسوا في ذلك حتى لا تبقى ارض شاغرة لا تستغل فانزل معاوية قوما من القروى في طرابلس واتخذ هشام بن عبد الملك الصباء والمزارع وهو اول من اشق انهارا كثيرة عزيره منها النهر الذي فوق الرقة وغرس غرسا كثيرا بالحزيرة والشامات حتى بلغت غلته اكثر من خراج مملكته .

وما زالت عناية الخلفاء والوزراء ثم الملوك والامراء بتعهد الارض
منوفرة حتى اهتزت ورث وقابضت وغلت فافقتى اهلها وانثروا . وآية ذلك
انه بالرغم من كل ما جابه ولاية الفاطميين وعمالهم من الضرائب وما جمعوه
من الثروات الضخمة ظل اهلها في بجدية ورغد من العبد . ببعضان ففى
التفسير الدهشة والاستغراب (لائس ج ١ ص ١٥٠-١٥٨)

وما اشتهر عندهم من اصناف الزروع والاشجار جميع الغلات النفيسة
كالقطن والسمن والكروم والتبن والزيتون والفسنة والساق والنخيل وصنوف
الرمان وانواع النمر وقد ذكر بعضهم ان التفاح اللباني موصوف بحسن
اللون وطيب الرائحة ولذة الطعم (الخطاطج ٤ ص ١٦٥)
هذا فضلا عن الحبوب والرياحين كالآرز والورد والفرحس والبنفسج
والفسرين .

وما كانت الشام تنعم به فى تلك العهود من الاشجار
غىر الشجرة = السرو ، والصنوبر والارز والعرعر . ومن احراجها (١) غابة
عسقلان (٢) غابة ارسون (٣) وجرى القنيطرة (٤) وفى اطراف حلب عدة
غابات يقال لها الزور (٥) غابات لبنان (٦) غابات عكار وجبال النصيرية .

هذا عن الزراعة اما الصناعة فلم تكن اقل حظا من عناية
القوم بها ومهارتهم فيها وقد عرف الشاميون من اخذة النار بالصناعات
على اختلاف انواعها وتنوعها لها فاخذت معظم المدن والبلدات قسطها من
تلك الصناعات = الخزف والحباكة والنسيج فاشتهر القطر منذ القدم ببزء وقماشه
ودساحه وخزء وبروده . وهناك من لصناعات الهامة ابدا = القباية والحداة
والنحاسه فاشتهرت كبر من مدن الشام بصناعة القباية او عمل السلاح وذلك
لان الحديد متوفر فى حلب ولبنان وسيوف دمشق لا تزال يفاخر بها لفننن
الصباقة فى صنعها وكذلك لسنا شاميين الزجاجه وقد عدها التعاليم من حوائص
الذام وقال انه بضرب المثال فى الرقة والصفاء بزجاجها فيقال "ارق من زجاج اظم"
وقد اشتهرت صور منذ القدم بزجاجها كما كانت معامل الزجاج فى حلب وارناز
مشهورة ، تصدر منه الى العراق وسباهى به فى قصور الخلفاء ، وما اشتهرت
بتلك الصناعة الثمينة عكا والخليل والرقة .

ومن الصناعات التي كانت تجود في دمشق وحلب من دون سائر المدن الشام صناعة القيشاني ومنه نموذج في جامع تنكر مكتوب عليه آية التوحيد (الخطط ج ٤ ص ٢٤١)

وفي أيام بني أمية نقلت صناعة الورق الى الشام والغالب من البلاط اخذت فيما بعد في صنعه في دمشق وطبرية وطرابلس وحماة ومنبع وكان ينقل منه الى البلاد الاخرى كميات كبيرة من دمشق وطبرية على ما ذكر المقدسي . وكذلك من الصناعات الرفيعة كالصبغة ولعل الشام مدينة بها الى الفانعين العرب ان هادنهم الملوك في آسية وافريقية واغلب هذا باهم الحواهر الكريمة والذهب حتى امتلأت منها خزائنها فراح الخلفاء يهدون منها القواد والامراء والاطباء والعلما والشمراء والفقهاء فكثر في ايديهم وزادت بطبيعة الحال في ابداء الصاغة . ويمكن ان نعد في جعلتها طبع الدراهم وضرب الدينابر فان الشام كانت من اوا الافطار التي سككت النقود وكان نسج الحصر من افضا صناعاتها وقد رأى ناصر خسرو الجغرافي الرحالة في القرن الخامس الهجري حصرا من هذه الحصر الطبرانية نستعمل للصلاة عليها وتساوى الواحدة منها خمسة دينابر مربية ونحتزى بهذا القدر عن الصناعة لتتقدم الى التجارة .

ان لبلاد الشام من موقعها الجغرافي بين القارات الثلاث ومن نشاط اهلها في الزراعة ومهارتهم في الصناعة كعامل كبير في اخذهم بالتجارة واساليبها والعمل على توسيعها وتنويعها . ولقد عرفوا بذلك منذ القرون الاولى في تاريخهم .

والعرب كجميع الساميين نهار بالطبع ولضعف زراعتهم اخطروا منذ القدم الى الضرب في الار . طلبا للرزق فكانوا يغزلون في الشرق والغرب نسبة الربيع والانرا .

وما ان تفتحت امام ابواب الشام وغيرها في القرن الهجري الاول حتى اتسعت الدنيا لديهم وراح الخلفاء والوزراء ثم الملوك والامراء يشقون الطرق ويستنبطون المباء على طول الطريق الى ام القرى تسهيلا لتأدية فريضة الحج ،

وينشرون الامن والراحة فيها فكان في ذلك كله افادة للتجارة اى افادة .

ثم ما لبثوا ان ضبطوا حساباتهم بفن مسك الدفاتر وشرحوا الكفالة وانشأوا المصارف للفقراء وكنت تراهم حينما نزلوا مهدوا السبيل وامنوها وعمروا المرافق واصبحوا الفرر وانشأوا الفنادق والرباطات وربوا سبر القوافل فكانت طريقها من الشام الى مصر على الترك او على غزة ورفع وكانت دمشق محط رجال القوافل الذاهبة الى بلاد الروم والجزيرة الفراتية فسر طريقها الى مصر او بلاد العرب او العائدة منها .

غير ان الشرمانين الرئيسين للتجارة العالمية في ايام المقدسي كانا دجلة والفرات وكان على خفة الاخير الغربية منهما قرصتان مهمتان الرقة وبالسمر ويسمى الاسطخرى هذه مرفأ النول . وفي هذا برهان قاطع على ان التجار النول كانوا يتجمعون هنا عند تخوم بلادهم فيسى القرن الرابع الهجرى ليجحروا سلحهم اما الى الشرق الاقصى عن طريق بحر الصين كما يسمى المقدسي الخليج الفارسى واما الى البحر المتوسط عن طريق حلب مركز تجارة الشام ومنها الى انطاكية ففرضت السويدية .

ولم يكن العرب بالتجارة البرية بل راحوا بحمرون التجارة البحرية ايضا الشيء الكبير من غنائمهم فرقوا الى ناعة البحرية ووسعوا القوافل لخوض الملاحة واقتبسوا البوصلة من الصينيين وفتحوا بذلك امام بضائعهم آفاقا جديدة امتدت عبر البحار والمحيطات المعروفة لديهم اذ ذاك .

وقد كانت مراكب صور وطرابلس والسويدية تنقل بالتجارة الى سواحل حلب القسطنطينية وخليج البنادقة وبحر بنطس (الاسود) وجزائر قبرص ورودم واثريطس (كرت) .

وكانت صادرات الشام كما يلي = من فلسطين: الزيت والزبيب والخروب والصابون والحبين والمرايا وقدرور القناديل والنيل ^{لبن} والخبز والحبوب والخرفان والعسل والكاظم والبن والارز .

ومن قندس (حمص وحماة) كانت تنقل الثياب والحبوب ومن صور وطرابلس السكر والخرز والزجاج .

ومن دمشق الدباج ودهن البنفسج والورق والجوز ومن حلب القطن
والثياب والمغرة ومن بعلبك الملاين .

وما ذكره ابن بطالان من اها القرن الرابع عن عحات حلب قوله -
" ان في قيسارية البز عشرين دكانا للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعا فدره
الدينار ، يستمر ذلك منذ عشرين سنة الى الان " هـ .

وكانت التجارة في القرن الخامس زاهرة جدا حتى ان جعفر بن علي
الدمشقي قد قسم التجار الى ثلاثة اصناف وهم - الخزائن والبركانيين والمجهزين .

ولكي نتصوركم كانت حركة التجارة بين انطاكية وحلب قبل الحروب
الصليبية نورد ^{من} كلمة الخبر التالي على سبيل المثال - نحن نعلم ان الروم
في اواخر القرن العاشر للميلاد قد تغلبوا على المسلمين وانتزعوا منهم انطاكية
وما جاورها وانهم قد احتفظوا بها حتى ١٠٨٤م ولكنهم ما ان استولوا على
ذلك حتى ازاحوا عن حلب سيف الدولة وساعدوا مفتصبين من الرعية للقبض
على ازمة الامور فيها . وقد حفظ لنا كمال الدين مؤرخ حلب البنود الرئيسية
للمعاهدة التي عقدها حكام حلب مع حاكم انطاكية في شهر صفر ٣٥٩ هـ .
وكانت الاو. سنة ٩٦٩ - كانون الثاني ٩٧٠) منها = (١) لا يجوز اعاقبة
القوافل الرومية في طريقها من انطاكية الى حلب بل بحسن حمايتها حتى
تحتاز طريقها بامان . ثم يذكرون شروطا لتحديد الرسوم الحمركية عن البضائع
فـيـجـد في هذه القائمة - الذهب والفضة وحرائر الروم والحرير الخام والحجارة
الكرمة والافضة والكتان .

وفي سنة ١٠٨٦م كانت مراكب باري تنقل فواكه وبضائع اخرى الى انطاكية

التي كانت قد انتقلت الى ايدى المسلمين . وفي الاربعين سنة التي سبقت

الحروب الصليبية كان بين الشام واما في علاقات تجارية (٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ١٠٠ هـ)

هذه لمحة موجزة عن اقتصاديات الشام في القرنين السابقين للحروب

الصليبية فنبين منها مقدار الثروة التي كانت البلاد تنعم بها ومبلغ الرقي

الاقتصادي الذي وصلت اليه بفضل نشاط اهلها وذكائهم . ولكن كيف انفق

الناس تلك الثروات وفي اى وجوه العمل صرفوها **لأننا** اعتدنا ان نرى الانسان

إذا ما ارتقى واغتنى ابتدع اجتدع حاجات بنفق في سبيلها ماله واخترع
الوانا من الحياة بخلد فيها ذكره فما هي تلك الطرق وما هي تلك الالوان
التي اوجدها الداعبون ان ذاك فانفقوا في سبيلها اموالهم وخلدوا بها
ذكرهم .

لا شك ان الفنون الجميلة من الوسائل التي اتخذها الانسان
للتعبير عن خلجات نفسه وللترفيه عنها وادخال السرور عليها او دفع الحزن
والهموم عنها . فلنر ماذا كان حظ ^{الإنبي}ها .

الفنون الجميلة - ان للناس في سبيل الترفيه عن انفسهم طرقا واساليب ،
تتخذونها بوقفا للهمم او جلبا للذهيطة والسرور .
وما هذه ، وتلك في الحقيقة سوى الفنون الجميلة او الصنائع النفيسة
والاداب الرفيعة كما نراها بعضهم ان يسميها . ففنها ما يستعمل الالوان والاوزان
تحقيقا لذاته وهذا ما يعرف بالموسيقى والغناء ومنها ما تكون الاشكال والالوان
ادواته في الوصول الى غرضه وهذا هو فن التصوير او النحت او البناء ،
ومنها احبها ما يتذرع بالكلام الموزون او العبارة القوية للتعبير عن خلجات نفسه
وهذا هو الشعر والفصاحة .

ولم يشذ الشاميون في مختلف عهود تاريخهم عن هذه القاعدة
العامة وان تفاوت فنونهم قوة وضعفا وتقليدا وخلقا حسب الظروف التي مرت
بهم في ادوار تاريخهم الطويل . فقد عرف عنهم منذ القرون الاولى انهم اهل
طرب وشغف بالغناء والموسيقى ولا عجب فلمن من دقة الاحساس عندهم وجمال
الطبيعة في بلادهم مرور لذلك ومشجع فيه .

وما ان استقر العرب في هذه الديار بعد الفتح حتى رأناهم
يقبلون على ما كان عند اهلها من هذين الفنين الجميلين وبعد ان اطمان بنو
امية في الحكم كان في حملة ما دخل عليهم في حياتهم الجديدة الغناء على
صورة كادلا الغناء قبل ولا التبذل " حتى ان معاوية كان يستمع ويطرب ويتحرك في
مجلسه واذا لفنوا نظره الى فعله قال = " كل كرم طروب " ثم توالى الخلفاء
من بعده باخذون به حتى ان عمر بن عبد العزيز قد دونت له فيه صنعة
وكذلك كان لبزيد بن عبد الملك .

وهكذا ما فتى* الفن يتقدم فى الصنعة ويرتقى حتى ذكروا انه
كان فى سائر الطبقات من اهل الرفاهية والسعة ممن كانوا ينشطون الى سماع
الاغانى ويخلعون على الرجال والنساء من ارباب الموسيقى والغناء .
ومما بدا على مبلغ تقدم الموسيقى فى الاسلام ابام سيف الدولة
الحمدانى ما يلى = جاء ابو النصر الفارابى الفيلسوف الى الشام على عهد
سيف الدولة فادهشه ومن عنده من الموسيقيين على اتقانهم لها . وقد وصل
فى علم صناعة الموسيقى وهملها الى غاباتها كما صنع آلة غريبة يسمع عنها الحائنا
بدبعة بحر بها الانفعالات .

وقد ذكر المؤرخون من تنافس سيف الدولة مع الوزير المهبلى للاستئثار
بمغنية ادبية مشهورة ما يدل على مدة ولع التمتع بالموسيقى .
ولم ترح الشام تخرج فى فنى الموسيقى والغناء رجالا ونساء كانوا
بهجة عصورهم ومنعة اجبالهم . وكان من البارعين فى هذا الفن من علماء الشام
فسطا بن لوقا البعلبكي وصفى الدين عبد المؤمن .

وكذلك التصوير فن جميل يراد به التعبير عما نفعل به نفوس
الجماعة من احساس وقد عرفه الشيخ محمد عبده بقوله = ^{انه} شرب من الشعرى
ولا يسمع .

ولما استقر الفاتحون من العرب فى الشام نهجوا فى التصوير نهج
البيزنطيين والفرس واستمروا على ذلك مدة . واول ما عرف التصوير بعد ذلك كان فى
زمن الوليد ويغلب على الظن ان اكثرية من صوروا له ما اراد من الحيوان والنبات
والشجر والمدن والاصقاء كانوا من الفرس والروم الذين دخلوا فى خدمة الدولة
الحديدة . وقد عثروا فى قصير عمرة القائم على سبعين كيلومترا من قصر المشتى
(المشقى) فى البلقاء على كنبر من النفوس الزاهية والنماوير العجيبة التى تاخذ
بالابصار .

وبلاحظ ان العرب لم يخالفوا البيزنطيين فى التصوير الا بعدم تجسيم
الحيوان .

وبعد ان ترجمت لهم كتب الفنون والضاعات عن الروم والفرس والقبط
والسريان والهند منذ اوا النصف الثانى من القرن الهجرى الاول سرعوا بيزنون

كتبهم ببعثة الصور بتخذونها لتتمها الصائل العلمية للابصار .

واخذ الترم نقي الفسيفساء عن الروم وبالفوا فيها ثم جودوا عملها وكانت في الجامع الاموي قبل حريقه الاول في القرن الرابع الهجري ملونة مذهبة تحوي صور اشجار وامصار على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة . وقل شجراو بلد مذكور الا وقد منا على تلك الحيطان (المقدس ص ١٥٧)

وكان العرب في الشام تلامذة الروم في البناء ايضا ان كان بين ابنيتهم الاولو وابنية النصارى شبه كبير ولكن ما لبثوا ان اندأوا في القرن التالية ابنية تدل على ذوق جميل . وكان من مبانيهم ، فضلا عن القصور والحوام المدارس الكبرى في حلب ودمشق والقدر وغيرها . والقليل الباقي منها السو الان شاهد على ما كان للمهندسين الشامى من حسن الذوق .

وقد رأى ناصر خسرو قبيل منتصف القرن الخامس ان البيوت في طرابلس كانت ذات اربع طبقات او خمس واحيانا ست طبقات ، وذلك لعمرى ظاهرة فريدة تدل على مبلغ تاور هذا الفن في الديار الدلمية وعلى الدرجة الرفيعة التي وصل اليها علماءها من التقدم فيه .

وكان الساميون منذ ابعد عصورهم التاريخية معروفين بنموهم الادبى ، ولطالما اخرجت مدارسهم القديمة في نصيبين والرها وبيروت وانطاكية ادباء هزوا النفوس بخطبهم وفصائدهم وقد كثر سواد هذه الفئة في عهدىها العربية ولا حسب فان لطبيعة البلاد انرا بينا في الازدهان والفرائح واكثر ما يجيد الشعراء في بلد صح مناخه ، وطابت تربته وكثرت ظلاله . وهذا كله موفور في القطر الشامى . وقد كان شعراء عرب الشام وما يقاربها اشعر من شعراء شمر العرب العراق وما يحاورها في الحاهلية والاسلام . هذا ما قال به النعالي وقد علله بقوله - يرجع ذلك لسلامة السنتهم من الفساد العارضى لغيرهم بمحاوره الفرس والنبط ، ولما جمع شعراء العصر من اهل اشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكا وامراء من آل حمدان وغيرهم ممن شغفوا بالادب وجمعوا بين آداب السيف والقلم اتبعنت قرائحهم في الاحادة فقادوا محاسن الكلام كالمين زمام واحسنوا وابدعوا ما شاؤوا . هـ .

وكان أبو بكر الخوارزمي قد دقّ بلاد الشام في صباه ولطالما
قال: وهو أحد أفراد الدهر وأمرأه الشعر والنظم "ما فتق قلبي ورحض فمعي وصقل
ذهني وأرهف حد لساني وبلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية واللطائف
الحليّة التي علقت بحفظي وامتزجت بأحزائي" ^(١) نفس "هـ" وكفى بهذا مأمدا على
صحة ما للشاميين من بد تذكر في فن التصوير باللسان والقلم .

تلك حال المجتمع الشامي عذبة هاجمه جموع الصليبيين فلنر
ما كانت عليه حال مجتمعهم حتى نتبين الفرق بينهما ونستطيع الوقوف على ما
أخذه كل منهما من الآخر .

(١) الخطط ج ٤ ص ١٣٨ - ١٣٩ .

٢ - المجتمع الغربي عشية الحروب الصليبية

اثر الامبراطورية الرومانية في نشوئه - عجز الامبراطورية عن صد القبائل
عن نخومها - الحالة الفكرية - الحالة الدينية - الغزو الجرمانى
- الدولة الفرنجية - النبلاء والملكية - حاجب القصر والملوك الكسالى -
بيبين واطر حكمه - شارلمان والبابوية - الانقطاع والمنازعات - الابطام الحرم-
شارلمان والحركة الفكرية - الفروسية ومشاها .

٢ - المجتمع الغربى عشية الحروب الصليبية

ليس من السهل ان نفهم حالة المجتمع الغربى عشية الحروب الصليبية
ما لم ننخلغل فى اصوله البعيدة ومن ثم نتقدم فى دراسته حتى تلك الفترة التى
سبقت بقليل الحروب الصليبية .

ونحن مضطرون الى مراجعة تاريخ الامبراطورية الرومانية فى اواخر ايامها
بمع اقام الحرمان ولا سيما الفرنج منهم ممالكهم على انقاضها .

ففى مطلع القرن الخامس الميلادى لم يكن فى غربى اوروبا من دوله
بالمعنى الصحيح بل كانت البلاد التى تشمل اليوم انكلترة وفرنسة واسبانية وإيطالية
تشكل آنذاك رفعة واحدة يحكمها الامبراطور وعاله وموظفهم . اما جرمانية فكانت
ما تزال اقلها تغطية الذات وتقيم فيه قبائل جرمانية من انصاف المتوحشين .
وقد حاول الرومان عبثا ان يفتحوا هذا الحز من اوروبا فانهم اصابوا الى الاكتفاء بان
يبقوا تلك الحموع الجرمانية خارج الحدود الامبراطورية وان يصدوها عنهم بنثر القلاع
والحصون ، يقيمونها على طول مجرى كل من الرين والدانوب .

وقد يتساءل البعض منا فيقول * وكيف تعطل اذا ضعف الحكومة الرومانية
وعجزها عن صد القبائل الجرمانية عن حدودها مع نفوذهم واتعداد الوحدة فى
صفوفهم ، بعد تلك السطوة التى كانت لها حتى كاد بعض الناس يتوهمون انها
باقية ابد الدهر . * حقا انه من الصعوبة بمكان ان يلقى هذا السؤال جوابا
شافيا . غير انه يظهر ان للام كما للانفراد معدلا من العمر اذا ما بلغته كان لا
بد وان تعمل عوامل الهرم فى جسم الامة فتهدمه . وهذا ما حصل للحكومة
الرومانية ان سكان الامبراطورية كانوا قد اخذوا يفقدون بالتدريج حيويتهم بل

والنقمة بانفسهم وبالتالي رفاهينهم ورخاؤهم وذلك منذ القرن الثالث بعد الميلاد
مؤ ومرد ذلك الى الاسباب التالية = (١) نظام الضرائب الجائر الذى كان
بمنص مالية التاجر والصانع والمزارع حتى افقدهم كل نقمة وانزل فى اكثرية
الطبقات الغنية المنتجة الدمار . (٢) انتشار الرق وكثرة الرقيق الامر الذى
حط كثيرا من قيمة العمل مهما كان ثريفا ثم هدم عند العامل معنوياته .
(٣) التنافس فى السكان الناتج عن قلة المواليد وكثرة الوفيات للاسباب التى
ذكرناها . (٤) تسرب الرأى الى قلب الامبراطورية وتغلغلهم فى انحاءها نسمة
تصيدهم فيما بعد الطريقة بذلك لفتح القسم الغربى منها امام اخوانهم الذين
كانوا قد تخلفوا وراءهم .

الحالة الفكرية . تلك كانت الحالة العامة فى اوروبا فى القرن الخامس غير
ان ذلك لم يكن كل ما بلغته الامبراطورية من الانحلال فى القوى والتدهور
فى الثروة والضعف فى الجندية بل ان تضائل انوار العلم والآداب والفنون
قد ابعد ما بينها آنذاك وبين ما كانت عليه فى عصرها الذهبى فان النفوس
ابام قسطنطين كانت قد فقدت كثيرا مما كان لمتلها من الروعة والجلال ابام
تراجان قبالا . ولم بعد ينبغ من كبار الشعراء وشيوخ الادب امثال شيشرون
وتاسيت وغيرهما احد ان انحطت هذه الآداب الى درجة لم يخلها بعد نجد
بين القراء من يكلف نفسه عنا البحث عن عبون الكتب فى الشعراء والنثر
با كل ما كان نصيب اليه نفسه ان يجترع بعض المتنيسات الادبية واما ما كانوا
يسمونهم "علماء" فلم يكن فى الحقيقة اكثر من بقايا ملخصات وتعليقات ومشروحات
لا تسمن ولا تغنى من جوع .

الحالة الدينية = لقد كانت النصرانية منذ القرن الثانى للميلاد ، فى ذلك
العهد قد بدأت تجد طريقها الى قلوب الغربيين حتى غدت تقف وجها لوجه
مع الوثنية عندهم وقد شبهها احداهم = "بجيشين يتقابلان فى نزاع هبت هذا
فى بادى الامر ، غير انهما ما لبثتا ان اصبحتا كسهرين يلتقيان / كل منهما ما
عنده مع الآخر ."

ثم ما عنكم معتنفو الدين الجديد ان اخذوا بشعرون بقيام كنيسة عامة شاملة (كانوليت) يقوم فيها رجال الاكلبروس بجميع الامور الادارية المتعلقة بالعلمانيين من الشعب فكان لها في ذلك وفي موقف الاباطرة المتأخرين منها ما جعلها تعيث وتبقى بعد ما سقطت الامبراطورية وراحت تنوب مناب الحكومة فيها وتحفظ اللغة اللاتينية بين من لم يكونوا يحسنون سوى لهجة همجية من الجرمانية وقد حافظت ايضا على شيء قليل من اساليب التربية والتعليم حتى في احلك ايام العصر .

الذين زو الجرمانى . وفيما كانت حموع الجرمان تسعى جهدها لاقتحام حدود الامبراطورية ابان القرن الخامس اذا بالهون من المغول تغاضد ضغطها على القوط الغربيين منهم وتدفع بهم الى داخل الامبراطورية حيث ينشرون الذعر في ارجاء غربي اوروبا . غير ان المصيبة ما لبثت ان وحدث بين الجرمان والرومان وراحوا ينزلون في العدو المشترك هزيمة منكزة في سالون سنة ٤٥١ م . وبعد ان نوهم النار ان شعبا جديدا سيخرج من اختلاط الرومان بالجرمان اذا بشيء من هذا لم يكن واذا باوروبا تغرق في ليل بهيم تضاللت فيه انوار الفكر حتى انطفأت جذوتها في القرون التالية فساد غربي اوروبا عصر طويل من الظلام الحالك اتفق المؤرخون على تسميته "بالعصور المظلمة" امتد خلال قرون ثلاثة اخرى ما بين السادس والتاسع ^{قريبا} برز فيه ادب واحد او كاتب واحد بولف حتى ولو بلغه ركبة لا نبتة تاريخا للعصر . فقد غدا كل شيء ان ذاك يعمل على قتل الافكار وما بقي من اساليب التربية والتعليم ولا عجب فان جميع مراكز الثقافة القديمة من قرطاجنة الى روميسنة الى الاسكندرية فيلانو كانت قد عملت فيها يد الدمار او اوقفت فيها انتاد جذوة ذلك الى حين . وكثيرا ما قضت جموع البرابرة على المكتبات التي كانت قد نقلت الى المعابد لتحفظ كما ^{فقد} نعتي على شعائر الوثنية المتحمسون من النصارى وقد سرهم ان يروا مخلفات الوثنيين الفكرة شاكلها النار هي وديانهم .

الدولة الفرنجية - وفيما كان غربي اوروبا يعاني تلك الازمة الاجتماعية مسئلة في انحلال اقتصادي سياسي ونضوب فكري وفوضى شاملة واضطراب عام ، كان يقوم

في الحزير البريطانية حفنة من الحكام في كل من *أيرلند* و*اسكتلند* و*انكلتر* وويلز، بل ان ابطالية نفسها لم تكن اقل تحزوا ولا اقل فوضى مع وجود البابا اقوى حاكم فيها . وكذلك كانت اسبانية قد وقعت فرصة الفتح العربى لما سادها من انقسام سياسى ومنازعات دينية . غير ان العرب ما كادوا بحثازون حمال البرانس الى غالبا حتى قابلهم الفرنج وصدوا لهم فى سهل "بواتيه" وكانت تلك الهزيمة التى الحقوها بهم والننى تفهقروا على انرها الى الجنوب ولم يتقدموا بعدوذا .

وهكذا نرى انه لم ينجح من الشعوب الجرمانية التى عبرت نخم الامبراطورية فى الغرب فى تأسيس ملك دائم سوى الفرنج منهم ان الدول المختلفة التى اقامها بعضهم لم تلبث ان اجتاحتها قبائل اخرى او ازاحتها الامراطورية البيزنطية او ابتلعتها جحافل العرب، كما كانت الحال مع القوط الغربيين فى اسبانية . اما الفرنج فقد كتب لهم ان يخضعوا اكثر القبائل الجرمانية الى حكمهم وان يمدوا حدود مملكتهم الى اقالم تنزلها احضانة الصحابة

واول ما نسمع بالفرنج مقيمين على طول محرى الرين الامفل ما بين كولوني وبحر الشمال وقد اختلفت طريقتهم فى التسرب الى داخل الامبراطورية عن غيرها من طرق القبائل الجرمانية الاخرى . فبدلا من ان ينفصلوا عن جرمانية ويغرقوا فى بحر الامبراطورية كانوا يعملون على فتح ما حوالىهم من الاراضى بسمرة تدريجية . وكانوا على توسعهم يبقون متصلين بالقبائل الجرمانية المختلفة وراءهم فحافظوا بذلك على الروح العسكرية بينما فقدوا سواهم بفعل مؤثرات الحضارة الرومانية .

وفى مطلع القرن الخامس نراهم يحتلون ما يعرف اليوم ببلجيكة وما انبسط من الاراضى فى الشرق منها . ثم ما لبثوا ان وسعوا مملكتهم بقبادة ملكهم كلوفر (لويس) جنوبا وشرقا فوصلوا فى غالبا حتى نهر اللوار وفى الشرق حتى الذابة السوداء .

ومما يحسن ذكره ان كلوفيس تنصّر على اثر فوزه في الناحية
الرقبة ودفعته حبيبته الدبينة ان يهاجم القوط الغربيين وجعلهم ينكفثون
الى ما وراء البرانس كما ان انه ضم البوگنديين الى حكمه .

ولما قضى كلوفيس نحبه سنة ٥١١ م . فو باريس عاصمة مملكته
اقتسم اولاده الاربعة المملكة فيما بينهم وراحوا يتنازعون مدة قرن كامل
من الزمن بيد انهم مع كل ما ارتكبوا في ذلك من فظائع وما وقعوا فيه من
نفرة في الكلمة ، ظلوا بنجوة عن عدو قوى يستفيد من حالتهم فيقتحم اراضيهم
محفظوا بذلك وحدتهم رغم تبادلهم اقاليم عدة من المملكة .

وعلى كل فقد نجح ملوك الفرنج في مد سلطنتهم على الرقعة
المتضمنة اليهم لفرنسة ولجيك والنزلند وقسم كبير من جرمانة غربيا فيكون
بذلك قد دحا عدد كبير من الاقاليم التي لم يوفق الرومان الى فتحها في
دائرة غربي اوروپ الناهض اذ ذاك .

البلا والملكة - ثم انه رغم النزاع الطويل الذي امتد بين خلفاء كلوفيس
فقد قام آخر الميروفنجيين دافوير سنة ٦٣٨ م . ووحد المملكة من جديد
غير ان هذا لم ينم شهر خطر جديد يهدد وحدة مملكة الفرنج ونعني به
ظلمه السلا الاقوياء الواسين من الاستقلال والتحكم . وكان في هثولا
من اصحاب المناصب العليا "صاحب القصر" او الوزير الاول على حد تعبيرنا
اجل اليوم . وما يلاحظ انه بعد موت دافوير هذا غدا هثولا "الحجاب اصحاب
الكلمة النافذة في شؤون الدولة اذ تراسى الميروفنجيون في احضان الكسل
وراحوا يوترون اللهو واللعب على النهوض باعلاء الملك حتى عرفوا " بالملوك الكسالى "
فما لبث ازا هذه الحالة ان امتاز "صاحب القصر" بيبين وول بضع اساس نفوذ
اسرته ولدى موته سنة ٧١٤ انتقل واجب تدعيم سلطة الاسرة الى ولده شارل
مارتل .

وقد عانى شارل مارتنيل من الصعوبات ما عاناه جميع ملوك غربي
اوروپة في سبيل تدعيم سلطته على جميع انحاء المملكة مع وجود حكام الاقاليم
ونوابهم . وقد اقتصر الحرمان هذين من الرومان ومع ان الملك كان من

حقه ان يرفع هؤلاء الى مناصبهم او ينحسبهم عنها فقد استطاع بعضهم ان ينفخوا مناصبهم مدى الحياة مما جعلهم يطمعون الى اكثر فيقفون حجر عثرة في طريق وحدة البلاد فما كان من شارل مارتل الا ان حاربهم واعادهم الى الهدوء وجعلهم يقدرون ضرورة خضوعهم الى الملك . ولم يكن الاساقفة من الاكليركيين اقا ازعاجا للملوك من زملائهم "النواب" المار ذكرهم من العلمانيين فكثيرا ما كان ارا مارتيا يضطر الى صرفهم من الخدمة زرافات زرافات .

وقد استطاع شارل مارتيال قبل وفاته سنة ٧٢١ ان يضم منصبه من بعده لولدين بيين وكارلوما . فنزك الاخوان "الملوك الكسالي" على عروشهم وراحا بضالعا هما بجميع الاعضاء فاستطاعا ان يخفيا صوت الشعب والمعارضة المرتفع من بيين "النواب" والاساقفة غير ان كارلوما ما لبث ان اعتزل العمل مؤثرا الرهنة على الادارة وفي بيين وحده بضطلع بشؤون الدولة . وعندما هرب بيين بالقوة من نفسه راح يعمل للتخلص من "الملوك الكسالي" وينخذ لنفسه اللقبين الاسمى والفعل لمالكه الفرنج ومع ذلك فقد كان الامر من الدقة بكان فعزم على جسر بين رئيس الكيسة قبل ان يقدم عليه فما كان من هذا الا ان اقره على مقترحه .

والكان لهذا التدخل من البابا بامر الملكية مانه الهام ان ملوك الحرمان قد كانوا حتى الان قوادا عسكريين منتخبين برفعهم الشعب بارادته او الخاصة منه الى عروشهم ولم يكن لحكمهم طابع ديني ما . اما الان فقد فسح البابا بيين على الطريقة السامية القديمة "فقد غدا الملك مسيح الله" على حد تعبير غيلن وان هذا العمل من البابا ليدل على تبادل الشعور اللبيب من عاهلى الذبح سيد الدولة وراس الكنيسة . فما عزم هذا الشعور ان نما الى اتفاق هام كان له اثره البعيد في تاريخ اوروية ومن اولى مظاهره الخضع بيين اللومباردين ثم تقديمه اراضيهم للبابا .

والخلاصة ان حكم بيين بمتاز بعدة نقاط منها = (١) تقوية مركز الملكية في دولة الفرنج وقد كانت على وشك ان تشمل اكثر اجزاء غربى اوروية . (٢) ايجاد

مملكة خاصة بالسابونية التي مع صغر رقعتها قد برهنت على انها كانت من اكثر الممالك خطورة واطولها حياة في اوروية . (٣) هذا فضلا عن صعوبات خلقها بين وابنه شارلمان من بعده . (٤) وقد صدق غبن حيث قال = تحت كف مملكة القديس بطرس وعلى ضفتان النهر عاد العالم يستأنف جهاده وراء بحته عن ملوك يحكمونه وشرائع يسير حسبها ومقدرات يرضيها لنفسه " ص ٧٦

وكان شارلمان بن بين برمي الى ضم جميع الشعوب الجرمانية في امبراطورية مسيحية واحدة وقد وفق الى حد بعيد في تحقيق هدفه . غير انه عجز دون اخضاع الساكسون لهويرة بلادهم فتصدت عندئذ الكنيسة للامر وعلت على تنصيرهم ثم تقدم شارلمان بطلب اليهم الخضوع له واللبايا وهذا تمثل فكرة الازدواج في حكم الشعب من قبل الملك واللبايا في العصور الوسطى .

ولما تعرض ملك اللومبارد لمدنية رومية مقر البابا حمل شارلمان عليه بجيوشه وجعله يعترف له بالسلطة عليه ونادى شارلمان بنفسه ملكا على اللومباردين وبذلك انضاف الى مملكته ما كان بين مقاطعة ساكسونيا وبلاد اللومبارد . وما ان استتب له الامر في هذه الناحية حتى التفت الى الشرق من مملكته واخضع في سنة ٧٨٩ الصقالبة الممتدة بلادهم الى الشمال والشرق من بلاد الساكسون حيث ينزل البوهيميون .

ولعل ابرز ما اناه شارلمان من الاعمال كان اعادته الامبراطورية الغربية سنة ٨٠٠ م ان ذهب شارلمان الى رومبة ذلك العام ليقرض في خلاف مشب بين البابا وخصومه . ولما كان حكمه قد اتى في صالح البابا شاء هذا ان يبرهن عن عظم شكره وامتنانه العاهل الفرنجي فانام احتفالا بحبي فيه ذكرى ميلاد المسيح في كنيسة القديس بطرس وفيما كان شارلمان راكعا يصلي امام المذبح اذا بالبابا يقترب منه ويضع على راسه تاجا ويحبيه بين نهليل الحضور وتصفيقهم بقوله " عاك امبراطور الرومان "

ويظهر ان شارلمان لم يكن يتوقع طول العمر لامبراطوريته موحدة لذلك نراه في سنة ٨٠٦ يقسمها بين ابنائه الثلاثة . غير ان موت كبيرهم اولاً

ثم ثانيهم ثانيا جعل لوسبريقي وعدد ابيه يتولى شؤون الامبراطورية كلها .
ولكن ما كان يمر على حكمه عدة سنوات حتى راج بفكر في تقسيم الامبراطورية
بين اثنائه اكثر من بعده . وهنا تضاربت المصالح بسبب المطامع التي حد
رانها الامبراطورية معه تنقسم الى ما يقرب من ستة اقسام بين سنتي ٨١٧ و٨٤٠
وفي سنة ٨٤٣ عقدت معاهدة فردان وتم فيها الاتفاق على تقسيم الامبراطورية
الى ما يعرف اليوم ، على وجه التقريب بفرنسة والمانيه وابطالنه . ولم يكن هذا
كل ما اصاب امراطورية شارلمان من تجزؤ وتفكك بل غلبت الاختلافات تعمل
عملها حتى طمع حكام الاقاليم بالملوك وقاموا بطالبون بالانفصال مما زاد في
الذاتين بلة .

اما اسباب ذلك التمزق فبرجع الى اسباب عديدة منها = (١) ضعف
خلفاء شارلمان . (٢) انشاء الامبراطورية (٣) تحذر المواصلات لانعدام الطرق .
(٤) ندرة النقود التي حالت دون ايجاد حد دائم (٥) انقضاء الغزاة من
شمالين وصقالية وهنغارين وعرب — على الامبراطورية من جميع الجهات (١)
هذا مع انعدام قوة مركزية تدفع المغبرين عنها مما اخطر معه حكام الاقاليم
الى ان يهتم كل منهم بامر الدفاع عن اقليمه نفسه برضى الشعب الذي كان
مستعدا لان يعترف لنائب الملك هذا بالسلطة والنقود . وهذا يفسر لنا ظاهرة
قيام حكومة متعددة الرؤوس والارادات ممثلة بما انتشر فوق الري من قلاع
وحصون دلت على نفرة الكلمة وانتشار الفوضى في الادارة القائمة . ومع ذلك
فقد بقيت الدولة قائمة ولو بالاسم وظل الملك تتوجه الكنيسة كممثل الله على
الارض اما الامراء العديدون — حكام الاقاليم — فنرى بهم صلة الاقطاع . وهذا
ما سنتوجه الان لدراسته .

وهكذا فان تاريخ غربي اوروبا السياسي لمدة ثلاثة قرون انقضت
بعد تمزق الامبراطورية كان بالحقيقة تاريخ الامراء الاقطاعيين العديدين ومع ذلك

(١) له نظرية تقول ان العرب هم الذين سبوا ذلك القارة في تاريخ اوروبا بعد
العصور القديمة والمتوسطة .

فان الملك على ضعفه قد بقى تاريخه اثم من تاريخ اتباعه الامراء
اذ ان الملوك هم الذين نجحوا اخيرا - لا الامراء - في انشاء الحكومات
القديمة .

ولقد رابنا النزاع الطويل الذى امتد مائة سنة فى سبيل مملكة
الفرنج حتى برهنت الابام على ضعف الكارولنجيين وقام مقامهم فى سنة ٩٨٧ اسرة
هوغ كابيه وغير ان حالتهم ظلت مضطربة بين القوة والضعف والوحدة والتفرقة
بسبب الاقطاع وامرائه وهى الدولة التى كانت ابام الحروب الصليبية .
الاقطاع - فما هو هذا الشكل الشاذ من الحكومة القائم على تملك الارض
وارتباط التابع بالمتبوع حتى نستطيع ادراك كنه المجتمع الغربى فى العهد الذى
نحن فى صدد تاريخه . اجل ان شكل الحكومة وقام وملك الاراضى الاقطاعيين
بختلافان من اى شئ آخر نعرفه اليوم حتى لبتعذر علينا ادراكهما ان لم نر
فى درسهما الى التاريخ البعيد وكذلك يبقى قسم كبير من تاريخ اوروبا عديم المعنى
لنا ما لم ننف على تاريخ تلك الحقبة منه .

جاء الاقطاع نتيجة طبيعية لظروف خاصة سادت غرب اوروبا فى
القرنين التاسع والعاشر على اثر ضعف امبراطورية شارلمان وسقوطها فرسنة
للمنازعات الداخلية والغزوات الخارجية كما انه يرجع الى عوامل وعادات سادت جاء
الرومان فى اواخر عهد امبراطوريتهم وابام غزو البرابرة لها يوم عجز الملاكون الصغار
من القيام باستثمار اراضيهم فاضطروا الى التخلي عنها الى الملاكين الكبار
(الاغنياء) والجيران الاقوياء . وكذلك اضطر الملاكون الصغار فى غربى اوروبا الى
اللجوء الى رؤساء الاديرة والملاكين والملوك من الفرنج يتناولون منهم الاراضى
فيعملون عليها مع بقائها فى عهدة اصحابها الاولين ويستثمرونها لقاء خصومهم
لاولياء نعمتهم وساداتهم . وعلى هذه الصورة خلقت الارض وملكتها تلك الرابطة
الجديدة بين الناس وقسمتهم الى سيد وسود او تابع ومتبوع هذا وكان عند شباب
الحرمان فضلا عن هذه العادة فى تملك الاراضى عادة اخرى تنضى بانضمامهم تحت
راية زعيم حربى يدفعون عنه ويحبهم على اساس مبدا تبادل المنفعة والمشاركة
فى التعاون . وحينما تم انضمام العادتين معا بصورة تدريجية اصبحت الاراضى

نورث للابناء فقدت القاعدة العامة في القرن العاشر لقيام العلاقة بين الناس بعضهم ببعض . ومع ان الملوك والنبلاء قد رغبوا في ابطالها فقد عجزوا عن ذلك 'ازاء' الرأى العام وغدت الارض العامل الاساسى فى علاقة الناس بعضهم ببعض من الملك الى اصغر تابع ومنذ القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر لم يكن ملوك الفرنج ولا ملوك الالمان يحكمون على اراضي بملكها رعاياهم بل كانوا كسادة اقطاعيين يستطيعون مطالبة اتباعهم بالاخلاص لهم وبعض الخدمات . وكذلك كان بحق لهؤلاء' بالاضافة الى اتباعهم ايضا . وهكذا كان يسر هذا المبدأ نزلا حتى اصبح المجتمع من قمة راسه الى اخصى قدميه بنالف من سادة واتباع تربط بينهم واجبات وحقوق .

اما الواجبات فكانت تختلف كثيرا وتفاوت اهمية وخطورة اذ كان التابع يتعهد احبانا بان لا ينزل فى سيده اذى او فى ارضه ضررا بل يتعهد احبانا بان يدترك مع سيده فى غزوة كاحد المشاة وان كانت العادة لا تزيد مدة ذلك عن الاربعين يوما .

هذا وكان ينتظر منه ان يخدم فى قصر سيده لدى الطلب حيث ينضم الى امثاله من الاتباع فبدلو معهم بالرأى لسيده فى قضايا تهمهم كما كان يتوجب عليه ان يقدم احبانا شيئا من المال او خدمة ما او ان يضيف سيده لدى مروره فى اراضيه .

ولكى بعد الانسان بين النبلاء كان من الضرورى فى المجتمع الورى آنذاك ان يملك ارضا ليتاح له التمتع بتمثيل تلك الحقوق المذكورة سابقا . ثم يجب ان يكون حرا وان يملك من الواردات ما يكفيه للقيام باود نفسه وحاجات حصانه بدون ان يضطر الى العمل وكثيرا ما كان يتمتع ببعض الامتيازات التى غلت معمولا بها حتى الثورة الفرنسية الكبرى . غير ان هذه الحقوق والواجبات لم تكن لتوضع فى حيز التنفيذ الا بالقوة وطرق وحشية فى اغلب الاحيان اذ كثيرا ما كان الاتباع ينملصون من القيام بواجباتهم وينقضون بدهم من يمين الاخلاص للسادة النبلاء وكذلك لم يكن هؤلاء باكثر محافظة على تعهداتهم من اولئك .

وكثيرا ما كان يحدث ان ينقل احد الاتباع تعهده فى المحافظ على اخلاصه لسيده الى تابع آخر بل كثيرا ما كان يجروا احدثهم على اعلان

انفصاله عن سيده وعدم الرضوخ له او قبوله برئاسة من تلقى قطبته (الار) منه .

ولعل هذا ما جعل الحرب والقتال بسودان المجتمع آنذاك وبصبحان الشغل الشاغل للسادة النبلاء القلقين دائما والمضطربين ابدا . فروح القتال والمنازعات المسنحكة حلقاتها بسبب انعدام ما يضبط الخوق والواجبات احبانا وهدنة المطامع احبانا اخرى كل ذلك ادى الى مشاحنات دامية جعلت العداوة واليغضاة سودان الحياة . وهكذا فبلا من ان تضمن الروابط الاقطاعية امنا وراحة يظهر انها كانت العلة الاولى فى المنازعات والمشاحنات . فكان الانباع يقتتلون ويجدون فى ذلك اكبر لذة لهم فى الحياة اذ كان القتال نفرة شرايعهم كما هى الحال فى الغزو ومع الاعراب فى البوادي والغفار .

غير انه ما لبث الناس ان ملوا تلك الحياة واخذوا يتوقون منذ القرن الحادى عشر الى شىء من الامن والسلام وقد ظهرت رغم كل ذلك - بعض بوادر النهضة فى حقلى التجارة والتعليم فى بعض المدن القديمة ثم جنوبى ايطاليا وفرنسة ومهدت الطريق بذلك الى نشوء حالة جديدة ونظورات عديدة . فلم يكن الذين شغلهم امور السلم يستطيعوا الصبر طويلا على تلك الحال البغيضة من القلق والاضطراب فقاموا بندوقون بهول الموقف وفظاعته . ولعل الكنيسة كانت اول من استجاب لتلك الدعوة لذلك رابنا رؤساها بندوقون بوجوب عقد "هدنة ربانية" بمتى بموجبها جميع اعمال القتال والنزاع خلال ايام معدودات تبدا مساء الخميس وتنتهى صباح الاثنين وكذلك يفعلون فى ايام الصوم العديدة . وقد الزمت محال الكنيسة ومجامع الاساقفة السادة الاقطاعيين بان يقسموا اليمان بالمغلظة ضمانا لمحافظةهم على الهدنة اسبوعية وقد نجحوا بفضل عقاب "الحرمان" المخوف واستطاعوا الى حد بعيد ان يوقفوا فى مساعيهم وعندما ابتدأت الحروب الصليبية فى سنة ١٠٩٦ تدخل البابا لاجساد سلم عام بنحويل تلك الروح الحربية ضد "الكفرة" فى الشرق . وكان قد بدا الملك فى فرنسة وفى انكلترة على الاقل يظهر بمظهر القوى العامل على نشر الامن كما نفهمه نحن اليوم .

ولما بحسن الاشارة اليه ان "الهدنة الربانية" فى المجتمع الاوروبى

بذكرنا بمبدأ الكد عن القتال في الأشهر الحرم عند العرب في الحاحلية يوم
كان الغزو والقتال روح المجتمع والعامل المغنى المبيد ثرائها في المجتمع
الأوروبي هذا .

والخلاصة فقد كان الاقطاع في غربي أوروبا وضعا شاذا لمعترت
فيه عناصر الحضارة فلا قانون له حرمة ولا إدارة نسمع كلمتها ولا طرق تسهل
المواصلات ولا تهذيب بسدد النفوس الى الخير ويحوا بينها وبين الشر هذا مع
ما كان عند الافراد من افكار عنيفة بحنوتها وعادات وتقاليد بالية يرددونها
دون ما انهم تركه في نفوسهم . ألم يكن الزمن زمن اضطراب ولصوصية واجرام
وفقدان امن . بلى . ومن مجموع هذه المتناقضات تكون ذلك الوضع الدان
المعروف "بالاقطاع" اذ اضطر الناس فيه الى التلفت هنا وهناك عليهم بلفون
زعيما يعتمدون في الدفاع عن انفسهم فكان ان تركزت الحياة والاعمال فيهم
على رؤس متوحشين . هنا سيد غليظ الكبر وحشى التصرف وهناك اسقف قوى
او موظف عنيف او شيخ اقام نفوذه على الغزو واقتحام ممتلكات جاره على نفوذ
بفنيته تسد جوعته او ارض تزيد رقعته)

وهكذا فلم تر الكنيسة بدا من التدخل في امور الناس عليها تخفف
من ويلات الاقطاع وشرو الاقطاعيين باعمال مختلفة منها = قيام الرهبان في
ادبرتهم على بحث الدعور ، لدى الناس ، بشرف العمل البدوى ، وان كان
- في اعتقادهم - من عناصر التدبيل للخلاص من الخطيئة وكان الرقيق قد ازرى
به في القرون الماضية . فراح هؤلاء الرهبان يضعون المثل الطيب في الاعمال
الزراعية على اراضيهم المبسطة حول الاديرة . وبذلك ادخلوا التحسينات الكبيرة على
الزراعة في الاراضي المجاورة لهم . وكذلك كان من الرهبان من يعكف على نسخ الكتب الادبية القديمة
وبالرغم مما وقعوا فيه من تحريف وتصحيف ومن اخطاء فادحة احيانا فلا يصعنا
الا ان نشكر لهم عملهم ذلك ان انهم حفظوا به الشيء الكثير من تلك المخلقات
الرائعة التي لولاها لضاعت وخسرتها المدنية . ومن يذكر بالخبر من هؤلاء
الرهبان خاصة البندكتيون في ايطاليا .

وما كادت الامور تستتب في بريطانيا بين مختلف الكنائس المتنافسة حتى دب الحماير في نفوس القوم لرومية وآدابها وثقافتها فعدت الاديرة فيها مراكز للدراسة فاقت سواها في فري اوروبية اذ كان الرهبان من الناشئين يدرسون فيها اللاتينية واليونانية احيانا وكثيرا ما جلبت لهم فسخ من المؤلفات الادبية الكلاسيكية عبر المايث بحفظت في خزائن الاديرة . هذا فضلا عما قاموا به من اعمال اخرى اذ اتوا انواعا بعدد الصناعات كصناعة البناء وصناعة الزجاج وغيرها . وكان هذا كله خلال القرنين السابع والثامن . اخذ اليه كل ما سبه ذاكرة من اعمال وجهود الكنيسة في سبل تنصير البرابرة وادخالهم في حاضرة البابوية .

ولعل مارلمان كان - بعد الرهبان - اوا ملك فكر بعد تودوريت في بحث الكتب والتوفر على دراستها بعد ان كانت قد خمدت حدود ذلك بثلاثة قرون خلت بسبب انقطاع اسبيراد البرد الى اوروبية بعد سنة ٦٥٠ م على اثر فتنة العرب لمصر . ولما لم تكن صناعة الورق قد عرفت بعد ، فقد كان على الناصر ان يدونوا ما عندهم على الرق بالرغم من غرته فحفظت بذلك بعض المخطوطات الادبية " اما القرن الثامن الذي سبق تنويع مارلمان فقد كان - على راء الرهبان السندكتيين - من احلا العصور واكثرها جهلا واشدها وحشية وذلك في فرنسا على الاقل " وكثيرا ما دلت سجلات المبروفنحيين على جهل مطبق واهمال بين من حانب كاتيبها .

ومع ثمة سواد هذه الصورة فقد كانت الوثائق نادرة بعد الامل في التحسن في هذه الناحية فان الكنيسة قد حققت اللاتينية من الضباع اذ كان على رجالها ان يجمعوا التعاليم الدينية من التوراة والانجيل وغيرها من الكتب . هذا فضلا عن المواعظ الكنسية التي كانت تولد ناحية ادبية اخرى ايضا . لذلك كان لا بد للكنيسة من ان تقوم بقسط كبير من التعليم حتى تتمكن من تادبة واحباتها المعقدة . فكان على منظارها ان يقرروا وكتبوا ولو قليلا لينتفعوا من الاداب اللاتينية القديمة ومما هذا احفظت الاداب القديمة حبه رغم ما ساء العصر من جهل وظلام ووحشية .

ولدنا كتابان لشارلمان بحث بهما لرجال الكنيسة بعضهم بهما علو

ضرورة العناية بالتعليم تحنبا للوقوع في الخطأ (ص ٧٨ - ٨٨)

ويظهر ان شارلمان كان يشعر انه من واجبه ان يعنى بتنقيف افراد الشعب

ايضا . ولذلك راساه في سنة ٧٨٩ م بطلب الى الاكبركيين ان يجمعوا

مع اناء الاحرار والافتنان ويفتحوا لهم مدارس " للفتيان وفي هذا دللنا

علو ان الفتاة كانت حتى ذلك العهد تحرم من هذا الحق .

وليس من السهل معرفة ما اسسه الاساقفة ورؤساء الاديرة من مثل

هذه المدارس بيد انه من الثابت ان مراكز التعليم هذه قد انتشرت في

المدن امثال اورليان وكورسي وفولدا وتورس . وما دل على عناية

شارلمان بهذه القضية الهامة تاسيسه " مدرسة القصر " لتعليم انائه وابناء

النسلا ايضا . وقد استدعوا لها " الكويس " من انكلترة ليمراسها كما استدعوا

غيره من مشاهير رجال التعليم من ايطالية وغيرها ليعلموا في مدرسته ذلك .

ولما اشتهر هؤلاء المؤرخ بولود دباقونس واضمح تاريخ اللومارديين فو ذلك

العهد .

وكثيرا ما كان . ارلمان يلفت الانتار الى وجوب العناية بنقا الاداب

القديمة لان تحنبا الوقوع في الخطأ في نقلها لا بقا - علو رابه - اهمية

من تعلمها . غير اننا نلاحظ ان شارلمان لم يعر الاداب اليونانية ولا الرومانية

اقل التفاتة اذ كان يميل ان يرى رجال الكنيسة يكتفون بتعلم اللاتينية بلتقان

ليستابعوا تلاوة الصلوات والكتاب المقدس بتفهم .

وهكذا نرى ان تلك الخطوة التي اتخذها شارلمان في سبيل واخلاء

التعليم والعناية بالناحية الفكرية من الحياة العامة قد كتب لها الفضل

في نتائجها المباشرة اذ ان القرن التاسع لم ينجب سوى النزر اليسير من مشاهير

الرجال ممن خلفوا مؤلفات تدل علو دقة في التعبير وعة في الثقافة الفكرية

فان انحلا امبراطورية شارلمان والمنازعات بين خلفائه ثم هجوم براوة جدد

وما نتج من الفوضى حسب السادة الاقطاعيين الذين لم يكونوا مستعدين للخضوع
لأية سلطة، كل ذلك قد تضاعف على ان تاخر العلم في الغرب لمدة قرنين آخرين
على الأقل من الزمن . وبالفعل فان القرن العاشر والنصف الاول من القرن الحادي
عشر قد بدا فيها شراً قلياً من التحسن عما كانت عليه الحال في القرنين
السابع والثامن ومع ذلك نجحنا فالحها والفوضى لم ينتشرا بعد : اربلمان كما
كان الامر معهما قبله (١٨ — ٩١ Robinson)

ومما يساعدنا على تفهم روح العصر وحياة اهله اليومية
وما كان يكتنفها من مشاعر واحاسيس ، التعرف الى ملاحظتهم وقصائدهم واغانيتهم
المعبرة عن الفروسية ومبادئها . ولا عجب فالفرسان قد لعبوا الدور الرئيسي
في حمية اقاصيه العهد ورواياته ولما كان الكثيرون من شعراء الغزا
يتمنون بصفة وثيقة الى فئة الفرسان ، كان لا بد ان يذكروا الشرع الكثير عنهم
في اغانيهم .

لم تكن الفروسية مؤسسة رسمية وضعت مبادئها في زمن
معين بل كانت ، كالاقطاع ، الذي تمت اليه بصفة وثيقة ، بدون مؤسس خاص لها
با بروز اذاتها في غرب اوروبا لسد حاجات الفهم ورغباتهم .

ويريد بعضهم ان يرجعها الاصل الى الجرمان ان زان
ناسيد * على قولهم * يحدثنا عن ان الجرمان في عهدهم كانوا يعتبرون اللحظة
التي يتقلد بها الشاب عندهم للمرة الاولى سلاح الجندي . لحظة مقدسة
لها معناها الخاص عندهم وانها البالغ في نفوسهم * لانهم كانوا يستبدلون
من ذلك على بلوغ الشاب سن الرحولة . وهذا بالطبع شرف يتقلدو في حياته .
ولعل في هذا — على راي هتولا * — الحزنومة الاولى لسنة
الفروسية . غير انه هناك فئة من الناس — بينهم العلامة قبلب حتى — يعتقدون
ان الفروسية زهرة نبتت اولا على ارض السلام ونقلها العرب معهم الى الاندلس

ولا يستبعد ان يكون الفرنج قد تعرفوا اليها على ارض عالية يوم اصطدموا للمرة الاولى بحبيش العرب وفرق فرسانهم وهم على خيولهم المطهمة . ثم طر الشاب المنحدر من هائلة نبله بنشدا على ركوب الخيل واستعمله السيف وتدريب البازي على الصيد بنصب فارسا في حفلة رسمية يشترك فيها رجال الكنيسة على ان التكرس يكون عادة على يد فارس عتيق .

وهكذا كان الفارس يعتبر جنديا مسيحيا بولف مع رفقة فرقة مطهرة ، بمناز افرادها بمنهم العليا التي تبدو في تصرفاتهم . هذا مع العلم ان انضمام الشاب الى مثل هذه الفرق لا بعد عضوية في منظمة لها موظفوها ودستورها با جل ما كان انهم بولفون جماعة متألبة ، نصف جنائبة ، بشعر حتى الملوك والنسلا بالشرف العظيم بانتمائهم اليها . ولم يكن واحد منهم ليخلق فارسا ، كما كان الحق او الكونت مثلا ، بل كان باستطاعته ان يصبح من الفرسان بعد عملية ذلك الاختقال المنوه عنه قبلا . وعلى هذا الاساس قد يكون الواحد منهم نبيل بالاصل ومع ذلك فلا يعترف له بالفروسية كما ان اى شخص ، مهما انحط نسبه ، كان باستطاعته ان يصبح من الفرسان على اثر عمل مجيد ياتيه .

فكان على الفارس ان يكون أولا مسيحيا ، يتعهد بالدفاع عن الكنيسة وبالخضوع لها في جميع المناسبات وكان عليه ان يخدم الضعف في جميع مظاهره وان يمد يد المساعدة للمساكين حينما وجدهم ، كما كان عليه ان يقاتل " الكفرة " بلا هوادة ولا رحمة وان لا يلبس امامهم . وعليه فوق ذلك ان يقوم بجميع تعهداته الاقطاعية وان يخلص النية لسيدده ويحافظ على اى وعد يتم به وان يكون كريما سخيا بحود ما لديه للمعوزين وان يبقى مخلصا لسيدته ويكون مستعدا للدفاع عنها وعن مرفها مهما كلفه الامر واخيرا كان عليه ان يمثل الحق ضد الباطل وان يقف في وجه الظلم وبكلمة موجزة " كانت الفروسية ففكرة الجهاد الاسلامي " منصرة .

ذلك هو المجتمع الفرنجى في غربي اوروبا الذي كتب له ان يحثك بالمجتمع العربى في الشام خلال الخروب الصليبية ولو رحنا نوازن بينهما لرأينا المجتمع في الديار الاسلامية قد بلغ من النضج الذاية في مختلف نواحي الحياة

المادية منها والفكرية والروحية . وقد تربع من ذلك كله الندوة ، بينما كان المجتمع الفرنجى في الغرب قد درج من طفولته بتلمس طريقه الى 'شئ' من عناصر - ر الحياة فكان يصيب حيناً ويخطئ احياناً . اجل لقد كان الفرق عظيمًا في الناحية الاجتماعية إذ كانت الديار الشامية في هذه الناحية قد شارفت على الانحدار اما في الناحية الاقتصادية فقد كانت في حالة لم يكن الفرنج قد تذوقوا منها - الا الشروء البسر وكذلك قل في الناحية الفكرية إذ كان القوم بجمعهم يتمنون لو نتاج لهم التمتع بالالف باء منها بينما كان العرب قد استغفروا منها الاسباب جميعها تقريباً . واذا كان من بين المجتمعين من وجه للشيء فانما كان ذلك من حيث ان العرب بجمعهم قد شارفوا الانحدار من الذروة كما كان الفرنج على وشك الشروع في التسليق فوق الهفوف .

الفصل الثالث

ما تبادلته الشرق والغرب من علاقات اجتماعية وثقافية أثناء الحروب الصليبية

الحروب ظاهرة اجتماعية - يستحيل منع الحروب من اقترع - الحروب الداخلية والخارجية - الموازنة بين الحروب الصليبية ووفياتها قديما وحديثا - اختلاف المؤرخين بتقدير ما خلفته من آثار - المملكة اللاتينية في القدس من الوجهة العسكرية - المجتمع فيها - أثر العرب الاجتماعي في الفرنج - في الأخلاق والملاهي والمآكل والمزج والحفلات والاعباد - الصيد والرياضة البدنية - المرأة "فرنجية" وأثرها في المجتمع - الفروسية بملابسها - أصلها شامي - الإدارة في المملكة اللاتينية - القضاء والتشريع - الحالة الحربية - الأسلحة - فنونها - آراء لتبني الانساب - الشعائر عند الملوك والأمراء - الصداقات بين العرب والفرنج - أمثلة حياة عنها - الحياة في القصور وبيوت الأمراء - الرق والخصيان - الحياة الاقتصادية - الزراعة والصناعة والتجارة - الحالة الفكرية - الحركة الفكرية العلمية في الديار الدائمة والافرنج بنارها - اللغات - الآداب التاريخية والجغرافية - العلوم الدقيقة - الطب - الفلسفة - العلاقات العامة -

الحروب "أهرة اجتماعية تدل على وجود معصلة بين الفقيهين المتخصصين بضطرهم الخلاص عليها وفشلهم في حلها سلما لان يحتملوا إلى النار والحديد إلى ان يتم الاتفاق أو يذبحوا أحدهما للآخر . فهي إذن وسيلة لإيجاد استقرار مشهود أو استرداد حق مفصوب أو تحقيق مبدأ جديد .

أما التحدث عن منعها فلمن لا طائل تحته إذ ينبغي العمل على إزالة أسبابها وظروفها للاستغناء عنها كوسيلة لحل مثل تلك المشكلات وسواء عندنا كانت عواملها اقتصادية سياسية أو اجتماعية دينية أو نفسية .

والحروب على هذا الاساء خمران = حروب داخلية واخرى خارجية .
اما الاولى منها فتقع بين فريقين اثنين في الدولة الواحدة . واما الثانية فتضخم
نارها بين دولتين او بين مجموعتين من الدول فيشتركا فيها عندئذ افطار
وقوميات با وقارات احدا . وكثيرا ما قام منا هذه الحروب خلال العصور
التاريخية المتعاقبة = كحروب الميديين واليونان ، وحروب الاسكندر والفرس
وحروب رومية وقرطاجنة ثم حروب العرب مع الريم والفرس وسواهم حتى كانت
الحروب الصليبية بين العرب والافرنج وبين الشرة والغرب با بين النصرانية
والاسلام الى ما هنالك من حروب عالمية كبرى ما زلنا نعاني بعض مساوئها
ونحنو كثيرا من فوائدها . غير ان اوضح فارة بين الحروب الداخلية والحروب
الخارجية ان هذه كثيرا ما تنقلب بمظاهرها المختلفة من سفك الدماء وازهاق
الارواح وتدمير معالم الحضارة في سبل هدف معين او اهداف اخرى بعيدة
اول كثيرا ما تقلب من ذلك كله الى تصادم بين تافنتين او مبداهن فـسـى
الحكم او فلسفتين او دينين فيخر منها المتحاربون بنتائج بعيدة ابجائية وسلبية
يقبى اثرها مانلا بعمل في التطور الاطرادى او العكسى . فنكون بذلك عاملا
في نشر المعارف والتقاليد ونقل المبادئ والافكار من مراكزها الخاصة فـهـ السى
اوساط جديدة . وهذا ما بقدره في ٢٠٤ من كتابه تاريخ المجتمع
البشرى حيث يقول = "وكثيرا ما بزداك ونقى انتشار العلم والعادات والتقاليد
والشرائع من مراكز الثقافة بفعل الهجرات وقبام الامبراطوريات ونشوب حروب الفتح
وتقدم وسائل النقل والمواصلات".

ولعل الحروب الصليبية قد فافت غيرها من الحروب الخارجية في النتائج
البعيدة ، وذلك بما خلفته بين العرب والافرنج من آثار وما اقامته بينهم مسن
علاقات اجتماعية وثقافية كانت عاملا هاما في تطور الشعبين بعد ذلك ان سلبا
او ايجابا .

واذا قيسست هذه الحروب بما سبقها في العصر القديم من حروب
سائلة لها نمزت عنها جميعها بمداهها الزمنى وتعدد الامم المتشبكة فيها ونشوع
الاحنام والقوميات واللغات والادبان والمذاهب بل وفي درجة التطور الفكرى

والاجتماع . فهو تختلف مثلا عن الحروب المدنية التي لم يطل امدها اكثر من سنوات معدودات ، وكذلك تتميز عن حروب روميو الاسكندر في كثرة المساهمين فيها وتنوع احناسهم كما تفتقر ايضا عن حروب رومية وفرطاحنة بما تركته من نتائج وما اوجدته من اتصالات واثقته من علاقات ، كان لها جميعها الانسـر البلية ، مع غيرها من العواما في نشوء اوروية الحديثة بفضل بقظة قوسية ونهضة حضارة ، خرجت بهما من ظلمات العصور الوسطى الى انوار العهد الحديث ومع ذلك فقد اختلف المؤرخون في تقدير ذلك الانسـر في نهضة اوروية . فمنهم من رأى فيها العامل الاول في ذلك ونسبوا لها كل فضل قسما ومن هؤلاء هن ام رابن وهانز بروتز الالمانان ولويون الفرنسي . ومنهم آخرون قد انكروا عليها ان يكون لها ذلك الانسـر البعيد فوجدوا في نظرية اولئك ومن لف لفهم مبالغاة لا مبرر لها . وعلى راسهم ارست باركر والاب هنرى لامسر . ومبعت ذلك الاختلاف — في اعتقادي — موقف كل من هؤلاء ، اولئك من الثقافة العربية والبليل الى تقديرها حق قدرها او الحط من شأنها ، فيمنما كلا / نسجع لويون يقول - كان الشرق (آندال) (آبان الحروب الصليبية) يتمتع بفضل العرب بحضارة زاهرة في حين كان الغرب غارقا في بحر من الجهالة " اذا بياركر (١) برفع عقيدته منسائلا - "ملى يقول ان اوروية الغربية كانت خاوية ، تفتقر الى كل شئ " (٢) . وكذلك نفرا لهن ام رابن قوله - واما في عالم الثقافة الواسع فقد ظهر كبار المفكرين في الفلسفة بعد الحروب الصليبية وما يتبعها من الانصال بالعرب وحتى التصوف تألمون بلون العلم " ولكن باركر يعود فيتناقض نفسه عندما يقابل بين اثر الثقافة العربية عن طريق الاندلس ومقلبة في نهضة اوروية وبين ما تغذت به من هذه الثقافة نفسها عن طريق سورية ومصر خلال الحروب الصليبية كما سوف نرى عما قريب .

اما نحن ، فمع اقرارنا بما في كلتا النظريتين من انراط وتقرير تبيل الى القول بان تاثير الحروب الصليبية في نهضة اوروية الغربية ان لم يات بصورة مباشرة بحيث يكون قد اخرج فئة خاصة من العلماء ، عملت على ابقاظ اوروية وانهاضها كما كانت الحال مع صقلية والاندلس الا انه كان اثره لا يستهان

به ان خلق مجتمعا بالذات حمله قابليات عديدة من نفسية وفكرية وروحية سجلت على التطور الجديد . القول ان مئات الالوف من الناس ينتقلون بانفكارهم " الفجة " ويقولهم " البكر " الى وسط سبقهم اهله شوطا بعيدا في مضمار التطور الاجتماعي والتقدم الفكري واختلف افرادهم معهم في نظرتهم الى الدين والى سواهم من اهل العقائد الاخرى ، ان ذلك العدد من الناس بحثت افراذه عشرات السنين بكل بقوقهم ، لحيرون بان تنكشف نفوسهم عن حقائق عديدة جديدة لا يد وان تؤثر فيهم وتنقلهم من آفانهم الضيقة التي كانوا يعيشون فيها الى آفاق جديدة رحبة سمحة فيصبحوا معها اكثر فاعلية الى التطور والاندلاع الى الامام . ولقد رايانهم فعلا يعودون الى اوطانهم في اوربية الغربية بعد ان حملوا فسر طبقات نفوسهم بذور الحرية الاجتماعية فينحرون من عبودية الاقطاع وتحكيم رجال الدين وكذلك رايانهم ينتقلون في شايادهم آراء ناضجة في الثقافة جعلتهم ينظرون الى الحياة معها نظرة جديدة لم يكونوا يتعودوها من قبل لا هم ولا اكثر مواطنيهم ، فكان لذلك كله اثره البين في تحفية ذلك الانقلاب العظيم في المجتمع والثقافة .

وهذا ما يقر باركر نفسه ببعضه حيث يقول = " واذا لم تكن الحروب الصليبية قد صادفت حظا من التقدم فهي عفي كل حال ، قد زعمت التفريق بين الكتاب المقدس وغير المقدس وبين الدنيوى والدينى وبين الفانى والروحى وادت ايضا الى تحرير غير رجال الدين واطلاقهم من قيودهم وان كوركسة كهذه بعضها مزاج دينى مغاير كل المغايرة للامزجة العادية كانت ، على الرغم من ذلك ، من القوى التي تعما على تقوية الروح المدني وعلى كل حال حال فقد اظهر العلماء استعدادهم للاخذ عن فلاسفة العرب ولشخص ظهرت الروح العلمية ، واستقام امرها بعيد عن الحروب الصليبية غير انها لم تكن لنسنتيهم ان توفق الى اداء اجل واجب كان عليه ان تعمله الا وهو المصالحة والمواءمة بين كلمة ارسطو الدنيوية مع نصوص الانجيا وتعاليم الكنيسة المومى بها الا في جو التفاهم الحسن الذي هاوت الحروب الصليبية على ابحاده (١) ثم يعود

فيقول = لم يقتصر اثر الحروب الصليبية في اوروبا على خلق نوع جديد مسن الاتحاد الداخلي وناثير جديد في مراز حياتها الداخلية المختلفة ولكن اوروبا قد كسبت باستمرار هذه الحروب نظرة جديدة واسعة الى العالم = هذه الدارة الواسعة التي صاحبها نهوض حركة الارثيا والانصراف للاستزادة من المعلومات الجغرافية (٢) .

وهكذا نرى ان الدبار الثامية بفضل الحروب الصليبية قد ساهمت بفسط غير قليل مع صقلية والاندلس في سبيل رفع مستوى اوروبا ودفعها الى يقظتها فنهضتها عليه نبتطبع ان نقرر = ان الغرب قد نتلمذ على الشرق مدة مائتي سنة خلال الحروب الصليبية كما نتلمذ بعض ابناءه على اساطين العلم والفلسفة في جامعات الاندلس ومدارس صقلية من قبل قرن . . والان فلنقدم لنبين هذه الآثار ومداهها في حياة الافرنج بالتفصيل .

المملكة اللاتينية في القدس واثرها في نهضة اوروبا .

رابنا في الفصول السابقة كيف ان آلافا من الافرنج بل مئات الالوف منهم قد توافدوا على الدبار الثامية بقصد لم تكن اكرتتهم تنبين سواء الا وهو انتزاء بيت المقدس من ابدى المسلمين . غير ان هذا الهدف وان حققوه الى امد ، فقد كلفهم من الخسائر الفادحة في الانفس والاموال ما جعلنا نعتبر المشروء معها فائلا من الوجهة العسكرية = وكذا ولكن ظهر لهذه الحروب فيما بعد ، بصورة غير مباشرة ، من النتائج الطيبة ما جعلنا ننسى معها فظاعنل وسوا اثرها المباشر ، ان على العرب او الافرنج على السواء ان اولكنا قد خربت بالنتيجة اكثر مدنهم الساحلية كما هلك مئات الالوف من سكانها فضلا عما ورثته البلاد من التعصب الديني الذمير بل والحقد على ابناء الغرب بسببها . هذا بالاضافة الى العرب واما الافرنج فقد هلك منهم لا اقل من مليون نفس بسبب بعد الثقة وصعوبة المواصلات والغربة في ارض نائية مع تعرضهم لفعوامل الطبيعة كانت ولا شاء ناسية عليهم . ومع ذلك فهذا كله لا بعدد شيئا بالنسبة الى ما جناه القوم من فوائد مادية قيمة ونتائج معنوية لا تقدر . كان لها جميعها الاثر المحمود في تطوهرم الاجتماعي وتقدمهم الفكري .

فما كادت جموع الافرنج تحرز ذلك النصر الموقت حتى استفر بهم المقام في المدن الساحلية وبعض السهول الداخلية واقاموا فيها مملكتهم في القدس وملحقاتها الاربع ثم ما كادوا يشعرون بطيب الهواء واعنداللمناخ وحمال الطبيعة وعظيم التراء حتى ترك ذلك كله في نفوسهم انرا جعلهم مطمئنون الى البلاء والسكنى فيها با وسفيرون نظريتهم الخاطئة (١) الى اهلها ويقدرين ما يتمتعون به من ثقافة عالية واخلاق رضية فراحوا يؤسسون لهم ملكا استطاعوا بحمد كبير وعناء شديد ان يحافظوا عليه مدة مائتي سنة ، عقدوا خلالها الحبيب الانصلاء الاجتماعية مع اهل البلاد واحكموا افضل العلاقات الثقافية معهم ففتح عن ذلك مجتمع حديد فلا هو يرقى بحت ولا هو يرقى وحسب بل فيه من هذا وذاك .

المجتمع في المملكة اللاتينية وملحقاتها

كان قوام هذا المجتمع الحديد خليطا من الاجناس والقوميات واللغات والاديان ما بين غربيين وشرقيين بينهم الفرنسي والانكليزي والابطالي والالمانى كما فيهم العربي والتركي والكردي والارمنى وكذلك نرى بينهم اليهودى والمسلم والنصراني ما بين روم ارثوذكس ولائين وموارنة ونساطرة وسعاقبة او سنى وشيعى ودرزى ونصيرى . هذا مع تفاوت بين في المظهر الاجتماعى والدرجة الثقافية (٢) .

ومع ما كان عليه هذا المجمع من اختلاف وتفاوت وتعدد فقد اخذوا جميعهم بعد فترة الانتقال راغبين مطمئنين لولا غزوات كان يشاد لها من آن لآخر جماعة الاقطاعيين وكملات كان يشادها ارباب الحرب والقتال من خلفوا لها وجبلوا على الحياة بها دفاعا عن كيانهم او حبا بتوسيع مدى التملك .

تلك حال يشهد بها الواقع ان لم تكن تنقضى فترة الانتقال من الفتح الى الاستقرار حتى رابنا كلا من الحائنين يتقرب من الآخر ويسود حبا بينهم ثم غير قلب من روح التفاهم والتساهل (٣) بل سمعنا البعض ممن زاروا البلاد

في ذلك العهد كابن حبير مثلا الرحالة الاندلسي المسلم بحمد ما كان فيه سكان البلاد عامة وابناء ملته خاصة من دعة وامن ورجاء في ظل الادارة الحديدية (١) .

واذا رحننا نوازن بين هذا المظهر الحديد وبين ما كان عليه الصليبيون من مظاهر اللطف والقساوة والحقا في عهدهم الاول فاننا لنعجب جد المحب لذلك التغيير الذي طرا على اخلاقهم وتصرفاتهم فتبدلوا تبديلا .

ولو اصحبنا الى بعض مؤرخيهم رنو في ذلك العهد لسمعنا ما يجعلنا نتردد في الاعتقاد بان بالامكان ان تشهد عن مثل هتولا القوم ما خبرناه من انقلاب فيما بعد . والبك ما انقله عن الراهب النقي روبرت عن سلوكهم ، نورد له الدلالة على سياستهم الحربية قال = " كان قومنا الصليبيون بجويون ، كاللبوات التي خطفت صغارها ، الدوارة والمبادين ، وسالحو البيوت ليرزوا غلبتهم من النفيل ، وكانوا يبقرون بظنون الموتى ليخرجوا منها الذهب فبا للذره . وكانوا يدوسون جنث قتلوا تلك الجماعة الكبرى التي لم يرض احد من افرادها بالنصرانية دينا . هذا في مدينة مارات (كذا) ولعلها المعزة (١) .

اما غروسيه فيبعد ان يورد الخبر نفسه يستدرك فيقول = " لا بد من ان تنقضي ذوات عدة قبل ان يتبدل روح الصليبية (كذا) - وكانوا به قد اذقت من ان نقوا " هذه الوحشية " بالروح الاستعمارية (٢) .

وليس يستغرب ان يبلة مفت الشرقين لهتولا الصليبيين حدا الهيكل عبر عند الشاعر الفارسي الكبير سعدى بقوله " لم يكن اولئك الوحوش من البشر " (٤) وهناك شاهد عدا آخر على تلك الفسوة هو الكاهن انكبنا اذ يقول في مؤلفه = " فلما كان صليبي يسير بوحي ديني . قام بتره اولئك الصليبيون جرائم وحشية ولا ضربا من ضرب السلب والنهب او الفضائم المزرية الا اقتترفوها (٥) وكذل

(١) ابن جبير ص ٢٨٢ - (٢) لوبون - زعير ص ٣٢٥ - (٣) غروسيه ج ١ ص ١٢٣ - (٤) لوبون - زعير ص ٢٥٣ - (٥) نفسه ص ٣٥٧ .

فلا تعجب ان بعزوسان برنار - الداعية الاكبر للحملة الصليبية الثانية
فدلسهم فيها الى ما ارتكبوه من مظالم (١) .

واخبرا فنورد راي اسامة بن منقذ في اخلاق فرسانهم وهو
من بلاهم في السرا والضرا ايضا ان يقول = " لا يرى فيهم سوى بهائم .
امنازوا بصفة الشحافة والقنال لا غير (كذا) كما في البهائم فضيلة القوة والحمل (٢)

والان فما هي العوامل التي جعلت هؤلاء القوم يخلعون عنهم
تلك الغلظة والفظافة والوحشية ليتبدلوا بنلك " السياسة " وذلك الاعتدال في
في ادارة البلاد . . الدواب على ذلك يصح ببساطة متى تذكرنا الروحية التي
انت اكثرينهم بها الى الشرق ليقاقلوا الكفرة والعقبة التي كانوا جميعهم يحملونها
لدى وفودهم الى البلاد المقدسة التي يسكنها عبدة محمد وصنمه " اقول اذا
تذكرنا هذا علمنا ان الدعاة الباطلة لا بد ان ينحلي الحق من ورائها وان
ينقلب مفعولها الى ضدده وهذا ما حصل فعلا مع هؤلاء المساكين الذين سمعت
البابوية افكارهم واخرجتهم عن طبيعتهم الانسانية لتأرب خاصة نيينوا مبلغ الصحة منها
فيما بعد ولاغراض اخفاها بعض امرائهم لكنها ما لبثت ان ظهر حلي امرها . ان انهم
ما كادوا يصلون الى الشرق وهم على اشد ما يكونون تحمسا الى الانتقام بحكم نادر
المخدرات الروحية التي كانوا تحت مفعولها بفضل الدعاوات الباطلة حتى ظهروا بذلك
المظهر البشع الذي صور له لنا كتبهم ومؤرخوا ذلك العصر من غيرهم .

غير انهم ما كادوا يقضون مع سكان البلاد ردها من زمن يتنسم
فيه ربح الحق ويستشفون من تاثير تلك المخدرات حتى تغيرت تلك الروحية اذ وبحو/
وجدوا انفسهم امام شعوب بعيد افرادها رب العالمين لا محمدا ولا صنمه " ونعرفوا
الى اناس يحترمون المرأة وشعفيون من ابدا الشيخ والطفل .

بلى فقد القوا انفسهم وجها الى وجه مع الحق والحقيقة ولا تستبعد
ان تكون بعض الوجوه منهم قد احمرت خجلا لدى اكتشافهم خديعتهم . لذلك
لم يسعهم عندئذ الا ان يتبدلوا روحا غير ما تلبسوا به من روح تعصبي ذميم (٤)

(١٠) لويون زعيم ص ٣٥٧ - (٢) كتاب الاعتبار حتى ص ١٢٢ - (٣) تاريخ العرب -

حتى ص ٦٤٣ - (٤) تراث العرب ص ١٦٦-١٦٧ .

ولم يلبثوا ان نزعوا عنهم عقوبة كانت ترهبهم الشرخبرا والصلاح . هذا ما
حرى بحكم العامل الاجتماعى الذى كما قال غروسيه قد اقتضى له بعض الزمن
قيل ان تم فيهم مفعوله .

ولنا فيما قرره مؤرخهم المنصفون بهذا الصدد الواحد العدل ابنا على
ما قررناه نحن سابقا . فلنسمع ما يجهر به احدهم فوشيه دوشارتر فى مؤلفه
ان يقول فى تاريخ سنة ١١٢٠م - "ها نحن اولاء قد تحولنا الى شرقيين فما
كان منا ايطاليا او فرنسا فى الامر قد اصبح اليوم فى وطنه الجديد حليبا او
فلسطينيا . وكذلك قد تحول ابن مدينة ريمس (Reims) او مدينة (Chartre)
الى صورى او انطاكي . فقد نسي كل منا وطنه الاول فلم يعد احد يتذكره بل
لم يعد احد يتكلم عنه . وقد غدا الواحد منا يملك بيتا وحشا وهو مطمئن حتى
كان قد ورث ذلك بحق قديم له فى البلاد كما ان البعض قد تزوجوا لا بالمواطنات
الغربيات بل بالسوريات او الارمنيات او احيانا بالسلطات بعد ان نعمدن . هكذا
اصبح كل منا بعد فى وسط اسرة وطنية جميلة وانا لنستعمل من آن لآخر اللغات
المحلية المختلفة فاصبح ابن البلد والمهاجر منا من متعددى اللغات . وقد شد
النظام ما بين اكثر الاحبار منا تباعدا حتى صدقت فينا آية التوراة القائلة -
" سباكل الاسد والثور فهو معلف واحد " (Lev. XXV لقعدل) ويكاد الواحد منا
يكون قد تبدل والمهاجر قد تمثل بالمقيم . وفى كل يوم يغدو علينا الاقرباء
والاسدقاء فيفضلون ان يتركوا كل عقاراتهم هناك لينضموا الينا ان اصبح بالحقيقة
الغدير منا غنيا بنعمة الله ومن كان لا يملك سوى درهمات اصبح بنعم هنا بشرة
طائلة ضخمة حتى ان من لم يكن بملك قرية غدا هنا سيدا لمدينة بكاملها . فلم
العودة الى الغرب طالما الشرق يحقق منا الرغبات " (١)

وكذلك لنا على هذا الانقلاب عن القيم شاهد فى كتاب الاعتبار لاسامة
حيث يقول ص ١٣٤ " فكل من هو (من الصليبيين) قرب العهد بالبلاد الفرنجية
اجفى اخلاقا من الذين قد تبدلوا وعادروا المسلمين " .
اذن لقد كان فى " التبدل ومعايشة المسلمين " عامل قوى فى تحويل القيم

وتبدلهم مما كانوا فيه من جفا وخشونة الى ما اصبحوا فيه من دماثة في الاخلاق وانسرباها البلاد وازدياد الثقة فيهم والطائفة اليهم .

هذا مع العلم ان هناك عاملا نفسيا كان له اثره في تلك المظاهرة

الاجتماعية يعنى به ان سكان البلاد كانوا بجمعهم قد فقدوا العزة القومية لكثرة ما تغبر عليهم من حكام واصبح الامر لديهم سببان احكمهم هذا ام ذاك على شرط ان ينعموا بالعدا فيطمانوا الى اموالهم وارواحهم وممارسة دينهم وحقوقهم . وكل من ملوك الافرنج ، على ما ظهر فيما بعد ، مستعدين لان يوفروا لهم ذلك اذا هم اخلدوا الى السكنة وانصرفوا الى اعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية (١) وتركوا القتال لاهل الحرب والنزال . فكان هذا عاملا آخر قد ساعد بالفعل على تقرب الثقة بين الشعبين والعمل على زيادة اسباب التفاهم ولاختلاط بل والنماح ايضا . فلا عجب ان نسمع امير صليبا يقول = " ان القتال بين المسلمين والافرنج انتحار اخوى " وكذلك موقف بعض رجال الدين من الافرنج كفلبم اسقف صور يدل على هذا التبدل الجميل (٢) . (٣)

وهناك فضلا عن هذه العوامل الاجتماعية والسياسية والنفسيات العامل الطبيعي الذي لا يقل اهمية عن سابقه في تعليل هذه الظاهرة اذا كنا نراهم يعشقون بحب ابلاد كما ادهشهم اخلاق اهلها فاما فانسوا بها حتى نسوا بتأثير جمالها ووفرة خيراتها وطيب هوائها اوطانهم الاولى " فلم يعودوا يذكرونها " فما كان منهم الا ان نوطنوها وراحوا يكتفون حبانهم الخاصة والعامة حسب مقتضيات الحال والمناخ فاتخذوا في بناء بيوتهم وقصور الامراء والملوك منهم الطراز العربي المتلائم مع ظروف البلاد فسكنوا البنائيات ذات الاقنعة الفسيحة تحوط بها الغرف والفاعات وتتوسطها " البحرة " يتدفق منها الماء وينطلق من النافورة غالبا فسي الهواء ثم تنتشر ذراته رذاذا يخفف شدة الحرارة ويبعث في النفوس البهجة والسرور كما يشبع في الاجسام البرودة والراحة (٣) . هذا عدا ما اقاموه فيها من آيات الزخرف بتصفيح حدرانها وسقوفها بالرخام والفسيفساء ونموذجها بالذهب والالوان المعدنية الاخرى والمنا .

(١) المستعمرات الافرنجية لبراي ص ١٠٦ - ١٠٧ - (٢) تراث العرب ص ١٦٧ -

(٣) تاريخ العرب - حتى - ص ٦٤٣ - ٦٤٤ .

ثم اتخذوا لبيوتهم وقصورهم من الاثاث ما يتفق معها والروح الشرقية العربية المعروفة بحب الترف فاصطنعوا السجاد والاثافس وزينوها بالرياش الفاخر والمصنوعات الدمشقية والاربعية النحاسية المنمقة والانبية الزجاجية والخزافية المصنوعة في صور (١) هذا وقد اتخذوا لتنويرها الشمع وكثيرا ما كان حسب عادة العرب مضجعا بالطيوب (٢) .

صفا

وكذلك تبدلوا نياهم بملابىر شرفية سابغة واسعة الاكام زاهية الالوان موشاة بالحرائر والتطاريز (٣) . ولعل المرأة كانت اسقى الى مثل هذه المظاهرة من الترف والنعيم من الرجل فانخذت لتزينتها المجوهرات الدمشقية والقاعية وادوات النظرة من المساحية والخضاب كذا انها اجتذبتها المرايا الزجاجية والمرايا بانواعه والاقنعة المصنوعة من وبر الجمل وغيره .

وقد ترك لنا ابن جبير في رحلته صورة حبة لحياة المرأة الافرنجية وما توصلت الى اقتباسه عن اختها العربية في الدبار الثلمية من ادوات النظرة ووسائل النجمل ومظاهر الترف في الملبس قال = "ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث فيها زفاف عروبر . اهدناه بصور في احد الايام عند مينائها وقد احتفل لذلك حميد النصارى رجالا ونساء واصطفوا سقاطين عند باب العروس المهداة والسوقات شرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية حتى خرجت تنهادرى وهي في ابهى

زى وافخر لباس تسحب اذبال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم وعلى راسها عصاة ذهب قد حفت بشبكة ذهب وعلى لبسها مثل ذلك وهي رافلة في حلبها وحللها تمشى فترا في فتر مشى الحمامة او سير الغمامة (٤)

ولم يكف القوم بتعرفون الى اطعمة اهل البلاد حتى احببتهم نكهتها فانقلوا عليها بانواعها واشكالها كالقطائر وغيرها من المعجنات والتمر الهنودى والافاوية والاطياب والبهارات والقطاني كالذرة الشامية . ولعله بحسن الاشارة الى ان بعضهم

(١) تحفة الشرق للغرب - حتى - في الكتاب الذهبي ص ١٤٧ - (٢) المستعمرات

الافرنجية - راي ص ١١ - (٣) تحفة الشرق للغرب في الكتاب الذهبي ص ١٤٦ -

(٤) الرحلة ص ٣٨٨ .

راح بمنع عن اكل الخنازير تشبها بالمسلمين من الشرقيين (١) . ولم يكن ثلثهم اقل ومن ذلك في الشرقيات فاصطنعوا منها المعطرة والمنلجة والحلاة وكذلك بحدتنا احد مؤرخي ذلك العهد منهم = جاك دوفري (Jacques de Vergy) عن تلج لبنان والستعمالهم له في المبردات (٢) .

وقد حذا الفرنجة ايضا حذو الشرقيين في اعيادهم وحفلات لهموم فتشبهوا بهم في اتخاذ جوقات الطرب في محالير الشراب فاستمعوا الى الارغيل والزمارة والعود والقيثارة والربابة وغيرها كالايقاع المصنوعة من قرون الحيوانات (٣) وكذلك فقد استمعوا الى المغنيات في افراحهم كما استدعوا الندابات في المآتم ايضا . هذا وقد اتخذوا لذلك كلد ادواته النحاسية والفضية والذهبية فضلا عن اغنية الموائد من الاقمشة الفاخرة (٤) .

ولعل الصيد كان من اللذ ما يقضون فيه اوقات فراغهم بعد طول القتال والنزاع في ساحات الحرب ولا سيما في اوقات المهادنات اذ كثيرا ما كان الافرنج والامراء من المسلمين يتبادلون الرخص للصيد في الاراضي المحاورة لكل منهم فيحققون الحلقات المشتركة (٥) . وقد اتخذوا له البزاة والصقور والذواهي والكلاب الصلوبة وغيرها (٦) .

واما المباريات الرياضية وحفلات السب عندهم فقد كان فيها من من الخدونة كما بحدتنا بذلك اسامة اذ حضر احداها في طبرية وهات ما يقول "حضرت بطبرية في عيد من اعيادهم (الصلبيين) وقد خرج الفرسان يلعبون بالرمح وخرج معهم عجوزان فانبتان كذا (اوقفوهما في راس البندان وتركوا في راسه الآخر خنزيرا مسطوفا وطرحوه على صخرة) وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهن كذا (سرية من الخيالة يشدون منها والعجائز يقمن ويقمن على كل خطوة وهم يضحكون حتى سبقت واحدة منهن فاخذت ذلك الخنزير في سبقها " (كتاب الاعتبار ص ١٣٨) . اما سباقاتهم على ظهور الخيل فاشبه ما تكون بالعباب الجريد عند

(١) كتاب الاعتبار . اسامة ص ١٤٠ - ١٤١ - (٢) المستعمرات الافرنجية ص ١١ -

(٣) نراث الاسلام - باركر - ص ١٢٣ - (٤) المستعمرات الافرنجية راي ص ١٠ -

(٥) انظر راي ص ٥٥ وحتى في تاريخ العرب ص ٦٤٣ - (٦) كتاب الاعتبار اسامة ص ١٢ ٣ -

الداميين (ترك الاسلام ص ١٦٥) "وكان العرب السوريون بارعين " بالرمابة
والمسابقة واللعب باصول الجة " على قول ابن جببر فاستحسن امرا' الفرنجسة
العابهم الرماضية واخذوا يرتاضون بها وينسجون على منوالهم فيها ولذلك
دخل الحريد وغيره (Gournement) الى اوروية . ولقد حفظ لنا المؤرخون تذكارات
من الاحتفالات التي كان يجتمع فيها فرسان الفرنجة بفرسان المسلمين لبياروهم في
هذه الالعاب تحت سما' سورية " (١) .

وما راق الافرنج كثيرا من نعم الحياة في مجتمعهم الحديد الحامات
فاقبلوا عليها ابدا اقبال وقصدوها في اوقات فراغهم يقضون فيها الساعات طلبا باراخ
فضلا عن الغابة الاولى منها وهي النظافة والظاهران البعض قد افترطوا في ذلك
لدرجة لئنا نسمع جاك دوفترى يحتج على الراعبات لخروجهن من الاديرة مخالقات
بذلك انظمة جانبهن لبذهبن الى الحمامات العامة وحضورها مع عامة الناس ايضا (٢)
وما اكثر ما يسرد علينا اسامة في "كتاب الاعتصار" من احاديث الحمامات وعديد
اخباراته معهم فيها ما جعلنا نهيب بطالب الاستزادة منها في الرجوع اليه
ص ١٣٥ - ١٣٧ .

ولعله لا يتم بحثنا هذا ان لم نخمس المرأة - وهي روح المجتمع -
بكلية تكشف لها عن مكانتها فيه واثرها في اهله . فقد لعبت فيه على ما يظهر
دورا سلبيا اذ اننا نراها قد اقبلت بشره على ما فيه من اسباب الترف والبطر
تاركة جانبها ما كان يحسن بها ان تتزود به من عادات طيبة واخلاقي حميدة وفيما
يحدثنا به مؤرخوهم عنها نفقد لاذع وقدر مقدح . فهذا سان برنار يقول في
تعليل قائلهم في الحملة الثانية ((برجع نصب غير قليل الى انغماسهم في الفسق والفج
والفجور لسبب تسلط النساء وناثيرهن)) (٣) وكذلك يحدثنا غلينم اسقف صور عن
زواج قنسطنر سيدة انطاكية ^{ربيد} دونايتون (R. de Dunaition) وينتيجته السيئلا في
تاريخ امارة انطاكية فحسب بل في تاريخ المحكمة نفسها ايضا اذ انها في سبيله قد
ضحت بكل شيء (٤) هذا بقطع النظر عما كانت تحوكة نساء البلاط من المكائد
بالاشتراك مع رجال الدين في سبيل التحكم بشؤون المملكة (٥)

وكذلك ^{مكتشا} جمننا من مثل ذلك راي (ص ٢٧٢ - ٢٧٣) وما نوسلت به الملكة

الوالدة ماري كومن ارملة امي من وسائل لتفحيط غليم اسقف صور عن بطريركة القدس

(١) تحفة الشرق للغرب - لحتي - في الكتاب الذهبي ص ١٤٤ (٢) المنجمرات الافرنجية
راى ص ٦٢ (٣) حياة صلاح الدين - احمد بيلى - ٢٥٠ - ٢٦ (٤) غروسبه ج ٢ ص ٢٢١

رغبة منها بهرقل رئيس اساقفة قبطية بارغم عما كانت تعلمه عن سوء آدابه .
وهناك قصة زواج الاميرة سبيل وريثة عز الملكة واغرائها بغدوين الابلبنى
صاحب الرملة ثم نكد لها عنه فى سبيل فى اللوزيانى بطل ماساتهم نفسى
حطين (غروسبه ج ٢ ص ٦٨٧)

هذا ويكفينا غروسبه مؤنة الاطالة فى البحث فى الموضوع ان انه
يُسلخ حالة الملكة فى عهد الملك الابرص بغدوين الرابع قبل هبوب العاصفة
فى حطين بقليل ، بما بلى " . بلاط ملكى يبشر بالنزال " ^{وملا} ومرت ذلك تسلط
النساء وتنفذ رجال الحامية الاندال وقد مثل هذا وذاك فى سوء اختبار سبيل
وريتة العرش برفيق بشاركها فى الحكم رغبة منها ^{فى} حمل وحبه مع قبح نفسه
اما اخت الملك الثانية ايزابل فآثرت الزواج برجل ارغن ساقط الهمة نعتي ^{سمعة}
سمعة ^{علا} ولا وكذلك لم تكن الملكة الوالدة آنبار (Agnes) باقل سوءا ان
انها راحت تشارك الحامية فى الكيد ارضاء لشهوة الحكم عندها . ولو ادى
ذلك بالملكة الى الحضيض واخبرا اهدف الى هذا كله ان اكبر رجال الاقطاع
بوهمند الثالث ، سيد انطاكية كان آنذاك يرتضى فى احضان خليلته (Sybille)
التي تنجس عليهم لحساب السلطان صلاح الدين . ولما اراد رجال
الدين تسديدها راج بضطهدهم " (١) .

اما المرأة فى الطبقة الوسطى فلم تكن احسن حالا من سيدتها
" النبيلة " ان بحدثنا مؤرخوهم عما كانت عليه هى ايضا من السفوط ولا سيما فى
ابان وحنتم . من ذلك ما جاء على لسان امبرواز () قوله " هادت
النساء من عكا الى بافا سنة ١١٩١ ورحن بجرون اذ يال الفحور فى تصرفهن
الدائن ان كن يقدن عليها بالمراب والزوارق - وهنا يتاوه مثالما نم بقسول -
" رحماك اللهم امثل هذا السلاح بسنود مبرات الرب " .
وما هو اند دلالة على سفوط القوم اخلاقا ان جنودهم كانت تغادر
الاعمال الترسية فى بافا لترجع الى عكا حيث يقضون مع " البنات " اوقاتهم فى الفسق

والفحور وقد اضطر وقتئذ ريكاردس الى العودة لعكا لينزعه بنفسه هتولا* الصليبيين من المواخير والخمارات (٢) . والغريب في امر هذا المؤرخ الفرنسي الحديث غروسبه انه يرجع ذلك السقوط في اخلاق القوم رجالا ونساء الى تأثير الارق وهو لو فكر وادرك لانصف ان هذه الاخلاق نفسها كانت فيهم منذ عهدهم الاول ففقدوا فيها الان وهذا جاك دوفترى ينكر لنا صورة حبة لمدنية عكا في عهده فيقول = كانت عكا من بين المدن الساحلية مكتظة ببنات الهوى اللاتي يجنين ارباحا بما يلقيهن من خطوة عند رجال الدين والدنيا علو السوا* (٣) ثم يستمر في وصفها فيقول = "نرى الرجال فيها يتناولون نساءهم والزوجات يسمعن رجالهم في سبيها عشاقهن ، فلا غربة اذن ان تختبئ عكا ببيم السموم والحفاير المسممة* ولم يكن امبرواز (Humboldt) باقل لذعا من زميله في نقد الفرنسيين من جنود الحملة الثالثة اذ يقول = "كانوا يقضون لياليهم في الرقص... وبعد معافرتهم بشت الحان حتى الصباح كانوا يغدون الى بيوت الدعارة مع ربيدين محترجين الاثام بالكسبر والتخريب" (٤) .

وقد يحسن ان نورد ايضا ما حاشه اب الهاب الدين في كتاب الرونتين في اخبار الدولتين اذ يقول ص ١٤٩ في تاريخ سنة ١١٩٠ "وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة فرنسية مستحسنة احتمعن من الجزائر (الحزر) وانتدين للجزائر وتغترين لاسعاف الغرباء* وقصدن بخروجهن تسيل انفسهن للايقيا* وانهن لا يمتنعن من العزبا* ، وراين انهن لا يتغترن بطلا بافضل من هذا القربان ، وزعن ان هذه قرية ما فوقها قرية لا سببا فيمن احتمعت فيه غربة وعزبة* ثم يستمر فيقول "وابقى من عسكرنا من الماليت الاغيا* والمدابير الجهلاء* جماعة حذبهم الهوى واتبعوا فن غوى فمنهم من رضى للذة بالذلة ومنهم من ندم علو النزلة فتجبل في النقلة* .

والان كيف يعلل غروسبه ما يجترحه هتولا* النسوة وهن قريسات عهد بالشرق* فهل كسبن ما عندهن من اخلاق في الدبار الثامية ام هي من صفاتهن وصادرات الغرب وجزره* .

ولعل هذا يؤدى بنا الى الكلام عن الفروسية عند هتولا* القوم . لقد راينا سابقا ان بعض المؤرخين يميلون الى رد نشوئها عند هم الى عوائد قديمة عند الحرمان بينما يرى البعض الاخر كالدكتور حنى انها "زهرة لا يذكر احد انها زهت اولا على نربة

سورية ومنها انتقلت الى البلدان الأوروبية . وقد بقيت الفروسية اعواما بنبوها من
بنايع المروءة والشهامة واللفظ في مجمل بلاد الشرق ، لان الفارس كان من اول
واجبائه ان يقسم ببنا نوحب عليه تقوى الله اولا ثم حماية الضعيف ان امرأه او
طفلا ام معدم نائبا . وكما كان صلاح الدين الابوي المثال الاعلى للفروسية
العربية كذلك كان ريكاردوس قلب الاسد ممثل الفروسية الغربية ، وكانت الاقاصيص
والحكايات التي تدولتها الالسن في اوروة كلها مشحونة من صور الابطال المسلمين
الذين امتازوا ببر فقط ببسالتهن بل وشهامتهن وحسن ضيافتهن مع المحافظين
على شرف كلمتهن* و(١) .

وهنا لا بد من التعقيب على ما جاء به الاستاذ العلامة فليبي حتى
اذ انه قد ابان ان الفروسية مع كونها "زهرة زهت اولا في نيرة سورية" فهي ايضا
تقوم على خصلتين اثنتين = (١) البسالة و (٢) الشهامة " فاذا توفرت "السالة"
في ريكاردوس فهل ظهرت في اعماله ونصرفاته "الشهامة" بل ابن كانت المروءة
في تصرفات القوم في عهدهم الاول بالبلاد

البر في هذا برهان قاطع على ان الفروسية عند الفرنج لم تعرف الا
بشرفها الاول فيجال الحروب الصليبية . ثم البر في اصرار الكتبة على الفارس بوجوب
"حلفه البمين بضرورة تقوى الله و....." دليل على ان المروءة لم تكن عندهم
الا بفروخ خارجي لا بشعور داخلي . والفرق بين هذا وذاك عظيم بحسب الانبياء
البر .

(١) تحفة الشرق للغرب لحنى — في الكتاب الذهبي ص ١٤٤ .

الحكومة وهياتها الثلاث الادارية - القضائية - التشريعية

فما ان انتهى دور الفقه حتى خضعت اسر السلكة في القدس ونوزع الامراء الاقطاعات حتى اقتضت مصالح المجتمع "العالمي" الجديد بمن فيه من شرقيين وغربيين قيام حكومة تدبر - بهياتها الثلاث - الادارية والقضائية والعسكرية امور البلاد وترعى مصالح اهليها وترد عنها كرات المسلمين عليها .

غير ان هذا كله لم يتم نهائيا قبل ثلاثة ارباء القرن من الزمن اقتضتها عملية التوفيق والعلامة بين ما جاء به القوم من شكل اقطاعي وبين ما كان من ذلك في البلاد فنزع عن ذلك من الانظمة والقوانين ما كان ارقو مما عرف في اوربية خلال العصور الاوسطى جميعها (١) .

وما نظن نخلل ذلك بحسب ان حاتم محمودات قوانين "المملكة اللاتينية في القدس" وامارة انطاكية وكونتية طرابلس برهانا على صحة ما نزع . ولنا فيما يلي مندوحة عن النسط في اصل تلكم "الدشائير" "اما حقوق الطبقة الوسطى في ملكية الاراضي فكانت حسب القوانين الرومانية التي وحدها الافرنج مطبقة فسي الجبلاد فلم يسعهم الا احترامها واقرارها كما كان سبق للعرب ان فعلوا من قبلهم . هذا مع العلم ان مجموعة القوانين "المختمة بالطبقة الوسطى والتي وصلت اليها قد ورثت من سنة ١١٧٣ وسنة ١١٨٠ وهي تتضمن بالروح الرومانية" .
ومما تحسن الاشارة اليه ان "هذه القوانين نفسها كانت منسبة فسي بلدان اوربية الرئيسية ومع ذلك فكانت تُطبق بحذافيرها في المستعمرات اللاتينية في الشرق" (٢) .

اما فيما يختص بالادارة فكان امرها منوطا بالنائب (Viscount) او البسكند (كما جاء في المراجع العربية) (٣) وكان هذا فضلا عن تراسه "المحكمة العليا" في اقطاعه مسؤولا ايضا عن الامن فيها بمساعدة المحتسب ورجال الشرطة معه .
ومنصب المحتسب هذا عرسي اسلامي وحده الافرنج في البلاد فعملوا به والمحتسب من نصبه الامام او نائبه للنظر في احوال الرعية والكشف عن امورهم ومسالحتهم ومن شرط المحتسب ان يكون مسلما حرا بالغيا قاعلا عادلا قادرا (٤) .

(١) لايفس ص ٢٢٦ ج ١ وانظر ايضا راي ص ١٠٠ وحتي - الكتاب الذهبي ص ١٤٢

(٢) راي ص ١٠٠ - (٣) كتاب الرضا ص ١٤٩ (٤) نظام القربة في اعطام الكتب ص ٧

(١) ومن الأمور المنوطة بمراقبة المحاسب -

(١) الطرقات والأسواق

(٢) الموازين والمكاييل

(٣) نحر الحبوب والدقيق

(٤) الخبازون

(٥) الحزازون

(٦) بائعو اللحم والماء

(٧) بائعو السمك العفلى

(٨) بائعو الزيت والسمن

(٩) بائعو الثرايات

(١٠) معلمو الصبيان

(١١) الأطباء والمجبرون

(١٢) أطباء العيون

ومن المعروف ان لا تختلف وظيفة المحاسب في المستعمرات الافرنجية عن ذلك كثيرا

هذا في الإدارة اما في القضاء فكان هنا محكمتان - محكمة التجارة ونعرف

"بمحكمة القندة او السوة" ومحكمة الملاحة او "محكمة السلسلة" التي تقفل بها الموانئ.

اما الاولى فكان اختصاصها النظر فيما يقوم من قضايا بين التجار وتالف من ستة اعضاء

منهم اربعة سوريون واثنان افرنجيان . وهذه تذكرنا بالمحاكم المختلطة في ايامنا هذه

واما الثانية فكانت تحكم في قضايا البحارة وما يتعلق بالملاحة ومنفعتها .

وكان غير هاتين محكمة اهلية مختصة بالسوريين تسمى "محكمة الرئيس" وهو شيخ

البلد او نائب ^{الشيخنة} الملاحة . وكان اعضاءها واعضاء محكمة التجارة يحكمون حسب قوانين

الإمارة مع مراعاة العرف المحلي وتقاليد اهلها .

غير انه لا بد من الوقوف هنا قليلا حتى نضع صورة لقضاء القم وحكمهم

وذلك للمقارنة بين ما كان عند العرب من ذلك وما كان عند الافرنج منه . فقد

قال اسامة في كتاب الاعتبار ص ١٣٨ - ١٤٠ "وشهدت يوما بتابلر وقد احضروا اثنين

"للمحاكمة" وكان سبب ذلك ان حرامية من المسلمين كبسوا ضبعة من ضباء نابلس .
فأتهموا بها رجلا من الفلاحين وقالوا " هو دل الحرامية على الضبعة " فـسـرب .
فنفذ الملك فقهى اولاده . فعاد اليه وقال = " انصنى . انا ابارز الذى قال عنى
اننى دلت الحرامية على القرية " . فقال الملك لصاحب القرية المقطع = " احضر من
ببارزه " فمضى الى قريته وفيها رجل حداد فآخذه وقال له " ببارز ارفاقا من
المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته . فتأهدت هذا الحداد وهو
شباب قوى الا انه قد انقطع بمشى ويحلس بطلب ما يشربه وذلك الاخر الذى طلب
البراز شيخ الا انه قوى النفس بزجر وهو غير محتفل بالمبارزة . فحاشا البسكند وهو
وحدة البلد فاعطى كل واحد منهما العصا والتمير وجعل الناس حولهم حلقة .
والنبا . فكان الشيخ يلز ذلك الحداد وهو يتناحر حتى يلحظه الى
الحلقة ثم يعود الى الوسط وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم . فقال الامر بينهما
والبسكند بسند حلما وهو يقول بالعجلة . ونفع الحداد اذمانه بضرب المطرقة . واعين
ذلك الحداد فضربه الحداد فوقع ، ووقع عصاه تحت ظهره . فبرك عليه الحداد
بداخل اصابعه فى عينيه ولا يتمكن من كثرة الدم فى عينيه . ثم قام عنه وضرب راسه
بالعصا حتى قتله . فطرحوا فى رقبته فى الوقت حبلا وجروه وشنفوه . وجاء صاحب
الحداد اعطاه غفرانه واركبته خلفه واخذه وانصرف .
تلك طريقة من طرق المحاكمات عندهم تعرف بطريقة السارزة ولهم طريقة
اخرى لا تقل فظافة عن الاولى اوردها اسامة بصدور محاكمتهم لفتى " كانت امه مزوجة
لرجل افرنجي فقتله ومارر الولد بحثا على حجاجهم وشعاونه امه على قتلهم فأتهموه
بذلك وعملوا له حكم الافرنج = جلسوا بنسبة عظيمة وملاوها ما وعرضوا عليها دنانير حبيب .
وتنفوا ذلك منهم وريطوا فى كتافه حبلا ورموه فى البثينة - فان كان سريتا غاص فى
الماء فرفعوه بذلك الحبلا لا يموت فى الماء ، وان كان له الذنب ما يذو فى الماء
فحرس ذلك لما رموه فى الماء ان يغوص فما قدر فوجع عليه حكمهم ، لـنـهـم المـلـك فـكـتـلـوه .
وفى هذين النموذجين عن فقههم وقضائهم ما يجعلنا ندرك السبب فى
" ان الامراك البحرية والنهارية الأوروبية كلها ترجع الى اصول وضعت للمرة الاولى فى
اننا الحروب الصليبية (١)

ولبت الافرنج به تمدون في حروبهم على فرسانهم ومنظماهم العسكرية
المخصصة لذلك كحركة السبتارية وفرقة المعبديين (الداوية) وعلى مجموع السرفندية (١)
حتى اختاروا مع الزمن الى الاستعانة بالبلديين في تعبئة جيشهم فراحوا بذلكون
الخيانة الخفيفة من المسلمين والمسيحيين وقد عرف افرادها بالتركبولي وكان من بينهم
الموارنة الذين كانوا مسلمين طوائف . وكثيرا ما استخدم مثل هؤلاء المرتزقة بعض
الاديرة كدير جبل الطور والمنظمات العسكرية حتى ان ابر طرليلم اتخذ منهم حرسه
الخاص (٢) في النصف الثاني من القرن الثاني عشر .

هذا وكان الافرنج يادى الامر بتفوق الحراب والسهم بدروع ثقيلة مصفحة
كثيرا ما كانت تعبثهم في الحركة وتجعلهم بطيئين في العمل . مما اهاب بهم اخيرا
الى اتخاذ الدروع الخفيفة ذات الزرد واستعمال الخوذ الاسطوانية الشكل المدروسة
بالخوذ الصليبية كذلك المنحنيق والكبوت ووضع اللخام المنفجرة وتركيب البارود والمواد
المفرقة . واعداد النفط المتفد بالماء او ما يعرف عند الاوروبيين "النار اليونانية" .
ومع ان البارود من اختراء الصينيين فان لدينا ما يثبت ان العرب
استعملوه واستنبطوا مركباته للقتال خلال الحروب العلمية وذلك حوالي النصف الثاني
من القرن الثالث عشر والنس في مخطوطة عنوانها = "كتاب التعريف بالامم طليم الشرف" * المطبع
تاليف شهاب الدين ابي العباس احمد بن فضل الله العمري ، حيث نرى اشارات الى
"عقارب البارود المصروية" (التي) امتدت كانها سحاب وهددت كانها رعود واضطربت
كانها حريق وجعلت الكل رمادا (٣) . وكذلك فقد روى المؤرخون الفرنسيون ان
الملك فيليب اوفسطوس قد احرق الاسطول الانكليزي في ميناء دباب بالنيران اليونانية .
وسا ان هذه النار لم يكن لها معاما في فرنسا اذ ذات "قلا بد من ان يكون الملك
المذكور قد طلبها من معاما عكا" كما ورد في الكتاب الذهبي ص ١٤٢ .

وفي منتصف القرن الثالث عشر انتشر بين الافرنج استعمال الاسلحة الثلية
وغيرها من صنع البلاد الشرقية الاخرى فكانوا يبتاعون من دمشق السيوف "الفرنجية" من
صنع اليمن (٤) .

وكذلك نرى ان الافرنج مدة اقامتهم في الدار الدائمة قد استفادوا من
اخبارات العرب في فن الهندسة الحربية فاخذوا عنهم اساليب بناء الحصون والاستحكامات (٥)

(١) لمعني مدة انظار اسامة ص ٦٢ - (٢) الكتاب الذهبي ص ١٤٣ - نفسه - (٣) راي
ص ٢٩ - ٣٠ - (٤) الكتاب الذهبي ١٤٣ راي ٣٨ .

كما حسنوا كثيرا في وسائل الدفاع في اواخر القرن الثاني عشر حتى ان احدث مؤرخي العرب في ذلك العهد يذكر ما كانت عليه " نسي " النصارى الفرنج من الدفة والشدة على جيش صلاح الدين لدى محاصرته طرطوس سنة ١١٨٨ هـ اذ كانت تنقلات الى صفوف المسلمين من ابراج الحصن دون ان يتمكنوا هم من اصابة المدافعين عنه (٢٠) وبذلك يكون الفرنج قد استطاعوا بفضل المهندسين الشاميين والارمن التضلعين من العلوم الدقيقة " ان يصعدوا في النصف الثاني من القرن العشرين الثاني عشر للميلاد المسلمة .

ثم بالبستان الفلاني من بينهم ان اخذوا انفسهم بهذه العلم والفنون حتى انقروها وقد ذكر احد مؤرخيهم انه في سنة ١٢٣٩ استطاع احد مهندسيهم *Anseau de Brie* ان يصنع آلة مذهبة تستعمل في حصار القنطرة في جزيرة قبرص (٢١) ومما اقتنسه الفرنج عن العرب وله علاقة بالكرب اخذ الدار لبلبل وحمام البطاني نهاراً لنقل

الاخبار المستعجلة (٢) او اعطاء شارة الخطر لانقاذ سرمداهم اوجيش مهاجم كما انهم اصطنعوا لانفسهم الحواسيب في ملاطحات الملوك والامراء بواصلونهم بالاخبار سرا . وكثيرا ما كان بعض الاطباء يقومون بمثل هذه المهمة في سبيل اخبر والتفاهم ومن ذلك ايضا اتخانهم الرماة العسكرية في المبادئ الحربية واستخدام الطبل والزمر رغبة في بحث الحماشي قلوب اللغاتين . (٤)

ولا يسعنا الا ان نذكر ابط ما قلد الفرنج به المسلمين من عادة اتخاذ " الرنوك " او الدمار وكبرا ما كانت هذه نرسا بحل شارة الامير او الملك . ويرجع تاريخ هذه الشارات الى القرن الحادي عشر ثم ما لبث ان عم استعمالها وتنوعت اداكها في القرن الثالث عشر (٥) وكذلك اقتدى القوم بالشرقين في الاصطلاح على علائم لتمييز الانساب وبذلك دخل علم هذه العلامات الميزة للاسر المالكة والشرافة الى اوروبا . وكان لهذا تاثير في ترقية الفنون الجميلة وفي الحياة الاجتماعية كما يقول الاسناد الدكتور فليدب حتى .
? صور حقا للنقد كانت قلوب الامراء الغربيين في المقاطعات الافرنجية تبدو غريبة المظهر لم يبن فيها من الفرسان والمناة وهم يروحون ويغدون بالسهم المتنوعة واسلحتهم المختلفة برطانون بلغانهم العديدة ويتميزون باجناسهم المنباعدة .

(١) الكتاب الذهبي ١٤٤٠ ٣٨ راي (٢) راي ص ٣٨ - ٣٩ (٣) الكتاب الذهبي ١٤٤٠ ٤٣ راي (٤) الكتاب الذهبي ١٤٣ ص ٥١ (٥) نفسه ص ١٦

وأما رجال الاقطاعات فكانوا ايضا يحددون في بيوتهم من الحشم والخواص ما يشكّل مع نه الحاحب والكاتب والطبيب حامية ضخمة وكثيرا ما كان هذا الأخير من اهل ابلاد المسيحيين

او المسلمين ام اليهود^(١) مبالا الى اقتفاء الخدم من الغربيين، واهيباء الارقاء من الشرقيين

وذكورا وانانا، يشترينهم عادة من ارمينية ويغلب ان يكون بينهم السودانيون والصودانيات يأتي بهم النخاسون الاحباش الي سوق حدة في الحجاز ثم تنقلهم القوافل الداجية العائدة الي ا من اليمن . هذا فضلا عن انخفاذهن الخصيان لخدمتهن الخاصة فقد نقل عن

الملكة تودور^(٢) ان ارملة يندوسين الثالث انه كان في حاميته منهن عدد غير قليل اصطحبتهن معها عندما عزمت علي الاعتزال في دير القديسة حنة في القدس^(٣) (٢)

الصدقات

ولعل اروع ما يوتر عن حياة العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية تلك الصدقات التي ربطت بين القلوب واحكرودها فحلت حوا من التدعيم وتبادل الاحترام ، حله لنا نعتقد ان الانسان مهما قويت فيه حيوانيته وطغت عليه مطامعه ، فانهما تبنو في نفسه زاوية فيها من اخير والصلاء والحماء بقية تتنذله من غضب المادة وترفعه الى اوج المسو الرواحي .

واهل احمى الصدقات ما عقدت عراها بين قلبي خصمين كاد كل منهما يودي بالاخر لولا ان اكتشف الواحد منهما فحاة في صاحبه انسانية حلالته بغمر عينا من هنائه ليملا .
الاخير بحسانه .

وهنا ابعث الي السلامينذ الي ما نذهب اليه مما نقلته لنا المراحه المختلفه من جبر هذه

هذه الصدقات وهما ما جاء منها في كتاب الاعتبار للأفندي^(٤) اسامة ص ٨١ حيث بنوا متكلما عن نفسه .

كذلك اتردد الي ملك الافرنج قلا الخامس ملك القدس في الصليبيين وبين حماة الدين محمد بن تاج الملوك (امير دمشق وقتئذ) رحمه الله ، ليدكاته للوالد رحمه الله علي يندوسين الملك والد الملكة امرأة الملك فلك الخامس م

وهنا مثلا اخرا لا يقل روعة عن سابقه جاء في صفحة ٩٠ من نفس الكتاب المذكور وذلك

ان هو دوسلين الاول صاحب تل بادر بماغار علي الرقة والقلعة بوهي لنجم الدولة مال بن سالم . فاخذ كل ماعداها وسبق وساق غنائم كثيرة ونزل مقابل القلعة وبينهم افرات .

(١) نفسه ص ٨٤٦ (٢) نفسه ١٠٦

فركب نجم الدولة مالك في زورق وعبر الفرات الى جوسلين وبينهما معرفة قديمة
ولمالك عليه حميل ٠٠٠٠ فقام جوسلين والبقاء واكرمه ورد عليه جميع ما كان اخذه
من الذنائب والسيو .

ودونك مثالا ثالثا يكشف عن ناحية نحن لم نصادفها .

"ثم ملك بغداديين (الثاني) انطاكية . وكان لايرى وعمر (اسامة بتكلم)

عليه حملا كبير حيث كان اسره نور الدين بلك (صاحب منطقة شمال اوزن) ٠٠٠
فحما البنا الى شينزور لينوسط ابي وعمر ٠٠٠٠ بيده فاحسنا اليه . فما ملك (بغداديين
هذا) كانت لصاحب انطاكية علينا ~~قطيعة~~ قطيعة قيمتها اربعة آلاف دينار وضعها
تتكرر سنة ١١١٠) سامحنا بها وصار امرنا في انطاكية نافذا من ٢٠ - ٢ من
كتاب الاعتبار . وناهيت بصدقة اسامة نفسه للداوية وهاك ما بحدثنا هو نفسه
عنها في ص ١٣٤-١٣٥ اذ يقول "فكنت اذا فخلت المسجد الاقصي (في القدس)
وفيه الدوية وهم اصدقائي يخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه ."

واخيرا نختم هذه السلسلة بذكر نفوذ آخر منها يدل على مبلغ ما

ترك عوائد العرب واخذتهم في نفوس البعث من اولئك الافرنج ممن صفت نفوسهم
فانطبعت على صفحتها صورة حبة من فروسية العصر الحيلة . فمن ذلك انني
(اسامة بتكلم) تغدت صاحبها الى انطاكية في شغل . وكان بها الرئيس نادر بن الظ
الصفى وبنو وبينه صداقة . وهو نافذ الحكم في انطاكية ، فقال لصاحبي يوما "فسد
دعائي صديق لي من الفرنج لنجى" معي حتى ترى زهم قال "فمنيت معه . فحشنا
الى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في اول خراج الافرنج . فاحضر
مائدة حسنة وطعاما في غاية النظافة والحدوة . ورتب متوقفا عن الاكل فقال . كل طبيب
النفس فانا ما اكل من طعام الفرنج (كذا) . ولا يدخل داري لحم خنزير . فاكلت .
وانصرفنا . فانا بعد مجازا في السوق وامراة افرنجية تعلقت بي وهي تبرر لسانهم
وما ادرى ما تقول فاجتمع على خلقي من الفرنج فابقت بالهلاك واذا ذلك الفارس قد
اقبل فرأني فجاء فقال لتلك المرأة "ما لك ولهذا المسلم . قال " هذا قتل اخي
غرس () مكان هذا غرس فارسا قتله بعض جنود حماة . فصاح عليها وقال
" هذا الرجل برصاسي (اي تاجر) لا يقاتل ولا يحضر القتال " وصاح على اولئك المجمعين
فنفرتوا واخذ بيدي ومضى . فكان ثابرا تلك المواقلة خلاص من القتل ص ١٤٠ - ١٤١

ولو اردنا ان نسرده اكثر ما لدينا من اخبار هذه الصداقات لطال بنا الامر فنؤثر ان نكتفى بهذا القدر منها مع التنويه بما كان بين ريشار قلب الاسد والملك العادل وما كاد بنم بفضل من زواج بين الملك الابوى واخت الملك الانكليزى (انظر غروسيه ج ٣ ص ٢٨٠) (كتاب الروغبين فى اخبار الدولتين ص ٩٣) هذا ولئن ادت مثل هذه الصداقات التى كانت ما بين سنة ١١٩٢-١٢٤٩ الى نطفة جو العلاقات السياسية والاجتماعية فان لنا فى خلاصة فردريك الثانى ملك صقلية واماطور جرمانية ما بدخا عليها "عنصرا جديدا هو عنصر التفاهم الثقافى" فتكون بذلك قد بلغت منتهى مداها واقصى حد الجمال فيها . وكفى بهذه خانة تعبق بريح الفروسية نفث عندها لننتقل الى موضوع آخر هو موضوع العلاقات الاقتصادية ولعلها لا تفل بانرها واهميتها عن سابقاتها ما ذكرنا ولاحقاتها مما سنذكر فيما بعد من الروابط الثقافية .

الحياة الاقتصادية فى " مملكة القدس " وملحقاتها - الزراعة -

لقد كان المجتمع فى " مملكة القدس " وملحقاتها يتكون كما راينا من طبقة الارستقراطيين الذين منهم الملوك والامراء والفرسان وفى "بد هثولا" جميعهم كما بينا ، سابقا ، الحكم والقضاة والحرب ثم ياتى بعدهم ، اكثية السكان ممن يكدهون فى سبيل العيش واستمرار الحياة من ارباب التجارة والصناعة والزراعة ومن قوام الانتاج فى الدولة وعليهم المحول فى ايام الحرب والسلام . ونريد الان ان ندرس حالة هذه العناصر الثلاثة بادئين بالزراعة منها . فقد كان ارباب الزراعة ، على الدوام ، مؤلفون مجموعهم العنصر السدى الاصل وظلوا على مر الاحبال والقرون وتغالب الغزوات والفاتحين ، يظلون النواة الحية فى الشعب ان فى الحبال والسهول (بطون الودبان ولا عجب ان استمروا يكونون الطبقة المنتجة فى غاروف البلاد المختلفة وعهودها المتباينة اما الاراضى التى كانوا عليها يعملون وفى سبيل اجائها يكدون ، فكانت ملكا لابناء الطبقة الارستقراطية الذين اقطعها لهم السلاطين والملوك والامراء بحكم قباصهم بمهمة الدفاع عنها ضد عدو مهاجم او خصم دفعته مطامعه الى اغتطبها وعلى هذه الصورة نشأت مع الزمن فئة الاقطاعيين الذين كان لهم الحق فى تملك الاراضى بما عليها من قرى ودساكر ومزارع وكان من واجبهم الدفاع عنها وحماية العاملين عليها فى الفلاحة والبذر والصبابة وجنى المحاصيل وهم مجموع المزارعين والفلاحين .

غير ان هذا الشكل من الاقطاع وان لم يات الا فرنج الى البلاد به ، فانهم قد افروه دون ان يزيدوا عليه مما في اقطاعهم من تحسف المتبوع بالتابع اذ ان كل ما يفرضه الواجب على اولئك " الاقنان " الكد في سبل جنى المحاصيل المختلفة واقتسامها مع " السيد " حسب الاتفاق .

وليس هناك من واجبات اخرى تربط به اللهم الا واجبات الولاء والاخلاص ونموينه بما يحتاج اليه من ارزاق يقدمها له رجاله من الخيالة والرحالة ممن يقومون على حماية الاقطاع وارضيه .

وكانت الاقطاعات الكبرى تنقسم الى رصاينة اصغر تتألف منها القرى والديساكر والمزارع . وكان لهؤلاء الفلاحين " الاقنان " في كل قطيعة مرجع اداري هو الرئيس او المختار على لغة اليوم وكان هذا عادة من ابناء الطائفة ذات الاكثريه في القرية او الدسكرة او المزرعة .

تلك كلمة موجزة عن طبقة الفلاحين وعلاقتهم بالارض تلك العلافة التي تجعلهم مرتبطين بها ارتباط جاة وموت . ينتقلون معها بانتقالها من يد الى اخرى دون ان يكون لها سمة العبودية فبسامون مر العذاب . والان فمادا كانت حالة الزراعة في ذلك العهد .

يظهر انه بالرغم مما كان من مواقع حربية وما نتج عنها من تخريبات قد بقيت الزراعة حية نشيطة لم يصبها من التعطيل الا القليل بدليل ما جاء من تلك الاراضي في وصف الرحالة الاندلسي لها ولما عليها من مزارع ومحاصيل حين مروره فيها في اواخر القرن الثاني عشر وهو على طريقه الى بلاده عائدا من الخجاز حيث ادعى فريضة الحج فقد حاصرها (ص ٢٦٨) فوله بشأن مقاطعة الكرك " شاهدنا في هذا الوقت خروج صلاح الدين لمنازلة حصن الكرك وهو سرارة فلسطين وله منظر عظيم الاتساع متصل العمارة بذكر انه انتهى الى اربعمائة فرسة " . وما بلغت النظر الى القوم من افرنج ومسلمين كانت قد سادت بينهم روح من التساهل والتسامح ما جعلهم يعيئون " واهل الحوب مشغولون بحربهم والنار في عافية . . . ولا تعترض (الحرب) الرعايا ولا التجار " فالامن لا يفارقهم في جميع الاحوال سلما او حربا . .

وقد جاء أيضا ص ٢٨٢-٢٨٣ لدى كلامه عن بانبار . وكانت بيد
الافرنج واسترجعها نور الدين قوله * ولها (بانبار) محرش واسع في بطحا متصلة
وعمالها بين الافرنج وبين المسلمين هم يندسوا في الغلة على اسنوا ومواشيهم
مختلطة ولا حيف بحرى بينهم فيها واجتزنا في طريقنا بواد ملتف الاحر واكثر
الرنند بعيد العمق كما كانه الخندق السحيق الهوى تلتقى حافته وتختلف السماء
اعلاه . لو ولجته العساكر لذهبت فيه .

وكذلك كان اولئك الفلاحون من المسلمين على حالة من " الترفه " مع
الافرنج مما يدل على مبلغ ما توصل اليه القوم مع الزمن من " اعتدال في السياسة " .
وحسن تصرف الامور ونفهم صحيح للغاية الحفيظة من الحياة . هناك دليلنا على
ما نذهب اليه ما يورده رحالتنا في ص ٢٨٤ حيث يقول = " ورحلنا عن نينين
وطريقنا كله على شباع متصلة وعمار منتظمة . سكانها كلهم مسلمون وهم مع الافرنج
على حالة ترفه وذلك انهم يؤدون لهم نصف الغلة عن اوان غنمها وحزيرة
على كل رامودينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك ولهم على نمر الكهر
ضريبة خفيفة يؤدونها ايضا ومساكنهم بآيديهم وجميع احوالهم منروكة لهم . "

ولم تكن الحالة في الساحل وسهوله لتقل عما كانت عليه في الداخل
وان في السهول او على الجبال اذ اننا نسمع ابن جبير يقول = " منزلنا بضبعة من
ضباء عكة على مقدار فرسخ ورئيسها (المختار) الناظر فيها من المسلمين تقدم من
حبة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين فاضاف جميع اهل القافلة ضبابة
حفيلة واحضرهم صغيرا وكبيرا في غرفة متسعة بمنزله وانا لهم الوانا من الطعام قدما
لهم فعمهم بتكرمه وكنا فيمن حضر هذه الدعوة " ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

وبعد حديث طويل سوفه الرحالة بصدد عكة وصور يقول " وهاتان
المدنيتان عكة وصور لا يساتين حولهما وانما هما في سيط من الارض افيح متصل بسيف
البحر والفواكه تجلب اليهما من يساتينهما التي بالقرب منها ولهما عمالة متسعة
فالجبال التي تقرب منها معمورة بالضباء ومنها تحنى الثمرات اليهما " ص ٢٩٢

هذا ما جاء عن الزراعة وما افاد منها الافرنج وافادته من رعايتهم
لها ولاهلها في شرق الاردن وفلسطين ولبنان الجنوبي غير انها لم تكن اقل ثانا
من ذلك فيما تفتى من الدبار الثامية . وهذا ما يصرح به رحالتنا حيث يقول هما

بختم بما بين حلب ودمشق = "وقسمين هذه هلى البلدة الشهيرة في الزمان لكنها خربت وعادت كان لم تغن بالامر ولكن قراها عامرة منتظمة لانها على محرت عظيم مد البصر عرضا وطولا ثم اسحدثنا وراينا عن بعين طريفنا كور بلاد المعرة ، وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفسطق وانواع الفواكه . ونضال التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة بومين ، وهي من اخصب بلاد الله واكثرها ارزاقا . ومن وراها جبل لبنان (كذا) وهو حد بين المسامين والفرنج لان وراها انطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم . ص ٢٣٣-٢٣٤ . ودونك ما ما بقوله عن حماه " ويخارج هذه البلدة بسيف عرس قد انتظم اكثره شجرا الاعناب وفيه المزارع والمحارث وفي منظرة اشراج للنمر وانفصل والبساتين متصلة على "الحلي" النهر" ص ٢٣٦ .

تلك كلمة عامة عن الزراعة فلنخصص المحاصيل منها بكلمة ان كانت تلك المحاصيل سببا لثروة ضخمة نتج عنها كركة مناعية تجارية عظيمة . فكم ذل احراجها وغاباتها فبالرغم من المظهر الاجرد الذي يظهر به حبال هذه الدبار الثامنة في اماننا هذه فقد كانت في ذلك العهد تغطيها الغابات الكثيفة وتزينها الاحراج المختلفة . وهذا ما حدثنا به كتيبة ذلك العصر من مؤرخين ورحالين وسواهم ان انهم يشيرون الى ان منطقة انطاكية كانت كثيرة الغابات بل لعلها اكثر من منطقة البلاد احراجا . فالحبلا الاسود وجبال النصيرية كانت تكسوها غابات الارز والاشجار بلوط والفسط الحلبى وكذلك كان بكثرت السنوبر في الجنوب الغربي من مرده . ولما غلبت الصورة قد عناها بقوله ص ٧٨٩ من مؤلفه ١٧ (١) اما حبال عكار فكانت تغطيها فضلا عن السنوبر غابات المرمر وغيره من انواع السندبانة المختلفة . وكذلك حدثنا جاك دوفنري ان حشب المرمر في لبنان كان يعتبر من الخشب الذي لا ينطرق اليه الفساد (٢)

وكانت مدينة بيروت تنعم ابام غلبم المورى بغاباتها السنوبرية وقد ذكرها الادريسي اكبر جغرافى ذلك العصر وحدد سعتها باننى عشر ميلا وهو بذلك غابات الحبال المجاورة لها .

(١) المستعمرات الافرنجية لراى ص ٢٣٦ - (٢) نفسه ص (٣) بيروت تاريخها واثارها ص ٣٣

وسظهر ان مقاطعة الدوف قد لازمها سو الطالع اذ كانت استجارها تنمو

لضربات الفوس وكذلك كان حظ الساحل الممتد بين سور وككة (٢٣٩ راي)

اما احراج جبل الشيخ فكانت تمتد من سفحه حتى بلدة بانباس

وكانت من الانساء والعظمة بحيث عرفها مؤرخوا الافرنج باسم . ()

وكان في بلاد الخليل غابنان احدهما في عرابة والثانية جنوب الناصرة تمتد

من جبل الطور حتى شفا عمرو وقد ورد ذكرها في المراجع اللاتينية تحت لفظ

كما ذكر راي ص ٢٣٩ وهي كذا ايات جنوب تيسارية كان اكثرها من الشاء لوط .

اما في حوار القدم فكان بعض الغابات تمتد بغرب سماس (قبيسة) وعين كاسم .

هذا بشأن الغابات والاحراج واذا ما انتقلنا الى دراسة بقية

الحصولات نتبين ما جاء في قوانين الافرنج ان " تلك المحاصيل كانت تقسم على

الطريقة التالية = حصة تتراو بين الربيع والثلاث تقدم الى " السيد " والباقي

يكون من نصيب الملتزمين . هذا مع العلم ان ابن جبير يقول انهم كانوا ينشيطونها

على السوا اي بالضايفة . اما قائمة الحبوب لذلك العهد فتكاد تكون نفسها

لابامنا هذه وهي القمح والشعير والذرة والارز والدخن والعدس والفول والسمسم

وقد عثر على هذه الاسماء واردة في قائمة " العذرة " الذي كانت تنقاهاء كقبيسة

القيامه لذلك العهد .

ومن المحصولات الزراعية ايضا = القطن والكتان وعروق الصباغين

والزعفران والفضة .

اما بساتين الفاكهة والخضار والمقول فكانت منتحاشها عادة = الرمان

والليمون على انواعه وخاصة منها " الليمون الحلو " الذي كان معروف وفنشد بليمون

انطاكية " والبرتقال والانرج واللوز والسن على انواعه والدراق وغيرها كثير .

وكانوا يعنون ايضا بيزراعة محببات عدة من ثروات الازهار العطرية

كالورد والاكاسية (الطلح) والكشمش والقرنفل والزنبق والريحان والريح والبنفسج

وهرائس النبل والحنه .

وكانت مزارع الزيتون كثيرة وتقع عادة عند اقدام التلال حيث

تتراكم التربة الخصبة الصالحة لانتائها .

ومن **التهذيبات** المزروعات الهامة النخيل الذي كان يكثر في جوار حمص وتدمر كما في **الاوروبيسان** ولعل أشهر منتحاته كانت في **اربحا** . وما كانت تكثر زراعته في ذلك الوادي الموز وقد سماه حاك **دوفترى** "موز الحنة" .
ومن الخضار الشهيرة لذلك العهد البطيخ "الاحمر" وقد شهد ابن البيطار العالم النباتي الشهير ان هذا النوع المجنى منه في صدد كان من احمود الانواع في سورية وما عدا ذلك فقد كان الخبار والفرع والبابا والهلين .

ولقد ذكر الادبسي "البيلة" وندة عنابة القوم بها في وادي الاردن . كما كانت مزارع قصب السكر تكثرها هنا ايضا وقد بلغ من عنابة الافرنج به انهم عفوه من الشربة تضحبا لزراعته فانسعت علو طوا الساحل من طرابلس الى صـ (٢) هذا فضلا عما كان من مزارع له بالقرب من البحر الميت وكان المحصول منه يعرف عند الافرنج "بسكر الكرا والكرويا" .

ولم تكن عنابة القوم بزراعة التوت لنقا عنها بزراعة ما سب ذكره كما اشتهرت مزارع القطن في حوار الاذقية وطرابلس وغيرها .

ولا بحث ان تنمو الكروية ان كانت العناية بها تفوق حد الوصف وذلك لشهرها على انواعه ولعصيرها ايضا . (٣)

ولورحنا الان نقابل بين ما كانت عليه الزراعة في الدار الشاميه وما كانت عليه في الديار الشربة الاوربية في ذلك العهد لراينا الفرق عظميا والبون شاسعا . وهذه الحقيقة نفسها نجعلنا نستنتج ان ما افاده القوم في هذا الحقل بحسب ان يكون متناسبا مع الزمن الذي قضوه في البلاد بحيثكون باهلها وطرق زراعتهم واسبابها وتنقلا مع درجة تآخرهم وتقدم العرب فيها .

وما اتفقه عليه مؤرخو الصليبيين كـ **لبوم الصرى** و **حاك دوفترى** انهم ما كادوا يتعرفون الى السكر وحلاته في اوطانهم الجديدة حتى يادروا الى نقل زراعتة نصه الى بلادهم .

وكذلك فقد نقلوا اللبمون والباليخ والشمش والخوخ والاحار الكثرى ويعود "الفضا" في نقل اشجار الخوخ لاوروبا (لاورنة) الى الكوت دنحو وفي الشمش لمدة طويلة يعرف في اوروبا باسم نمر دمشق .

ومن حملة ما نقل من الحاصلات الزراعية الى اوروى "عن طريق سورية
وهو من اصا هندی او بنی " . التمر الهندی، والافادیه والطبیب والبهارات
واخصها الترقه ، وكذلك من القطن - الذرة الشامية .

ونستطيع ان نفررانهم نقلوا ايضا زراعة السمسم وللخروب والدخن
والارز واللبون والبطيخ والتبغ وذلك بدليل ان اسا بعض هذه المزروعات في بعض
البلدان الاحنية يقرب بلغة من الاصل العربي . اعتبر ذلك في (١)

السمسم وفي الخروب وفي اللبون وفي اوبصل لحقلان .

وما له علاقة بالزراعة " النواعير " والدواليب الهوائية التي لم

تظهر في نورماديا الا في سنة ١١٨٠ وكذلك الدواليب المائية فانها

تنضج باصلها العربي " الناعورة " ولئن وجدت هذه في اوروى قبل الحروب الصليبية
فما لا شك فيه ان القيم عد عادوا من الشرق بنموذج منها وتداول عليه تحسينات
حمة (٢) . وفي هذا كتابه علنا ننقل الان الى درر الصناعة وما كان لهم منها -

(٢) - الصناعة _____ في .

ان بلادا كالدائر الدامية تكون الزراعة فيها على الحالة التي يالهدناها

في الصفحا الصالفة وان مديا تديطا كالداسيين مع ما عرف عنهم من حمية وذوق وحب
للكسب اتوا ان بلادا كهذه ومدويا كمدومها لا بد وان تكون صناعتها نامية متقدمة
وذلك لوفرة المواد الخام فيها وكثرة معادنها بلاضافة الى ما راينا من عديد محاصيلها
الزراعية . ويظهر ان الصناعة بمختلف فروعها قد بقيت من اختصاص العرب واليهود من
بين مدومها ايام الحروب الصليبية .

اما فروعها الكثيرة فنعد منها - صناعة الخزف والزجاج والحلي والنسيج

على انواعه " ومراحنا في دراستها وتنبع حالات تطورها - لذلك العهد - مؤلفات

الصليبيين والشرقيين والنماذج التي خلفتها لنا وحفظتها المتاحف العامة والمجموعات الخاصة ٣

ويحدثنا الادريسي عن حركة صناعية قوية في كل من المدن الانية ذكرها .

سافا ، بيروت ، صور ، دمشق . وقد كانت صناعة الفخار فيها متقدمة بحمل مصنوعاتا وبيع
منتجاتها اما عرفت به من دقة في الصنعة وبها في المظهر لا سيما المطلوبة منها بالبنا .

(١) نرات الاسلام . باركرم ١١٧ - (٢) تاريخ العرب . حتى ص ٦٦٧-٦٦٨ .

(٣) راي ص ٢١١

وكان الخزف الشامي من السلع الهامة في تجارة المستعمرات الافرنجية

ويظهر هذه الحقيقة حلبة من مراجعة "مجموعة قوانين القدس" (١) ويتضح مثل هذا من بنود المعاهدة التي عقدت بين "امارة بيروت" وجمهورية جنوا سنة ١٢٢٣ اذ نال فيها ما يلي = "ان المصنوعات الفخارية المختلفة كانت من السلع البيضاء من الرسوم الحمركية".

اما مداعة الزجاج فكانت من اختصاص اليهود في صوروبانا كما ان صناعة الخزف كانت مما امتازت بها صور ودمشق آنذاك وكانت صارات الاخيرة منهما تحما الى اوروية باسم "فخار دمشق". وكثيرا ما كانت هذه من النوع "القيطاني". (وهو الفخار المطلي بالسنا البديعة الحسن الزاهية الالوان) وشاهد منها حتى اليوم فيما تبقى من قطع احتفظت بها بعض المتاحق والبيوت الكبرى في دمشق وحلب وغيرهما من المدن الشامية الكبرى. ويذكر ان منها قطعة في متحف سفير ولاعب اذا علمنا ان هذه الصناعة الحميلة صناعة الخزف قد بلغت اوج تقدمها في دمشق وابان القرن الثالث عشر وظلت محتفظة بمكانتها في دمشق حتى غزوة التتر للبلاد عندما قضى عليها نيمور بنقله ضاعها الى عاصمته سرفند في مطلع القرن الخامس عشر.

وقد جاء في "معجم الالاث في القرون الوسطى" ما يلي = "وان للقيطانيات الامة اثرها بين في تقدم صناعة الخزف الفرنسية في اواخر القرن الثاني عشر وقد كانت هذه القديانيات نفسها نماذج احتذبت ايضا في جنوبى فرنسة ايضا" (٢). وما يذكر علي سبيل المثال ، صفائح مطلية بالسنا الصفرا والخضراء مزدانة برسم عربية انزلت تلك الصفائح في واجهة بناية بلدية سان انطوان المدينة في القرن الثاني عشر ويلاحظ انها نسخة عن فخار قد استورد عبر البحار وآية ذلك ما فيها من مظاهر الصنعة العربية وما بزخرفها من الخطوط الكوفية مع احتفاظها بطابع القدياني القديم المصنوع اما في الشام او بلاد العجم وما خلفه لنا الادرسى الجغرافى الشهير بشأن مداعة نسج الحرير. وكذلك فان صور وطربالوس وانطاكية وطرطوس قد حازت جميعها شهرة واسعة في الشرق

والغرب بمصنوعاتها الحريرية . وكانت مصنوعات مور على قول الادريسي من افخر الاخوان
فتمتاز بحماليها على غيرها من منتجات الشام وكان مرغوبا بها جدا في الخارج . كما
كانت طرابلس تفاخر ايضا بمنسجاتها المبرقة وقد قدر
لدى زيارته للمدينة سنة ١٢٨٣ ان عدد مصاجي الحرير ووبر الجمل لم يكن يقل عن
اربعة الاف عملا (١) .

وبالرغم من تعدد الحكام على مدينة اناكفة خلال العصور فقد
اخذت - على قول غلبوم الصوري - في عهدها الاسلامي الصناعات الميكانيكية
التي كانت دائما من اختصاص الدارسين من سكانها . دونك ما يلاحظه الادريسي
بشان صناعة الحرير فيها " يصفون في هذه المدينة اقمدة حميلة بالوانها المنسجمة
ومن ابدء منسوجاتها الحريرية المبرقة والديباغ " (٢) .

ومن المنسوجات الفاخرة " المخملية " وهي اقمدة كانت
تصنع في مدن الشام كلها وخاصة في طرابلس وارطوس وكانت على اربعة انواع -
(١) منها ما هو مصنوع من وبر الحمل (٢) او وبر المعز (٣) من صوف الغنم (٤) من الحرير
والظاهر ان هذه المنسوجات كان يرغب بها الاوروبيون كثيرا بدليل ان جوفانبل لدى
زيارته لمدينة طرابلس حاجا كلفه الملك لويس التاسع ان يتناح له كمية كبيرة من
المخام " ليقدمها لبع المؤسسات الدينية " (٣) .

ومن المنسوجات التي كان يطلبها البلديون والافرنج على السواء
البسط والسجاجيد التي دخلت صناعتها الى الشام ومن هنا انتقلت الى فرنسا
في القرن الثاني عشر (٣) .

وهناك عدا ما ذكرنا من الصناعات صناعة الدرويات الروحية
كالجعة التي كانوا يخذونها من الذرة والشعير وكان يصنعها الدارسون والافرنج
ويقدرونها في كتاب الروضتين في تاريخ سنة ١١٢٩ ذكر على قول راي غير نفا لم
نعثر على شيء منه .

ومن الصناعات الهامة صناعة السكر ولقد شاهد الرحالة بورشاردت
سنة ١٨٠٩ في الضر بقبابا معاصر السكر التي يرجع عهدها الى القرون الوسطى

(١) ص ٢١٥ راء - (٢) نفسه ص ٢١٦ - (٣) نفسه ص ٢٢٠-٢٢١ .

وهو نصي حتى أيام رأى بطولاجين السكر . ولقد شاهد رأى كما صرح ص ٢٤٩
قرب اربحا بقايا معصرتين للسكر ولكن الافرنج احتفظوا بالاسم العربي لها وهو معصرة
اما الصابون فقد انتشت المصانع الجديدة لصنعه في انطاكية وطرابلس
وعكة ونابلس وغيرها وكان استعماله قد عم في القرن الثالث عشر واسبحت صناعته
على شرف كبير من الاهمية في المستعمرات الافرنجية حتى انهم اتخذوه له المناحر
الخاصة ايضا (١) .

ومن الصناعات التي احتكرها ايضا اليهود دون سواهم في كل من الانطاكية
وطرابلس والخليل والقدس صناعة الاصباغ وصناعة الدباغة وتحضير الفراء . وكانت صناعة
التعدين ايضا نامية جدا . فان ابن بطوطة يذكر ان بيروت كان " تجلت منها الى ديار
مصر . . . والحديد " (٢) وكان هذا يستخرج من الجبال المحاذية لها . كما ان الادرسي
يمتدح كثيرا جودة الحديد اللباني وصلاحه لصناعة الاسلحة الشهيرة في مدينة دمشق
ولعله من الخير تخصيصه صناعة الزحاج بكلمة ان اشتهرت بها مدن عديدة
منها سور وانطاكية والخليل وارا سلم ودمشق وعكة ويذكر غليم الصوري ان هذه الصناعة قد
ارتقت الى القامة القصوى في القرون الوسطى وان من معاملها خرجت تلك المصاييح البديعة
والاكواب الحصيلة والزجاجات المذهبية والمطلة بالبنا . وتحفظ متاحف اوروبية بنماذج
منها (٣) . وان ننسى فلن ننسى تلك الآنية المعدنية البديعة الحسن بانواعها
واشكالها ويخص بالذكر منها النحاسية . فكم ازادت بها قصر الملوك وبيوت الامراء من
مسلبين وافرنج . ولم يكن ما يصنع منها للافرنج ليحمل رسوما بشرية فحسب بل كان
ينفق عليها ايضا شاهد دنيبة ويحفر على جوانبها حكم واسم اربا بحرف ذهبية مع
احتفاظها بطابعها النصراني .

وهناك صناعة الحلوى التي كانت لها سوق رائجة وخاصة بها في القدس
اذ تشير " قوانين السلطنة " الى ان قيمة الذهب والفضة كانت بحسب تحديد بالمرمكى .
ويقرر السيد فوجيه البجاعة النفقة " ان السرقة قبيحة
اهتم دائما بالحفر في الحجارة وهو يراجع حفر حيوانات لها علاقة بشعار الهلال النبلاء
من الافرنج على حجارة قاسية الى بعض الصناء الشاميين الذين حضروها خصصا
لبعض النبلاء في البلاد المقدسة " (٣)

(١) ص ٢٢٢ رأى رحلته ص ٣٥ - (٢) ص ٢٢٤ رأى - (٣) ص رأى

وكنبرا ما طلب نبلا* الافرنج الى جواهرين من العرب لصبغوا لهم
ما يحتاجون اليه من حلى . هذا فضلا عن آنية كسبية عديدة كانت غنية بما
رصعت به من ذهب وفضة او دق فيها من حجارة كريمة او انزل فيها من اللآلئ
الغالية والعاج النمين ، كانت في الحديقة زينة الكنائس ومهجتها وقد توسع رأى
بهذا الموضوع ص ٢٣٠ - ٢٣٤ في مؤلفه القيم = المستعمرات الافرنجية * .
والان ان الوقت قد حان لاننقل الى درس التجارة وما نشأ
عنها من علاقات وارتباطات كان لها اثرها العظيم في حياة الغرب خاصة .

الحالة الاقتصادية

٣ - التجارة

لم يكن في استطاعة الطبقة الارستقراطية من الملوك والامراء مع وفرة جنودهم
البرية بمن فيها من فرسان ومشاة مهما ارتوا من شحاعة في القتال ودراية فوسفن
الحرب ان يفوزوا بما رموا اليه من فتح لولا المساعدة القيمة التي انهم من جانب
الطبقة البرجوازية - التجار - التي كانت تتمثل برجال الجمهوريات الايطالية الثلاث -
جنوا ، وبيزا والبندقية (١) وغيرها من مدن جنوبي فرنسا كمرسيانية مثلا وغيرها
اذ كانت قد دفعتهم شهوة الكسب (٢) والتوسع التجاري الى المساهمة في ذلك
المشروع الدبني في ظاهرة والسباسبى الحربي في باطنه فحاولوا بيزيدون عليه
العامل الاقتصادي . على انه يجب ان نذكر ان التجارة كانت فيه ابرز من الزراعة
والصناعة اللتين باعتقادنا نمنا فيما بعد بحكم الظروف اما التجارة فكانت الدافع
الحقيقي الاصيل عند هؤلاء المساهمين منذ البدء في الاستيلاء على المرافى والمدن
وذلك بمشاركتهم فعلا في القتال وتزويج الجيوش بالاطعمة والاسلحة جميعها والات
الحصار منها خاصة (٣) .

ثم ما كاد ينتهي الدور الذي لعبوه في فتح انطاكية وطرابلس والقدس (٤)
وبقية المدن والمرافى حتى استقروا في البلاد وساهموا في تنظيمها وادارتها بما
نالوه من امتيازات خولتهم حمة السكى واتخاذ المستودعات والاعفاء من الضرائب (٥)
و (٦) ص ١٢٦ و ١٤٤ هابيد

(١) انظر ص ١٤٥ هابيد - (٢) نفسه ص ١٣١ - (٣) ص ١٣٥ - (٤) ص ١٨٩ راي
و ١٤٧ هابيد - (٥) ص ١٥٨ هابيد - (٦) ص ١٢٦ و ١٤٤ هابيد

وراحوا عندها يقومون بالتوسط بين الشرق والغرب متخذين تلك المرافى الشامية مركزا لصفقاتهم فيشحنون منها ما يبتاعونه فيها من غلال الشرقين الأدنى والأقصى إلى موانئ الغرب في إيطاليا وجنوبي فرنسا (٧) ومن هنالك كانت توزع تلك السلع والبضائع والغلال إلى داخل أوروبا . وشرقا وغربا وشمالا . فنشع عن ذلك كله ان ازدادت حركة التجارة في الشرق (٢) عامة وفي الديار الشامية خاصة زيادة فافت كل ما عرف عنها من اليهود السابقة (٣) ولا عجب فقد تفتحت امامها اعمار واقطار لم يكن للشرق القديم عهد بها .

اما في الغرب فقامت حركة واسعة النطاق (٤) اذ ابقظت في اقاليمه النيام واسالت عندهم اللعاب بلاسنبلا . على نزوات الشرق الضخمة كما فتحت اعين مرمويه على كماليات في الماكل والمشرب والملبس وبقية مرافق الحياة من حربية وفكرية واجتماعية لم يكونوا يعرفونها منها إلى القبل (٥) .

ويحسن بنا ان نشير إلى الطرق التي كانت هذه الحركة تتخذها في الشرق والغرب حتى نقف على الدور الهام الذي كانت تلعبه بعض المدن القديمة والحديثة في التقرب بين اسية وأوروبا وربط شعوبها بروابط ثقافية واجتماعية زادت في دفع الغرب إلى الامام في سبيل التقدم والرفى (٦)

نذكر من المدن الشامية انطاكية ، اذ كانت على اتصال دائم بمدينة حلب وهذه متصلة بالركة وغيرها من مدن الفرات التي كانت مرتبطة بالمدن القائمة على دجلة كالوصا وبغداد فالبصرة على شط العرب . ومن هذه كانت نخر المراكب العرب بحدار الشرق الأقصى إلى /مدينة مدنه ومالكه (٧) .

هذا وكان الاتصال مستمرا بين حلب ودمشق عن طريق حماء وحصى فطرية الحج الشامي المنصل عن طريق مدن الاردن وفلسطين بالحجاز او بمصر . هذان طريقان للقوافل البرية ، اما المراكب والاساطيل فكانت عكة وصور وبيروت بين اهم المراسى لها في تلك الحركة التجارية الكبرى بحرا . وقد ترك لنا الرحالة الاندلسي ابن جبير شارة إلى ما كانت عليه تلك التجارة فقال ص ٢١٠ - " وقبض

(١) ص ٣١٢ هابيد - (٢) انظر ص ١٩١-١٩٥ راي - (٣) انظر ص ١٨٩ راي -

(٤) نفسه ص ١٩٣ - (٥) ايضا ص ١٩٠ (٦) نفسه ص ١٩٢ - (٧) ص ١٩١ ٢٠٢٠

الله لهم (الاسرى المغاربة) بدمشق رجلين من مياسير التجار وكرائهم واغنيائهم
المغمسين في النرا* احدهما يعرف بنصرين قوام والثاني بايى الدرباقوت
ونحارتهما كلها بهذا الساحل الافرنجى ولا ذكر فيه لسراهما ولهما الامناء من
المغاربيين فالقوافل صادرة واردة بينضائعهما ومانهما في الغنى كبير وقدرهما عند
امراء المسلمين والافرنجيين خطير . . . وهو ايضا يشير الى حركة القوافل المستمرة
بين عكة ودمشق فقول ص ٢٨٠-٢٨٢ = " ان قوافل المسلمين تخرج الى بلاده
الافرنج وسيبهم يدخل الى بلاد المسلمين وخرجنا (ابن حبير في القافلة)
الى بلاد الافرنج وسيبهم بدخا بلاد المسلمين . . . والاصباء والعقابر والتوابل
والخزف المبنى والسجاجيد والابسطة والفرا . . . ومن المرافى الثامبة كانت تنقل
السهارات والطبوب والاصياء والعقابر والتوابل والخزف والسجاجيد والابسطة والفرا*
وغرها من محاصيل الشرق والديار الثامبة ومنحاتها الصناعية الى الغرب (١) حيث
توزع عن طريق البندقية فمر برنر الى كولونيا في الداخل حيث المرافى* النهرية
على الرين والموانى* على بحر الشمال (٢) وكانت "تزدحم المدن والشركات التجارية
في القرون الوسطى على طول هذا الطريق مع لومارد باعلى امتداد نهر الرين
هذا ولم تكن تلك الحركة لتستمر بدون امتداد المنافسة بين القائمين
بها من جنوبيين وبيزيين وبندقيين وفرنسيين من الجنوب (٣) ان كان التابق بينهم
على امداء في اكتساب رضى حكومات الافرنج في مستعمراتهم وعقد المعاهدات
معهم طلبا لاحتكار نفا الحبوب والسلع والبضائع براكبهم هم دون سواهم . وهكذا
ظلت التجارة تسير حالة الحكومات الافرنجية قوة وضعفا حتى اذا ما انقضى العهد
الاول وختم بكارثة حطين سنة ١١٨٧ تآثرت الحالة التجارية واخذت تعمل فيها
عوامل الضعف كما اثرت فيها اسباب القوة من قبل .

اجل كانت تجارة الافرنج في عهدها الاول سنة ١٠٩٧-١١٨٧ تنقسم
باطراد حتى غدا اربابها ذوي نفوذ سياسى قوى دفعهم الى التدخل في شئون

(١) ص ١٣٧ هايد - (٢) نراث الاسلام ص ١١٨ - ص ١٩١ راي - (٣) ص ١٤٢ هايد

و ١٤٧ - (٤) ص هايد .

الحكومات أولا ثم في المنازعات ثانيا مما أدى بالنجارة الى البوار بسبب كثرة الحروب فكان لابد وان تنفخ الحركة النجارية وتتركز في عكس التوجه الذي اتبعه السلاطين من النصارى والافرنج وتحدد وفود الحالات الأوروبية فكان بينها = الفرنسي والانكليزي والابيطالي والاساني احيرا . وراحت جميعها تتخذ السبيل الى التنافس مما اعاد الى النجارة بعض نشاطها السابق واتساعها ايضا فظهرت عندئذ حور ثم بيروت وطرابلس على المسرح من جديد .

ومما يلاحظ في العهد هذا تدمير السلطات الافرنجية من قناصل الحالات = وكلاء النجارة = وامتيازاتهم فاخذت تفلت منها شيئا فشيئا وكذلك راحت تزيد الرسوم الحمركية على البضائع المصدرة من بلاد " الكفرة " المسلمين ثم ما لبثت المنازعات ان تزدورقتهما من جديد بين الدراكات النجارية فكان في ذلك ثالث الاصابات وكان وباله على جميع الافرنج دون او يوفى النجار انفسهم غير ان بعد العلاقات الاقتصادية كانت تربط بين العرب وبعض المدن الشامية كدمشق وحلب كما ان بيروت ما عمت ان امتدادات مكانتها واتصالها بالعرب والشرق حتى غدت احدى المراكز التي كانت اساطيل الافرنج تقصدها .

غير ان هذه الحالة لم تدم طويلا اذ ما كاد القرن الثالث عشر يشارف نهائيه حتى رانا المسلمين بقيادة بعض السلاطين الممالكة امثال بيرس وفلاون والامرف خلبا يقضون الخلاف والنزاع بين الافرنج من تجار ومنظمات وسلطات فاحجزا علمهم . تلك كلمة محملة من النجارة واربابها في الديار الشامية ابان عهد الصليبيين فيها فتر الان ماذا نشأ بفضلها من علاقات وارتباطات بين العرب والافرنج في تلك الاثناء .

فمن ملحقات النجارة النظام الحمركي والرسوم التي تتقاضاها الحكومات المختلفة عند دخول القوافل المدينة والخروج منها بالبضائع المختلفة والغلال والمصنوعات وقد ترك لنا ابن جرير صورة حية لما كان يحدث في مثل هذه الظروف المنطقية بالحوا ومعاملاته لا ياب من ابرادها قال ص ٢٨٥ " وصحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور وهو الثامن عشر لستمبر مدينة عكا ودخلنا الى الديوان (دائرة حمركية) وهو خان معد لنزول القافلة وامام بابيه مصاحب مفروقة فيها كتاب الديوان (لموظفون) من النصارى بمحابر الابنوير المذهبة الحلبي وهم يكسون بالعربية ويتكلمون بها ورؤسهم

صاحب الديوان والضام له يعرف بالصاحب لقب وقع عليه لمكانة من الخطة وهم معروفون به كل محتشم متعبد عندهم من غير الحند ، وكل ما بجو* عندهم راجع الي النمان . وثمان هذا الديوان بمال عظيم فانزل التحاررحالهم به ونزلوا في اعلاه وطالب رجا . " من لا سلعة له " لثلا يحنوي على سلعة مخبوءة فيه واطلق سلاله فتزا حيث ثما* ، وكا ذلك بوفرة ونوادة دون تعنيف ولا حمل " . واذا نالنا ما حاء* في وصف الرحالة الاندلسي رابنا صورة مصدرة عما يحصل في لي مركز للحجر عند الحدود . اما الرسوم المفروضة في المواني* فكانت تسمى " رسم السلسلة " وتدل ضخامتها على مبلغ تقدم التجارة ووفرة ارباحها .

اما المراكز الحمركية فتسمى منها = الدورم عند الحدود المصرية والحسر الحديدى بين انطاكية وحلب وكذلك عند حصن المرقب حيث شاهد راي في القرن الماضي بقايا برج السبع (١) .

اما مقدار ما وصلت اليه ثروات القوم (٢) فبحسن بنا لتقديرها الاستعاء الي احد مؤرخيهم حيث يقول = " ان اكبر مغرب العملة للامارات الافرنجية انما كانت في صور وهكة وطرابلس وانطاكية حيث كانوا يستكون النقود كادبنار الاصمعي تقليدا للدنار الفاطمي وما لبث هذا الدنار ان حمل الشعار النصراني بالاحرف العربية وكان البندقيون هم السابقين الي ذلك في صور لذلك فقد عرف دبنارهم " بالدنار السوري " وقد كان الثوام والصرافيون يتعاملون به تسهيلا لصفقاتهم التجارية وكان منتشر النفاذ اول في جميع اسواق النزة . ولعل هذا كان اول عهد الاروبيين بالنقود الذهبية .

هذا وكان الابطالبيون مع مثلثتي الداوية والسبتارية اصحاب اكبر المصارف المالية في عكة وقبسارية وطرابلس . وفي القرن الثاني عشر استعمل البندكتيون " الاوراء النقدية " في المدن الساحلية من الدبار الزامية (٣) . وكانت المدن الافرنجية في هذه الدبار تشتمل على ما يسمونه " الفندق " وهو نوع من " البورصة " كان يحتجع النجار فيه للتداول بشئو* ونهم التجارة والمالية .

(١) انظر ص ٢٥٩ راي المستعمرات الافرنجية - (٢) ايضا ص ٢٦٣ - (٣) ايضا ص ٢٦٥

وفى ذل العهد اقيم مثل تلك البضايك فى المدن الغربية وقد شاهد را. بقبابا
احداها فى مدينة مابنر وفى مدن اخرى على محرى الرين وفى غيرها من المدن
حيث تعرف باسم "المورصة" (١٩١٠ راء) .

وكذلك كانت المراكز الحركية امكنة يجتمع فيها التجار احبانا لمثل
هذه الاعمال المار ذكرها .

وقد كان للتجار ا لافرنج كالسندفيين والبيزيين والجنوبيين
والمرسيليين فى المدن الشمالية عدا المساكن والمخازن "خانات" لبدء بضائعهم فيها .
كما انه كان للتجار العرب القادمين من المال المسلمة لمدة قصيرة فى المدن الافرنجية
"خانا" بقبمون فيها وهذا ما بصر به ابن جبير وهذه الخانات كانت اشبه بـ "بخان"
اسعد باشا فى دمشق وخان انطون بك فى بيروت او خان الفرنسيين فى صيدا وخان
الخلبا فى القدس .

ويظهر ان "الصرافة" كانت من اختصاص الابطالبيين واليهود
فكانوا يواصلون البيوتات التجارية والمصارف الكبرى فى جنوا والبندقية وفلورنسة وبيزا .
وكانت اوراقها جميعها "مقولة" فى الاسواق التجارية الكبرى على السواحل الشمالية
واخيرا لم يبق تموتلك التجارة بعد طرد الصليبيين من آسية
بل عقد اكثر جمهوريات ايطاليا مع امراء المسلمين معاهدات تجارية وكانت صلات
البندقية التجارية الوثيقة بالعمرة سبب عظمتها حتى الطرد تقدم تلك التجارة مع الزمن
ولم يضعف امرها الا بعد اكتشاف الطرق البحرية الجديدة وانتقال زمامها الى ابد
اخرى (١) .

بهذا نكتفى فى الناحية الاقتصادية - الزراعة والصناعة والتجارة
لنتقدم الان لدرس الحالة الفكرية .

الحالة الفكرية في الديار الشامية وما انفاد الافرنج منها ابــــــان

الحروب الصليبية

رابنا في صفحات سابقة ان قد شهدت الديار الشامية عتبة الحروب الصليبية حركة علمية مباركة كانت تتحلى في مدارس مدنها الكبرى كاستطاكبة وطرابلس والقدم ودمشق الا ان هجمات الافرنج في اواخر القرن الحادى عشر قد خمدت من قوتها وان لم نستطع ان نطفو حذونها ويكفى ان نذكر ما اقترحه القوم في طرابلس من ^{طما} ~~الحكم~~ مكبتها الكبرى الى النيران حتى يحز الالم في نفوسنا ونذكر ذلك الاثر السيء الذى تركه تلك الحروب في مستهلها على الحركة الفكرية عامة والعلمية منها خاصة غير ان الامور ما لبثت ان تغيرت بعد ان استقر القوم في ملكتهم وملحقاتها ولم لهم الاتصال بالشاميين في الساحل والداخل فاخذوا عندها بتذوق ما عند العرب من آيات العلم والفن والادب فتنطورت نظريتهم وهذات نورتهم وراحوا بتقليد ما عند الاهالى من مظاهر الاجتماعية كما رابنا وانظمة ادارية وعناصر فكرية ١ وهذا ما يصوره لنا كتاب العصر من افرنج وعرب قداما ومحدثين ١ / ومن ذلك ما بلى = " لقد انتشرت معارف الشرف في الغرب بصورة خاصة من طريق الحروب الصليبية تلك التى استمرت منذ القرن الحادى عشر حتى الرابع عشر تقريبا فجمع بين المتحاربين والتجار من الافرنج ضد نصرم شمركيين " (١) ولذلك برهاننا آخر على ما قررناه = " نحن نجد بين فرنجة فلسطين اول انطلا ل دائم للعناصر الشرقية والخربية في اغلب ميادين التقدم الثقافى (٢) لذلك يجب اعتبار تاريخ الحروب الصليبية فضلا في تاريخ الحضارة في الغرب اكثر من اعتبارها حركة اريد منها توسع السلطان الغرب او نشر لديانته في الشرق (٣) وقد ظهر في المجتمع الافرنجى الشاب الجديد ثقافة كانت في اكثر عناصرها جديدة تفوق اية ثقافة اخرى في ذلك العهد وكانت تحمل بين طياتها بذور النهضة (٤) وكانت التجارة من العوامل التى جعلت بعض الثقافة في الديار الشامية تنسرب الى اوربية بحكم الواقع واتصال الافرنج بالمسلمين (٥) ولذلك تكون الحروب الصليبية قد قامت مقام التعليم الحر لاوربية (٦)

(١) هـ.ل. سافاج - تراث العرب ص ١٩٩ - (٢) تراث الاسلام ص ١٠٢ - (٣) باركر في تراث الاسلام ص ٩٨ - (٤) لامونت تراث العرب ص ١٦١ - (٥) حتى تاريخ العرب ص ٢٦٢ - (٦) رومنم مقدمة لتاريخ غربى اوربية ص ٢٠٠ - (٧) راس في المستعمرات الفرنجية ص ١٧١

فلم يستطع النبلاء من الافرنج اذن ان يفتقوا بنحوة من الانحراف بهذا
النبار القوي للحركة العلمية فراحوا بادى "ذى بد" بحيون من منالها جميعا وخاصة
من الشرائع وانظمة (١) فنبغ منهم >قوفيون عدة نسبو منهم = بوخنا الابلاني وحيبرار
المونريالي و... ثم ما لبثوا ان تقدموا من الحركة العلمية فراحوا بساهمون فيها
وقد انتسحت عند العرب في سورية ومصر خلال القرن الثاني عشر وقد كان للسريان
بحكم الرابطة الدينية - اكبر الفضل في تعريف الافرنج بطلا الحركة الثقافية ولا عكس
فقد كانوا من قبل >فظننا ومذيعيها و... الاب لاضر بعض السريان الذين قصدوا
الى اوربية واستقروا في بلاطات بعض الملوك كما كان البعض الاخر منهم يتوسطون
بين العلماء من العرب والافرنج .

وكذلك فهدى باركر تحسبا " ان الحروب الصليبية قد اسدت
للافرنج منافع اكبر بفضل اتصالهم بالقسطنطينية مما اسدت لهم بانظلمهم بالمسلمين
في الشرق (٢) بدون اى دليل يورده .

ومما جاء في كتاب فيليب النافاري عن ابن رينو صاحب مبدأ " انه
كان متعمقا في مدارف زمانه " كما يذكر غلبم الصوري " ان جيوفري رئيس "هيكال السبد"
كان من المتفصلين من علوم الرزم في الشرق بل كان احد مشاهيرهم الكار فيها (٣)
اما المدارس التي كانت شائعة اذ ذاك فلا بأس ان نعتبرها من نوع
المدارس التي عرفها رينان بالمدارس العربية-المسيحية (٤) وليس غريبا ان نعدد بد
التدريس للفلسفة المشائية في جامعة باريس ثم بين سنتي ١٢٢٠ و ١٢٢٥ م كما جاء
لحوردان مؤلف كتاب "مترجمو ارسطو" .

وجاء للمؤرخ العربي المعروف بالغزويني " ان العلماء والعرب من الدارسين
في القرن الثالث عشر كثيرا ما كانوا يستشارون من قبل الافرنج في قضايا تتعلق في الطب
والفلسفة والرياضيات (٥) .

وتدور مسائل عن اللغة او اللغات التي كانت شائعة اذ ذاك - في ملكة القدر
وملحقاتها فالاب لامن يقول بهذا الصدد = " لقد كانت اللغات من اكثر بحوث

(١) راي في المستعرات الفرنجية ص ١٦٦-١٦٨ - (٢) نوات الاسلام ص ١١٠ (٣) راي ص
١٢٢ - (٤) نفسه ١٦٨ - (٥) ايضا ص ١٧٣ - (٦) ص ٢٦١ من "سورية تحفة تاريخي ج ١

بحيث اشتملت على جميع لغات اوروبا الغربية والاقطار الجنوبية وبعدها منها (١)
اللاتينية . وكانت لغة الكنيسة والدولة اجمالا . (٢) الفرنسية . لغة البارونات العامة
(٣) الايطالية . لغة التجار والتجار المحتردين في المرافى . (٤) وكان الكثيرون من
سادة الاقطاع - فضلا عن المولدين - قد اتقنوا اللغة العربية وذلك للتفاهم مع
الأتباع من البالدوين وللادارة والتجارة . ولعل - اذا - الاختلاط بين مختلف اللغات
قد احدث تبادلا للكلمات بينها اذ اننا حتى اليوم نجد كثيرا من الكلمات العربية
في اللغات الاجنبية فو غربي اوروبا تشهد بقيام الحروب الصليبية منها ما يتعلق
بالتجارة والملاحة ومنها ما يختص بالفنون والصناعات والعلم (١)
ومن اقبلوا على دراسة اللغة العربية والاطلاع على تاريخ العرب
من الافرنج رينو الصبداني (٢) وبفقدنا بها الدين ايضا بقوله " وكان يعرف
العربية وعنده اطلاع على شئ من التواريخ وبلغني انه كان عنده مسلم يقرأ له
ويقفه وكان حسن المجاورة ومناوبا في كلامه . ومنهم ايضا الامير همفري سيد
تنبين اذ كان ترجمان رشار الى الملك العادل في المفاوضات التي دارت بينهما
قرب ارسون ثم قرب باقا سنة ١١٩٢ م وقد قام بنصر المهمة ايضا بلدوين الابلسني
للقدس لويبر التاسع في ايام اسره في مصر (٤) .
وكذلك اقبل بعض الشاميين على التسلمع من اللاتينية " ومنهم الحكم
ناذرى الباطالي البعقوبي النحلة فقد احكم اللغة السريانية واللاتينية بانطاكية وشدا بها
شبا من علم الاوائل " (٥)

ومن اثار الحروب الصليبية في هذا الحقل " ان دراسة اللغات الشرقية
قد بدأت مع البعثات النصرانية الى الشرق وان المبشر راي ^{سلكه بسلكهم} بونيفاس ^{بوسلوكهم} قد جعل المجتمع
الدينى في فيينه بفتح ست مدارس لتعليم اللغات الشرقية في اوروبا سنة ١٣١١ م .
وكان للاداب الغربية تاثيرها في بعضهم حتى استوحاها بعض شعرائهم
وكتابهم (٧) ودلبلنا على ذلك ان بعض شخصيات الصليبيين كفودفروا وتاكرد قد انخلت

(١) باركر تراث الاسلام ص ١١١ - ١١٢ / غروسب (٢) غروسب تاريخ الحروب الصليبية
ومملكة القدس الافرنجية ص ٨٣٣ ج ٣ - (٣) سيرة صلاح الدين ص ٨٠ - (٤) راي
المستعمرات الافرنجية ص ١٧٢ - ١٧٣ - (٥) ابن العسرى . مختصر الدول ص ٤٧٧ -
(٦) باركر تراث الاسلام ص ١٢٤ - ١٢٥ - (٧) لويون حضارة العرب ص ٣٦٧ .

موضوعات قصص للشعراء الحوالين الذين كانوا يشتغلون بين قصر وآخر من قصور الملوك والامراء وكما اخصب التوسع في المعارف الفكر العلمى عندهم كذلك اثر في الخيال الشعري ايضا (١) فما لا شك فيه ان اسطورة "الكاس المقدسة" تتضمن عناصر ترجع بلا ريب الى اصل سامي ، اذ لا بد وان يكون الصليبيون قد سمعوا بعد قصص الف لبله ولبلة او كليلو لملود منقها شيئا فان حكاية السنجاب للتشوسر Chanson من حكايات الف لبله ولبلة وكذلك فقد اعتبر بوكاشيو من مراجع سماعة * الحكايات الشرقية التي تضمنها كتابه Decamerion^(٢)

ومما بلغت النظر توسعهم في الشعر بسبب الحروب الصليبية فان قصائد جديدة عديدة نظمت في تاريخ الصليبيين كقصيدة كبرواز الانكليزية التي تصف لنا الحملة الثالثة وقصيدة اغنية انطاكية (Chanson d'Antioche^(٣))

وسرعان ما استحال قضية الحروب الصليبية في الغرب من تاريخ الى اسطورة وذلك منذ مسنهل تلك الحروب وقد تمتل في "اغنية الضعفاء"

سنة ١١٣٠ م . . . Chanson de Chetiv

واذا انتقلنا من الاداب الى التاريخ رابنا ان هذه الحروب

الصليبية قد خلفت لنا مد المعالومات منه طائفة كبيرة . ومن بين مؤرخيها من

الفرنسيين ذلك النورماندي الذي لم يشأ ان يسم كتابه "حركة الفرنج" باسمه فوصف

لنا فيه الحملة الاولى (٥) وكذلك فوشيه ده شارتر de Chartres صاحب كتاب H. Hurodyngue

ويصف فيه تاريخ ملكة القدس حتى سنة ١١٥٧ م . ولضنا بناسين غليوم الصري وسعنه

الطرابلسي وكلاهما ولدا وتربيا في البلاد الشامية . اما الاول فله "تاريخ فيما وراء"

البحار" H. Hurodyngue وهو ٢٣ مجلدا تناول فيه الحوادث حتى سنة ١١٨٣ م .

وقد اصبح هذا الكتاب بعد ترجمته الى الفرنسية اهم مرجع لقصة الحروب الصليبية

ولم يهتم صاحبنا بتاريخ الافرنج بحسب بل ألف ايضا تاريخ "الامراء المسلمين منذ ظهور

النبي *

(١) الامميين / سلوية / ٢٢١ / ٢٢٢ / ٢٢٣ / ٢٢٤ / ٢٢٥ / ٢٢٦ / ٢٢٧ / ٢٢٨ / ٢٢٩ / ٢٣٠ / ٢٣١ / ٢٣٢ / ٢٣٣ / ٢٣٤ / ٢٣٥ / ٢٣٦ / ٢٣٧ / ٢٣٨ / ٢٣٩ / ٢٤٠ / ٢٤١ / ٢٤٢ / ٢٤٣ / ٢٤٤ / ٢٤٥ / ٢٤٦ / ٢٤٧ / ٢٤٨ / ٢٤٩ / ٢٥٠ / ٢٥١ / ٢٥٢ / ٢٥٣ / ٢٥٤ / ٢٥٥ / ٢٥٦ / ٢٥٧ / ٢٥٨ / ٢٥٩ / ٢٦٠ / ٢٦١ / ٢٦٢ / ٢٦٣ / ٢٦٤ / ٢٦٥ / ٢٦٦ / ٢٦٧ / ٢٦٨ / ٢٦٩ / ٢٧٠ / ٢٧١ / ٢٧٢ / ٢٧٣ / ٢٧٤ / ٢٧٥ / ٢٧٦ / ٢٧٧ / ٢٧٨ / ٢٧٩ / ٢٨٠ / ٢٨١ / ٢٨٢ / ٢٨٣ / ٢٨٤ / ٢٨٥ / ٢٨٦ / ٢٨٧ / ٢٨٨ / ٢٨٩ / ٢٩٠ / ٢٩١ / ٢٩٢ / ٢٩٣ / ٢٩٤ / ٢٩٥ / ٢٩٦ / ٢٩٧ / ٢٩٨ / ٢٩٩ / ٣٠٠ / ٣٠١ / ٣٠٢ / ٣٠٣ / ٣٠٤ / ٣٠٥ / ٣٠٦ / ٣٠٧ / ٣٠٨ / ٣٠٩ / ٣١٠ / ٣١١ / ٣١٢ / ٣١٣ / ٣١٤ / ٣١٥ / ٣١٦ / ٣١٧ / ٣١٨ / ٣١٩ / ٣٢٠ / ٣٢١ / ٣٢٢ / ٣٢٣ / ٣٢٤ / ٣٢٥ / ٣٢٦ / ٣٢٧ / ٣٢٨ / ٣٢٩ / ٣٣٠ / ٣٣١ / ٣٣٢ / ٣٣٣ / ٣٣٤ / ٣٣٥ / ٣٣٦ / ٣٣٧ / ٣٣٨ / ٣٣٩ / ٣٤٠ / ٣٤١ / ٣٤٢ / ٣٤٣ / ٣٤٤ / ٣٤٥ / ٣٤٦ / ٣٤٧ / ٣٤٨ / ٣٤٩ / ٣٥٠ / ٣٥١ / ٣٥٢ / ٣٥٣ / ٣٥٤ / ٣٥٥ / ٣٥٦ / ٣٥٧ / ٣٥٨ / ٣٥٩ / ٣٦٠ / ٣٦١ / ٣٦٢ / ٣٦٣ / ٣٦٤ / ٣٦٥ / ٣٦٦ / ٣٦٧ / ٣٦٨ / ٣٦٩ / ٣٧٠ / ٣٧١ / ٣٧٢ / ٣٧٣ / ٣٧٤ / ٣٧٥ / ٣٧٦ / ٣٧٧ / ٣٧٨ / ٣٧٩ / ٣٨٠ / ٣٨١ / ٣٨٢ / ٣٨٣ / ٣٨٤ / ٣٨٥ / ٣٨٦ / ٣٨٧ / ٣٨٨ / ٣٨٩ / ٣٩٠ / ٣٩١ / ٣٩٢ / ٣٩٣ / ٣٩٤ / ٣٩٥ / ٣٩٦ / ٣٩٧ / ٣٩٨ / ٣٩٩ / ٤٠٠ / ٤٠١ / ٤٠٢ / ٤٠٣ / ٤٠٤ / ٤٠٥ / ٤٠٦ / ٤٠٧ / ٤٠٨ / ٤٠٩ / ٤١٠ / ٤١١ / ٤١٢ / ٤١٣ / ٤١٤ / ٤١٥ / ٤١٦ / ٤١٧ / ٤١٨ / ٤١٩ / ٤٢٠ / ٤٢١ / ٤٢٢ / ٤٢٣ / ٤٢٤ / ٤٢٥ / ٤٢٦ / ٤٢٧ / ٤٢٨ / ٤٢٩ / ٤٣٠ / ٤٣١ / ٤٣٢ / ٤٣٣ / ٤٣٤ / ٤٣٥ / ٤٣٦ / ٤٣٧ / ٤٣٨ / ٤٣٩ / ٤٤٠ / ٤٤١ / ٤٤٢ / ٤٤٣ / ٤٤٤ / ٤٤٥ / ٤٤٦ / ٤٤٧ / ٤٤٨ / ٤٤٩ / ٤٥٠ / ٤٥١ / ٤٥٢ / ٤٥٣ / ٤٥٤ / ٤٥٥ / ٤٥٦ / ٤٥٧ / ٤٥٨ / ٤٥٩ / ٤٦٠ / ٤٦١ / ٤٦٢ / ٤٦٣ / ٤٦٤ / ٤٦٥ / ٤٦٦ / ٤٦٧ / ٤٦٨ / ٤٦٩ / ٤٧٠ / ٤٧١ / ٤٧٢ / ٤٧٣ / ٤٧٤ / ٤٧٥ / ٤٧٦ / ٤٧٧ / ٤٧٨ / ٤٧٩ / ٤٨٠ / ٤٨١ / ٤٨٢ / ٤٨٣ / ٤٨٤ / ٤٨٥ / ٤٨٦ / ٤٨٧ / ٤٨٨ / ٤٨٩ / ٤٩٠ / ٤٩١ / ٤٩٢ / ٤٩٣ / ٤٩٤ / ٤٩٥ / ٤٩٦ / ٤٩٧ / ٤٩٨ / ٤٩٩ / ٥٠٠ / ٥٠١ / ٥٠٢ / ٥٠٣ / ٥٠٤ / ٥٠٥ / ٥٠٦ / ٥٠٧ / ٥٠٨ / ٥٠٩ / ٥١٠ / ٥١١ / ٥١٢ / ٥١٣ / ٥١٤ / ٥١٥ / ٥١٦ / ٥١٧ / ٥١٨ / ٥١٩ / ٥٢٠ / ٥٢١ / ٥٢٢ / ٥٢٣ / ٥٢٤ / ٥٢٥ / ٥٢٦ / ٥٢٧ / ٥٢٨ / ٥٢٩ / ٥٣٠ / ٥٣١ / ٥٣٢ / ٥٣٣ / ٥٣٤ / ٥٣٥ / ٥٣٦ / ٥٣٧ / ٥٣٨ / ٥٣٩ / ٥٤٠ / ٥٤١ / ٥٤٢ / ٥٤٣ / ٥٤٤ / ٥٤٥ / ٥٤٦ / ٥٤٧ / ٥٤٨ / ٥٤٩ / ٥٥٠ / ٥٥١ / ٥٥٢ / ٥٥٣ / ٥٥٤ / ٥٥٥ / ٥٥٦ / ٥٥٧ / ٥٥٨ / ٥٥٩ / ٥٦٠ / ٥٦١ / ٥٦٢ / ٥٦٣ / ٥٦٤ / ٥٦٥ / ٥٦٦ / ٥٦٧ / ٥٦٨ / ٥٦٩ / ٥٧٠ / ٥٧١ / ٥٧٢ / ٥٧٣ / ٥٧٤ / ٥٧٥ / ٥٧٦ / ٥٧٧ / ٥٧٨ / ٥٧٩ / ٥٨٠ / ٥٨١ / ٥٨٢ / ٥٨٣ / ٥٨٤ / ٥٨٥ / ٥٨٦ / ٥٨٧ / ٥٨٨ / ٥٨٩ / ٥٩٠ / ٥٩١ / ٥٩٢ / ٥٩٣ / ٥٩٤ / ٥٩٥ / ٥٩٦ / ٥٩٧ / ٥٩٨ / ٥٩٩ / ٦٠٠ / ٦٠١ / ٦٠٢ / ٦٠٣ / ٦٠٤ / ٦٠٥ / ٦٠٦ / ٦٠٧ / ٦٠٨ / ٦٠٩ / ٦١٠ / ٦١١ / ٦١٢ / ٦١٣ / ٦١٤ / ٦١٥ / ٦١٦ / ٦١٧ / ٦١٨ / ٦١٩ / ٦٢٠ / ٦٢١ / ٦٢٢ / ٦٢٣ / ٦٢٤ / ٦٢٥ / ٦٢٦ / ٦٢٧ / ٦٢٨ / ٦٢٩ / ٦٣٠ / ٦٣١ / ٦٣٢ / ٦٣٣ / ٦٣٤ / ٦٣٥ / ٦٣٦ / ٦٣٧ / ٦٣٨ / ٦٣٩ / ٦٤٠ / ٦٤١ / ٦٤٢ / ٦٤٣ / ٦٤٤ / ٦٤٥ / ٦٤٦ / ٦٤٧ / ٦٤٨ / ٦٤٩ / ٦٥٠ / ٦٥١ / ٦٥٢ / ٦٥٣ / ٦٥٤ / ٦٥٥ / ٦٥٦ / ٦٥٧ / ٦٥٨ / ٦٥٩ / ٦٦٠ / ٦٦١ / ٦٦٢ / ٦٦٣ / ٦٦٤ / ٦٦٥ / ٦٦٦ / ٦٦٧ / ٦٦٨ / ٦٦٩ / ٦٧٠ / ٦٧١ / ٦٧٢ / ٦٧٣ / ٦٧٤ / ٦٧٥ / ٦٧٦ / ٦٧٧ / ٦٧٨ / ٦٧٩ / ٦٨٠ / ٦٨١ / ٦٨٢ / ٦٨٣ / ٦٨٤ / ٦٨٥ / ٦٨٦ / ٦٨٧ / ٦٨٨ / ٦٨٩ / ٦٩٠ / ٦٩١ / ٦٩٢ / ٦٩٣ / ٦٩٤ / ٦٩٥ / ٦٩٦ / ٦٩٧ / ٦٩٨ / ٦٩٩ / ٧٠٠ / ٧٠١ / ٧٠٢ / ٧٠٣ / ٧٠٤ / ٧٠٥ / ٧٠٦ / ٧٠٧ / ٧٠٨ / ٧٠٩ / ٧١٠ / ٧١١ / ٧١٢ / ٧١٣ / ٧١٤ / ٧١٥ / ٧١٦ / ٧١٧ / ٧١٨ / ٧١٩ / ٧٢٠ / ٧٢١ / ٧٢٢ / ٧٢٣ / ٧٢٤ / ٧٢٥ / ٧٢٦ / ٧٢٧ / ٧٢٨ / ٧٢٩ / ٧٣٠ / ٧٣١ / ٧٣٢ / ٧٣٣ / ٧٣٤ / ٧٣٥ / ٧٣٦ / ٧٣٧ / ٧٣٨ / ٧٣٩ / ٧٤٠ / ٧٤١ / ٧٤٢ / ٧٤٣ / ٧٤٤ / ٧٤٥ / ٧٤٦ / ٧٤٧ / ٧٤٨ / ٧٤٩ / ٧٥٠ / ٧٥١ / ٧٥٢ / ٧٥٣ / ٧٥٤ / ٧٥٥ / ٧٥٦ / ٧٥٧ / ٧٥٨ / ٧٥٩ / ٧٦٠ / ٧٦١ / ٧٦٢ / ٧٦٣ / ٧٦٤ / ٧٦٥ / ٧٦٦ / ٧٦٧ / ٧٦٨ / ٧٦٩ / ٧٧٠ / ٧٧١ / ٧٧٢ / ٧٧٣ / ٧٧٤ / ٧٧٥ / ٧٧٦ / ٧٧٧ / ٧٧٨ / ٧٧٩ / ٧٨٠ / ٧٨١ / ٧٨٢ / ٧٨٣ / ٧٨٤ / ٧٨٥ / ٧٨٦ / ٧٨٧ / ٧٨٨ / ٧٨٩ / ٧٩٠ / ٧٩١ / ٧٩٢ / ٧٩٣ / ٧٩٤ / ٧٩٥ / ٧٩٦ / ٧٩٧ / ٧٩٨ / ٧٩٩ / ٨٠٠ / ٨٠١ / ٨٠٢ / ٨٠٣ / ٨٠٤ / ٨٠٥ / ٨٠٦ / ٨٠٧ / ٨٠٨ / ٨٠٩ / ٨١٠ / ٨١١ / ٨١٢ / ٨١٣ / ٨١٤ / ٨١٥ / ٨١٦ / ٨١٧ / ٨١٨ / ٨١٩ / ٨٢٠ / ٨٢١ / ٨٢٢ / ٨٢٣ / ٨٢٤ / ٨٢٥ / ٨٢٦ / ٨٢٧ / ٨٢٨ / ٨٢٩ / ٨٣٠ / ٨٣١ / ٨٣٢ / ٨٣٣ / ٨٣٤ / ٨٣٥ / ٨٣٦ / ٨٣٧ / ٨٣٨ / ٨٣٩ / ٨٤٠ / ٨٤١ / ٨٤٢ / ٨٤٣ / ٨٤٤ / ٨٤٥ / ٨٤٦ / ٨٤٧ / ٨٤٨ / ٨٤٩ / ٨٥٠ / ٨٥١ / ٨٥٢ / ٨٥٣ / ٨٥٤ / ٨٥٥ / ٨٥٦ / ٨٥٧ / ٨٥٨ / ٨٥٩ / ٨٦٠ / ٨٦١ / ٨٦٢ / ٨٦٣ / ٨٦٤ / ٨٦٥ / ٨٦٦ / ٨٦٧ / ٨٦٨ / ٨٦٩ / ٨٧٠ / ٨٧١ / ٨٧٢ / ٨٧٣ / ٨٧٤ / ٨٧٥ / ٨٧٦ / ٨٧٧ / ٨٧٨ / ٨٧٩ / ٨٨٠ / ٨٨١ / ٨٨٢ / ٨٨٣ / ٨٨٤ / ٨٨٥ / ٨٨٦ / ٨٨٧ / ٨٨٨ / ٨٨٩ / ٨٩٠ / ٨٩١ / ٨٩٢ / ٨٩٣ / ٨٩٤ / ٨٩٥ / ٨٩٦ / ٨٩٧ / ٨٩٨ / ٨٩٩ / ٩٠٠ / ٩٠١ / ٩٠٢ / ٩٠٣ / ٩٠٤ / ٩٠٥ / ٩٠٦ / ٩٠٧ / ٩٠٨ / ٩٠٩ / ٩١٠ / ٩١١ / ٩١٢ / ٩١٣ / ٩١٤ / ٩١٥ / ٩١٦ / ٩١٧ / ٩١٨ / ٩١٩ / ٩٢٠ / ٩٢١ / ٩٢٢ / ٩٢٣ / ٩٢٤ / ٩٢٥ / ٩٢٦ / ٩٢٧ / ٩٢٨ / ٩٢٩ / ٩٣٠ / ٩٣١ / ٩٣٢ / ٩٣٣ / ٩٣٤ / ٩٣٥ / ٩٣٦ / ٩٣٧ / ٩٣٨ / ٩٣٩ / ٩٤٠ / ٩٤١ / ٩٤٢ / ٩٤٣ / ٩٤٤ / ٩٤٥ / ٩٤٦ / ٩٤٧ / ٩٤٨ / ٩٤٩ / ٩٥٠ / ٩٥١ / ٩٥٢ / ٩٥٣ / ٩٥٤ / ٩٥٥ / ٩٥٦ / ٩٥٧ / ٩٥٨ / ٩٥٩ / ٩٦٠ / ٩٦١ / ٩٦٢ / ٩٦٣ / ٩٦٤ / ٩٦٥ / ٩٦٦ / ٩٦٧ / ٩٦٨ / ٩٦٩ / ٩٧٠ / ٩٧١ / ٩٧٢ / ٩٧٣ / ٩٧٤ / ٩٧٥ / ٩٧٦ / ٩٧٧ / ٩٧٨ / ٩٧٩ / ٩٨٠ / ٩٨١ / ٩٨٢ / ٩٨٣ / ٩٨٤ / ٩٨٥ / ٩٨٦ / ٩٨٧ / ٩٨٨ / ٩٨٩ / ٩٩٠ / ٩٩١ / ٩٩٢ / ٩٩٣ / ٩٩٤ / ٩٩٥ / ٩٩٦ / ٩٩٧ / ٩٩٨ / ٩٩٩ / ١٠٠٠ / ١٠٠١ / ١٠٠٢ / ١٠٠٣ / ١٠٠٤ / ١٠٠٥ / ١٠٠٦ / ١٠٠٧ / ١٠٠٨ / ١٠٠٩ / ١٠١٠ / ١٠١١ / ١٠١٢ / ١٠١٣ / ١٠١٤ / ١٠١٥ / ١٠١٦ / ١٠١٧ / ١٠١٨ / ١٠١٩ / ١٠٢٠ / ١٠٢١ / ١٠٢٢ / ١٠٢٣ / ١٠٢٤ / ١٠٢٥ / ١٠٢٦ / ١٠٢٧ / ١٠٢٨ / ١٠٢٩ / ١٠٣٠ / ١٠٣١ / ١٠٣٢ / ١٠٣٣ / ١٠٣٤ / ١٠٣٥ / ١٠٣٦ / ١٠٣٧ / ١٠٣٨ / ١٠٣٩ / ١٠٤٠ / ١٠٤١ / ١٠٤٢ / ١٠٤٣ / ١٠٤٤ / ١٠٤٥ / ١٠٤٦ / ١٠٤٧ / ١٠٤٨ / ١٠٤٩ / ١٠٥٠ / ١٠٥١ / ١٠٥٢ / ١٠٥٣ / ١٠٥٤ / ١٠٥٥ / ١٠٥٦ / ١٠٥٧ / ١٠٥٨ / ١٠٥٩ / ١٠٦٠ / ١٠٦١ / ١٠٦٢ / ١٠٦٣ / ١٠٦٤ / ١٠٦٥ / ١٠٦٦ / ١٠٦٧ / ١٠٦٨ / ١٠٦٩ / ١٠٧٠ / ١٠٧١ / ١٠٧٢ / ١٠٧٣ / ١٠٧٤ / ١٠٧٥ / ١٠٧٦ / ١٠٧٧ / ١٠٧٨ / ١٠٧٩ / ١٠٨٠ / ١٠٨١ / ١٠٨٢ / ١٠٨٣ / ١٠٨٤ / ١٠٨٥ / ١٠٨٦ / ١٠٨٧ / ١٠٨٨ / ١٠٨٩ / ١٠٩٠ / ١٠٩١ / ١٠٩٢ / ١٠٩٣ / ١٠٩٤ / ١٠٩٥ / ١٠٩٦ / ١٠٩٧ / ١٠٩٨ / ١٠٩٩ / ١١٠٠ / ١١٠١ / ١١٠٢ / ١١٠٣ / ١١٠٤ / ١١٠٥ / ١١٠٦ / ١١٠٧ / ١١٠٨ / ١١٠٩ / ١١١٠ / ١١١١ / ١١١٢ / ١١١٣ / ١١١٤ / ١١١٥ / ١١١٦ / ١١١٧ / ١١١٨ / ١١١٩ / ١١٢٠ / ١١٢١ / ١١٢٢ / ١١٢٣ / ١١٢٤ / ١١٢٥ / ١١٢٦ / ١١٢٧ / ١١٢٨ / ١١٢٩ / ١١٣٠ / ١١٣١ / ١١٣٢ / ١١٣٣ / ١١٣٤ / ١١٣٥ / ١١٣٦ / ١١٣٧ / ١١٣٨ / ١١٣٩ / ١١٤٠ / ١١٤١ / ١١٤٢ / ١١٤٣ / ١١٤٤ / ١١٤٥ / ١١٤٦ / ١١٤٧ / ١١٤٨ / ١١٤٩ / ١١٥٠ / ١١٥١ / ١١٥٢ / ١١٥٣ / ١١٥٤ / ١١٥٥ / ١١٥٦ / ١١٥٧ / ١١٥٨ / ١١٥٩ / ١١٦٠ / ١١٦١ / ١١٦٢ / ١١٦٣ / ١١٦٤ / ١١٦٥ / ١١٦٦ / ١١٦٧ / ١١٦٨ / ١١٦٩ / ١١٧٠ / ١١٧١ / ١١٧٢ / ١١٧٣ / ١١٧٤ / ١١٧٥ / ١١٧٦ / ١١٧٧ / ١١٧٨ / ١١٧٩ / ١١٨٠ / ١١٨١ / ١١٨٢ / ١١٨٣ / ١١٨٤ / ١١٨٥ / ١١٨٦ / ١١٨٧ / ١١٨٨ / ١١٨٩ / ١١٩٠ / ١١٩١ / ١١٩٢ / ١١٩٣ / ١١٩٤ / ١١٩٥ / ١١٩٦ / ١١٩٧ / ١١٩٨ / ١١٩٩ / ١٢٠٠ / ١٢٠١ / ١٢٠٢ / ١٢٠٣ / ١٢٠٤ / ١٢٠٥ / ١٢٠٦ / ١٢٠٧ / ١٢٠٨ / ١٢٠٩ / ١٢١٠ / ١٢١١ / ١٢١٢ / ١٢١٣ / ١٢١٤ / ١٢١٥ / ١٢١٦ / ١٢١٧ / ١٢١٨ / ١٢١٩ / ١٢٢٠ / ١٢٢١ / ١٢٢٢ / ١٢٢٣ / ١٢٢٤ / ١٢٢٥ / ١٢٢٦ / ١٢٢٧ / ١٢٢٨ / ١٢٢٩ / ١٢٣٠ / ١٢٣١ / ١٢٣٢ / ١٢٣٣ / ١٢٣٤ / ١٢٣٥ / ١٢٣٦ / ١٢٣٧ / ١٢٣٨ / ١٢٣٩ / ١٢٤٠ / ١٢٤١ / ١٢٤٢ / ١٢٤٣ / ١٢٤٤ / ١٢٤٥ / ١٢٤٦ / ١٢٤٧ / ١٢٤٨ / ١٢٤٩ / ١٢٥٠ / ١٢٥١ / ١٢٥٢ / ١٢٥٣ / ١٢٥٤ / ١٢٥٥ / ١٢٥٦ / ١٢٥٧ / ١٢٥٨ / ١٢٥٩ / ١٢٦٠ / ١٢٦١ / ١٢٦٢ / ١٢٦٣ / ١٢٦٤ / ١٢٦٥ / ١٢٦٦ / ١٢٦٧ / ١٢٦٨ / ١٢٦٩ / ١٢٧٠ / ١٢٧١ / ١٢٧٢ / ١٢٧٣ / ١٢٧٤ / ١٢٧٥ / ١٢٧٦ / ١٢٧٧ / ١٢٧٨ / ١٢٧٩ / ١٢٨٠ / ١٢٨١ / ١٢٨٢ / ١٢٨٣ / ١٢٨٤ / ١٢٨٥ / ١٢٨٦ / ١٢٨٧ / ١٢٨٨ / ١٢٨٩ / ١٢٩٠ / ١٢٩١ / ١٢٩٢ / ١٢٩٣ / ١٢٩٤ / ١٢٩٥ / ١٢٩٦ / ١٢٩٧ / ١٢٩٨ / ١٢٩٩ / ١٣٠٠ / ١٣٠١ / ١٣٠٢ / ١٣٠٣ / ١٣٠٤ / ١٣٠٥ / ١٣٠٦ / ١٣٠٧ / ١٣٠٨ / ١٣٠٩ / ١٣١٠ / ١٣١١ / ١٣١٢ / ١٣١٣ / ١٣١٤ / ١٣١٥ / ١٣١٦ / ١٣١٧ / ١٣١٨ / ١٣١٩ / ١٣٢٠ / ١٣٢١ / ١٣٢٢ / ١٣٢٣ / ١٣٢٤ / ١٣٢٥ / ١٣٢٦ / ١٣٢٧ / ١٣٢٨ / ١٣٢٩ / ١٣٣٠ / ١٣٣١ / ١٣٣٢ / ١٣٣٣ / ١٣٣٤ / ١٣٣٥ / ١٣٣٦ / ١٣٣٧ / ١٣٣٨ / ١٣٣٩ / ١٣٤٠ / ١٣٤١ / ١٣٤٢ / ١٣٤٣ / ١٣٤٤ / ١٣٤٥ / ١٣٤٦ / ١٣٤٧ / ١٣٤٨ / ١٣٤٩ / ١٣٥٠ / ١٣٥١ / ١٣٥٢ / ١٣٥٣ / ١٣٥٤ / ١٣٥٥ / ١٣٥٦ / ١٣٥٧ / ١٣٥٨ / ١٣٥٩ / ١٣٦٠ / ١٣٦١ / ١٣٦٢ / ١٣٦٣ / ١٣٦٤ / ١٣٦٥ / ١٣٦٦ / ١٣٦٧ / ١٣٦٨ / ١٣٦٩ / ١٣٧٠ / ١٣٧١ / ١٣٧٢ / ١٣٧٣ / ١٣٧٤ / ١٣٧٥ / ١٣٧٦ / ١٣٧٧ / ١٣٧٨ / ١٣٧٩ / ١٣٨٠ / ١٣٨١ / ١٣٨٢ / ١٣٨٣ / ١٣٨٤ / ١٣٨٥ / ١٣٨٦ / ١٣٨٧ / ١٣٨٨ / ١٣٨٩ / ١٣٩٠ / ١٣٩١ / ١٣٩٢ / ١٣٩٣ / ١٣٩٤ / ١٣٩٥ / ١٣٩٦ / ١٣٩٧ / ١٣٩٨ / ١٣٩٩ / ١٤٠٠ / ١٤٠١ / ١٤٠٢ / ١٤٠٣ / ١٤٠٤ / ١٤٠٥ / ١٤٠٦ / ١٤٠٧ / ١٤٠٨ / ١٤٠٩ / ١٤١٠ / ١٤١١ / ١٤١٢ / ١٤١٣ / ١٤١٤ / ١٤١٥ / ١٤١٦ / ١٤١٧ / ١٤١٨ / ١٤١٩ / ١٤٢٠ / ١٤٢١ / ١٤٢٢ / ١٤٢٣ / ١٤٢٤ / ١٤٢٥ / ١٤٢٦ / ١٤٢٧ / ١٤٢٨ / ١٤٢٩ / ١٤٣٠ / ١٤٣١ / ١٤٣٢ / ١٤٣٣ / ١٤٣٤ / ١٤٣٥ / ١٤٣٦ / ١٤٣٧ / ١٤٣٨ / ١٤٣٩ / ١٤٤٠ / ١٤٤١ / ١٤٤٢ / ١٤٤٣ / ١٤٤٤ / ١٤٤٥ / ١٤٤٦ / ١٤٤٧ / ١٤٤٨ / ١٤٤٩ / ١٤٥٠ / ١٤٥١ / ١٤٥٢ / ١٤٥٣ / ١٤٥٤ / ١٤٥٥ / ١٤٥٦ / ١٤٥٧ / ١٤٥٨ / ١٤٥٩ / ١٤٦٠ / ١٤٦١ / ١٤٦٢ / ١٤٦٣ / ١٤٦٤ / ١٤٦٥ / ١٤٦٦ / ١٤٦٧ / ١٤٦٨ / ١٤٦٩ / ١٤٧٠ / ١٤٧١ / ١٤٧٢ / ١٤٧٣ / ١٤٧٤ / ١٤٧٥ / ١٤٧٦ / ١٤٧٧ / ١٤٧٨ / ١٤٧٩ / ١٤٨٠ / ١٤٨١ / ١٤٨٢ / ١٤٨٣ / ١٤٨٤ / ١٤٨٥ / ١٤٨٦ / ١٤٨٧ / ١٤٨٨ / ١٤٨٩ / ١٤٩٠ / ١٤٩١ / ١٤٩٢ / ١٤٩٣ / ١٤٩٤ / ١٤٩٥ / ١٤٩٦ / ١٤٩٧ / ١٤٩٨ / ١٤٩٩ / ١٥٠٠ / ١٥٠١ / ١٥٠٢ / ١٥٠٣ / ١٥٠٤ / ١٥٠٥ / ١٥٠٦ / ١٥

وهناك اثار فيه ما تزال محفوظة في مكتب فليوم الطرابلسي المسمى بـ "مكتبة في
حالة العرب" سنة ١٢٧٣ . وان ما تحلى به الصوري
من سعة الاطلاع وروح النقد والوقفة في تحري الحقيقة لجعله يستحق كل تقدير (١)
هذا بعض ما خلفه لنا الكتبة من الافرنج اما العرب فقد خلفوا
لنا ايضا مؤلفات لها قيمتها في دراسة هذه الحقبة من تاريخ الدبار الشامية والافرنج
فيها ، بينها (١) كتاب الاعتبار* لاسامة بن منقذ وهو يتناول تاريخ القرن الثاني
عشر كله و (٢) كتاب تاريخ الانباكة لابن الانبر . و (٣) كتاب سيرة صلاح الدين لبهاء
الدين المعروف بابن شداد (٢) وغيرها .

ومما لا ريب فيه ان الجغرافية كانت احدى الموضوعات التي عني
بها الصليبيون اكثر من سواها (٣) اذ كانت مؤلفات الفلكيين والجغرافيين الهامة
مع علاقات الملاحين والتجار وقد اهابت بالفرنج الى دراستها (٣) وباستطاعتنا ان نعتبر
ان الخرائط المعروفة بالسوقية والتي وضعت خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر
هي اولى منتجات القرون الوسطى في اوروبا في هذا الفن وانها انت نتيجة للمعلومات
المكتسبة من الشرق خلال الحروب الصليبية (٤) .

ثم ان المخطوطات اللاتينية المرقمة ٤٩٣٩ في المكتبة الوطنية
بباريس ويرجع عهدا الى سنة ١٣١٠ م تتضمن خارطة لنصف الكرة الارضية واثنين
اخرين للارض المقدسة مع تعيين المسافات بين كل موقع وآخر وهذه الخارطة العالمية
قد تاخرت بظهورها عن خارطة (ماسبلشم) باحدى عشرة سنة اذ قدمها للبابا
جان الثاني عشر سنة ١٣٢١ (٥) .

وهناك اطلال لبيرو فيسكونتي وهو يخوى على نسج خرائط محفوظة
في متحف كورار في البندقية يرجع تاريخه الى سنة ١٣١٨ وتحوى على مجموع البحر
المتوسط وما يدهه له الدقة في التفاصيل مع صحتها ولا سيما فيما يختص منها
بالساحل السوري - النامي - وجزيرة قبرص وغيرها .

(١) لامير - سورية ص ٢٦٠ (٢) باركر تراث الاسلام ص ١٢٦ . ١٢٧ - (٣) راي ص

١٧٣ - ١٧٤ (٤) نفسه ص ١٧٧ - (٥) نفسه ص ١٧٧

وبوجد في مخطوطة اخرى محفوظة في مكتبة الفانتيكان بحث مرفوع

١٩٦٠ يعود تاريخه الى مطلع القرن الرابع عشر كما انه يوجد عدة مصورات
ابقونية من القدير وعكا وانطاكية فيها خرائط للارض المقدسة وتوجد خارطة اخرى
تمثل ابطالية وثانية تمثل مقاطعتي نابولي وصفقلية وثالثة الاراضي البندقية وكلها
تستوعو النظر بدقة الحسابات والسلوب العمل فيها (١) .

واخيرا بحسن ان تشير الى ما جاء بهذا الصدد على قلم هاستنر

وهو " انه اذا كانت الحروب الصليبية قد زادت في معلومات اوروبا النصرانية
في الجغرافية فان ذلك قد تم عن طريق النحارب العلمية لا عن طريق الاطلاع على
كتب الحارثيين من العرب التي كان العرب يحملها حتى ذاب الزمن (٢)

عذا ولم تكن غلبة القوم بالفتون الحيلة لنقل عنها في الاداب
والعلوم فقد كان تأثير فتون العرب بالافرنج كذلك عظيما ان ندعا عن مولات الصليبيين
حروب متجددة الشرق المتمد من الفسطاطنية الى مصر ودواهم الخشنة (٣) .

اما فيما يتعلق بالعلوم الدقيقة فمستبعد لحدود فان لو يون يقول

انها كانت ضعيفة وذلك بفقدانهم (الافرنج) العالم (٤) الا ان راي بتردوكر ذلك
اذ يقول " ولما كان للتربية والاداب والتاريخ من ضعف بها من الافرنج كذلك كان
عدد كبير من النبلاء بينهم قد فسدوا بالعلوم الدقيقة ايضا ان اتنا نشاهد في سنة
١٢٤٩ م بناء القبة في قوس يتم تحت ادارة وتنظيم آنصوري

لمحاربة الصليبيين في ذلك الحصار (٥)

واذا علم الرماحيات قد قوي عند الافرنج فعمل الاندلسيين اولا

وفي الشرق ثانيا ان الى العالم الاول في الحبر وهو لئونارد فيبوناتشي كان قد طاب
سورية ومصر وكان هذا العالم معاصرا لفردينا الثاني وقد قدم له كتابه في الاعداد
المرعبة ولا يستبعد ان يرجع الفضل في تدوين الارقام العربية وعلم الحساب الى التجارة
التي راجت بين الثغور الابطالية والديار الشامية (٦) .

(١) نفسه ١٧٨ — (٢) حاشية رقم (١) من ص ١٢٥ الى تراث الاسلام هامسكير .

(٣) — لو يون حاشية العرب ص ٣٦٧ — (٤) نفسه ص ٣٦٧ (٥) راي ص ١٧٣ —

(٦) باركر تراث الاسلام ص ١٢٣ .

ومن المملوك العلوم التي عرفت ان ذاك علم النبات وقد اشتهر به ابن البيطار الاندلسي في القرن الثالث عشر وكان في الشرق في سنة ١٢٧٠ م فزار انطاكية ومصر ثم استقر به المقام في دمشق لدى السلطان الملك الكامل وكان لبنان ميدان دراساته عن الحشائش فرسمها له رسام كان يرافقه وهي في مختلف حالاتها وبألوانها الطبيعية (١) وهناك نباتي آخر هو رشيد الدين القزويني ولد في صهر سنة ١١٧٧ ودرس في دمشق ثم ما لبث ان تافس ابن البيطار في علمه وقد اتخذ نباتات وحشائش بيروت وطرابلس وانطاكية ولنا به موضوعا لدراساته (٢) .

اما فيما يختص بالتاريخ الطبيعى فقد كان جاك دوفورى الوحيد من مؤلفي الافرنج الذي نال له بعض المعلومات فيه (٣) . غير ان تعصبه ضد الشرقيين جعله يفتو غربيا عن الحركة العلمية المنتهزة ان ذاك .

وقد اثار معلوماته عن الحيوان والنبات على سعة اطلاعه من جهة ورغبته في تحري الدقة وكذلك فان في وصفه للحجارة الكريمة بأنواعها لدقة فائقة . وسندل من كتاباته انه قد درس ودقق في كتب علم المعادن الطبية ان امة قد وقد على خصائص الحجارة الكريمة التي لفت الانتظار في الغرب حتى ايام النهضة (٤) .

واما ما كتبه بشان البناء الحارة فبدأ على معلومات مبهمه وخاطئة احبانا (٥) .

وكانت مدينة طرابلس التي اثار مراكز الحركة العلمية الهامة . ذاك تضم مدارس مزدهرة يؤمها الطلاب من جميع الاقطار المجاورة ويدرسون فيها على اساتذته شرقيين لهم شهرتهم الدائنة الفلاسفة والطب وقد بقا اسطفا انطاكي - البيمر الاما الى اللاتين كتاب المحوسر في الطب ولعل هذا هو الكتاب الوحيد الذي عرفناه حتى الان ان الافرنج قد نقلوه (٦) .

ويظهر ان هذه المهنة الشريفة - مهنة الطبيب - ظلت من اختصاص البغاة من النصارى فكان لأطبائهم مكانة مرموقة عند امراء الافرنج ورجال الدين منهم اذ كان يعهد اليهم بمراقبة الصدمات ومناجر العطارين - العقاقير - وكان الاطباء

(١) رأى ص ١٨٥ (٢) رأى ص ١٨٥ (٣) رأى ص ١٨٥ (٤) رأى ص ١٨٥-١٨٦

(٥) نفسه ص ١٨٨ . (٦) حتى تاريخ العرب ص ٦٦٢

في الديار الشامية عهد ذاك ينتمون الى جميع الاجناس والاديان ما عدا الافرنج (١) ويكفى ان نرجع قليلا الى كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ لتري الفرق البين بين طب الافرنج وطب العرب اذ ذاك . وهاك نموذجا منه . ومن عجب طبهم ان صاحب المنبذرة كتب الى عبي بطلب منه انقاذ طبيب بداوى مرضى من اصحابه فارسل اليه طبيبا نصرانيا يقال له ثابت . فما غاب عشرة ايام حتى عاد فقلنا له " ما اسرع ما داويت المرضى " قال " احضروا عندي فارسا قد طلعت في رحله دملة وامراه قد لحقها نشاف (٢) . فعملت للفارس ليخزن ففتحت الدملة وصلحت . وحببت المرأة ورطب مزاجها . فتاهم طبيب افرنجى فقال لهم " هذا ما يعرف في (كذا . عابته) بداوسهم . وقال للفارس " ايما احب اليك نعيم . برجل واحدة او نوت برجلين " قال " اعيش برجل واحدة " قال " احضروا لى فارسا ثوبا وفارسا فاطعا " . فحضر الفارس والفارس وانا حاسر نحت ساقه على ثوبه خشب وقال للفارس " اسرب رحله بالفارس ضربة واحدة اقطعها " . فضربه وانا اراه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية مسال . من الساق ومات من ساعته . وابصر المرأة فقال " هذه امراه في راسها شيطان قد عثقها . احنقوا سمعها فحلقوه . ومادت ناكل من مالهم النوم والخريل فزاد بها النشاف . فقال الشيطان قد دخل في راسها . فاخذ الميسى وشر راسها صلبا وسلم وسطه حتى ظهر عظم الراس وحكه بالعج غصانت في وقتها . فقلت لهم " بقى كم الى حاجة فقلنا " لا " لمجت وثم ندلمت من طبهم ما لم آمن امره (٣) .

وكان للطب فروع عدة تلحق به . كطب العيون والجراحة والنصير والحذافة وغيرها . وكان جميع منتهبها كالطبيب والصيدلى تحت مراقبة المعسب (٤) ومن العزوف النوى اهتم لها العرب في مطلع القرن الثالث عشر " الطب البيطرى " ويتعذر علينا معرفة مقدار ما اولاه الافرنج من عنايتهم خبرانه باستطاعتنا ان نحكم ان الباطرة - من حذائيبين ومدادين - كانوا مسئولين عن الحيوانات

(١) لامر سورة م ١٤٥-٢٤٦ - (٢) نشاف فارسية بمعنى البله (اسامة عن ١٢٢ حاشية رقم ٦

(٣) اسامة كتاب الاعتبار ص ١٣٢-١٣٣ . (٤) راي السند ص ١٨٢ ص ١٨٢ .

الموكوا، اليهم امر نطبيبها . (١)

وكذلك كانت " الصبدلة " جزءا " لا يتجزأ " لعلم الطب اذ كان الطب نفسه يحضر الدواء . وكانت الوصفات الطبية تدهفظ وفي حال موت المريض تقدم اليه رئيس الاطباء ليرى ما اذا كان فيها تغريط او افراط من قبل المريض (٢) وما يدل على عناية القم بحقوق الناس " ان الطبيب كان مسئولاً عن حياة مريضه ومرفاهه كما انه مسئول ايضاً عما قد ينشأ الدماء من تائبسرو ونفائح (هذا ما ننظر به قوانين المملكة اللانسية) وكان من حق الطبيب ان يبرهن لدى المحاكم ان المريض لم يثبت في تناوله الدواء بتعليمات الطبيب وان سبب ذلك قد هلك . فاذا ثبت امانة الطبيب لموت " الفن " يتكلف بدفع نفسه واذا كان المريض افرنجياً من الاحرار كان بالامكان شراء الطبيب ومصادرة املاكه (٣) ويظهر ان الاطباء كانوا يتعهدون شفاه الاحرام . فقد اختبر ذلك بولون لدى زيارته لدمشق في سنة ١٥٤٨ اذ كانت العادة ما تزال مربعة الاحرار عند الاطباء الدامبيين (٤) .

وكانت قوانين " المملكة اللانسية " تنظم حالة الالاميا في المستعمرات الافرنجية في البلاد المقدسة . من ذلك انها لم تكن تسمح لاي طبيب، وفد الى البلاد معاطاة المعالجة فيها فظ ان يودي امتحاناً بحضور افضل اطباء البلد في مجلس براسه الاسقف (٥) .

ويظهر ان الاطباء كانوا يتمتعون باحترام كبير اذ ان ابن الدوسر، يذكر ضمن بذكر منهم ميخائيل، اسقف حلب اليعاقبي الذي، بعد ان اعتزاً منصبه الدنيوي وقد علي طرابلس وبقي لبها حتى نوفاه الله، بعلم الطب وكان معاطساً بالاجلال والاكرام من رجال الدين وطبقة الاشراف (٦) .

اما مراكز الدراسة للطب فكانت انطاكية وطرابلس والقدس ومن اساندها المشهود لهم بطول الباع تيودور الانطاكي طبيب فردريك الثاني الخاص واسير الحلبي

(١) راي المستعمرات الفرنجية ص ١٨٣ . (٢) ايضاً ص ١٨٢ (٣) راي ص ١٨٢ - (٤)

نفسه ص ١٨٢ (٥) ايضاً ص ١٨١ - ١٨٢ (٦) نعيم المرجع المذكور ص ١٨١ .

ومعقوب النسطوري الطرابلسي . اما ما نطالعه في مؤلفات المؤرخين من افرنج
وعرب " ان التطبيق كان في المستعمرات الافرنجية من اختصاص الوطنيين ورجال
الدين من المعافاة السريان خاصة . اما اطباء الغرب فكانوا دائما منحطين عن
زملائهم الشرقيين (١) .

ولما كانت المستشفيات والمصروفات ولا سيما المحتسب منها بمعالجة
الفقراء والحاذرين قد انتشرت في انحاء اوروبا ابان القرن الثاني عشر حتى اننا
ان نقرر ان تاسيس المستشفيات على تلك الصورة المنظمة قد وجدت تشجيعها
لها من الاميرة المسلمة (٢) كما اننا نستطيع ان نقرن ايضا افتتاح مدرسة الطب
في مونبيلييه بالاعمال التجارية التي كانت تتبادل بين جنوبي فرنسا وسواحل بحر
الروم الشرقية . هذا ما يثبته باركر (٣) .

لقد انشأ دوتي الان على ذكر ما تم من انتحالات فكرية من طريق
اللغات والاداب والعلوم فنقل كلمة في *الافتقار* الفيلسوف تنبها للبحث . يظهر ان
الافرنج لم يقبلوا على هذا النوع من الدراسة بدليل قلة ما يريدونها في تعليمهم
لذلك العهد . ودونك ما عثرنا عليه بهذا العهد وهو كما سجد تروى لا ينفع
غلبا ولا ينجي من جوع قال الدكتور دوتي من ٦٦٠ من تاريخ العرب وكان
فيلسوف الطرابلسي قد عثر في اناطية على محاولة عربية لكتاب "سرا سرار"
ومثل التي انما بان ارساد كان وضع هذا الكتاب لتعليم الاسكندر المقدوني .
وانه نقلها فليهم المذكور الى اللاتينية تحت اسم

الحكمة العميقة وتلم البصريات وكان هذا الكتاب من اثار المراحم انتشارا في القرون
الوسطى . وهذا اشارة اخرى الى الانتداب من الفيلسوف دون الاخذ بها والتمسك
بدراستها . من ذلك ما جاء لقروسيه من ص ٤٣٠-٤٤٠ الجزء الثاني قوله عن
بلدوين الاول " اما كان بولندواني في سورية كثيرا ما كان يظهر ميلا خائفا لحدث

(١) راء ص ١٧٨-١٧٩ - (٢) حتى تاريخ العرب من ٦٣٣ . (٣) نراك الاسلام

المسائل البلدية ودونكم مثلا واحدا يدل على ميله الفلسفي * فيما كان يوما
بلازم قصره في مدينة صور بسبب وعكة المت به ، استدعى اليه الاسقف - غلبوم -
وطلب اليه ان يسرد عليه سمعه البراهين والحجج التي تدل على خلود النفس .
ولما بسط الاسقف له الحجج المستمدة من " الكتاب المقدس " اعلن الملا انها
غير كافية معترضا بان " الكفرة " يرغبونها مقدما .

هذا وانا لنقر لباركر ص ١٣٦ من تراث الاسلام قوله * وعلى

كل حال فقد اظهر العلماء استعدادهم بالاخذ عن الفلسفة العرب
الى هنا تكون قد اثبتنا على ذكر العلاقات الاجتماعية والفكرية
عند العرب والافرنج في سورية (الدبار الثانية) بقي علينا ان نقول كلمة عما
ينتج عنها من علاقات عامة في موطنها ومصدر اثنا اربعة وهو اوروبية الغربية التي
اختصت بها لذلك نقول = ان الحروب الصليبية قد تركت اثرها فوئمار غربي
اوروبية من نواح ارجع وهي = (١) فقد اثرت في التنسنة وبالتالي الباباوية .
(٢) كما اثرت في الحياة الداخلية والاقتصادية في جميع الممالك . وباستدلائنا ان
نقارن هذا التأثير حيث نراه في سائر اقاليم الدكية وفي مركز الخلافة والموصل
واسنحار و (٣) فاننا نشهد ذلك في العلاقات الخارجية عند الدول المختلفة من
كت ٢ دولة لحدسها اولا ثم من (٤) الساور العالم لاجتياح جميعه من دول اوروبية
(٥) لقد اثرت هذه الحروب في علاقات اوروبية تآقية جميعها - رغم /كثرة/ البلايا /التي/ -
فلنفحص ذلك فيما يلي -

(١) لقد كانت الحروب الصليبية - رغم مكانة البابوية منها - من
القدس التي جعلت على تنوية الروح القومي وادى الى كلفة السلطة المدنية بدلا من
السلطة الدينية التي سبقتها مادي في يد فندا عن ذلك التسليم والروح العنفي .
(٢) اما فعما يتعلق بالحكومات - فقد اوجرها جميعها لتوجدت
من الضرائب التي لم يكن لهم عهد به حتى لقد قيل " ان الضرائب الحديثة نشأت
من حاجات الارض المقدسة " اضف الى هذا اثر الحروب الصليبية في انحلال الاقطاع
وفقدان امراك مركزهم الاجتماعي ثم نهوض البلديات واستقلالها وكذلك فان هذه الحروب
نوسعتها التجارة قد اثرت في نمو المدن عامة وموانئ الجنوب خاصة ان في فرنسا

او في ايطاليا ولنذكر ان الطليقة التي الداخلى الذى كانت تمتازة تجارة
البندقية في القرن الى البحر البلطى وبحر الشمال .

(٣) لقد اوجدت الحروب الصليبية رابطة جديدة بين الدول
الاوروبية ما تزال حتى اليوم تنجح في كثير المحاولات لاجداد كتلة ضد الشرق
(المسلمين) اثر الفكرة الصليبية باقيا .

ومن آثارها ايضا ان انتقل التوازن الدولي الى غرب اوروبا
وكان لفرنسة القديح المعلى ولتلك الحروب يرجع الفضل في رفع مستوى فرنسة
الى ذلك المقام في القرون الحديثة ولا عجب فان اول نداء قد وجه من احاد
الحروب الصليبية كان من فرنسة واول من لبس النداء فرسانها .

(٤) واخيرا نستطيع ان نقرر بدون تردد ان الحروب الصليبية
قد اعطت اوروبا نظرة جديدة واسعة للعالم تلك النظرة التي صاحبها نهوض
حركة الارثوذكس والانصراف للاستفادة من المعلومات الجغرافية فالانحاء الى العناية
بكيا آسية وقد بدا عصر الاستكشاف الاسيوى منذ ١٢٤٠ م وانتهى بعد ذلك بقرون
وهو يوازي باهميته الاستكشاف الامريكى وكان العاملون في هذا رجال دينيون
متحمسين وآخرون تجار طامعون على ان مداراة الاول باء بالفناء والى الثانيه
فكانت حجر الزاوية في الاستثمار الحديث .

هذا ملخص عن باركر في نوات الاسلام من ١٣١-١٣٦ .

الخلاصة

عندما قررت ان يكون موضوع اطروحتي " الحروب الصليبية وما نتج عنها من هلاكات اجتماعية واقتصادية وفكرية من العرب والافرنج " شرعت في التفكير فيه ، وما كدت اخطو الخطوة الاولى عمليا حتى اخذت السهاجس مني ودب في نفسي شيء من التيهب والغشبية . ذلك لان الموضوع جديد والطريق الى تحقيق الهدف منه طويل ، يتطلب جهودا متواصلة واتحاشا متتالية هذا من جهة ، ومن جهة ثانية نهار المعلومات عنه متوفرة وعل هناك من الحفائض ما يجوز اتخاذها لبنات للتقريب بناء .

ومرة هذا او ذاك عندي الى الدولة التي اعتدنا ان ننظرها الى هذه الحقبة من التاريخ نحيلنا ما اعلى هوامشها من ادعاءات وابطال وما قد نشأ عنها من اهلاك وتفتيل طوال فترتين من الزمن فتبدو لنا الامور قائمة والحياة مسودة فنفسى ان التاريخ ليس بوجود مظاهر بل ان له لغابات ابدع واعصر يجدر بنا ان نتوصل اليها وان نفقد الى بواطنها حتى نتجلى الحقائق واضحة ونبدو النتائج ناصحة في مجرى التطور في المجتمع والاقتصاد والثقافة وهذا ما لم ان احسب ان السبيل اليه معبد .

ولكن ما ان عثوت الخطوة الثانية حتى وجدتني ازداد للموضوع تعقيدا ولحقائق تعقيدا ولمظاهر التطور في حياة الافرنج نبيا ، فادركت عندها ان ما قد يبدو شرا به خير خبير وان محركات التطور لا تقتصر على الظاهر الامور ولا تعبا بالتواءم فيها بل انها لتعقد لنفسها طريقا تسير فيه حتى تعجز اعزها قد لا تراها نحن البشر الا فيما بعد . وعندها تنكشف امامنا عوامل حفية تعمل للصالح العام دون ما نظرة ساذجة التي هذا او ذلك وما تلبث الاوساء ان تتبدل والافكار ان تتجدد والحياة بصمومها ان تتطور فتتقلب الى ما نفسه الحق والخير والجمال التي الانسان .

لقد قدلت الحروب الصليبية بما رمت الباطنية اليه وفيما امل الملك والامراء فيه ولكنها انت بما لم بات على فكر احد . فكم ترقى فيها ، لاول وهلة ، من ضرور ومكابد وديسائير وكيف تتعلى النجوم اخيرا فتنبئ الحقائق واضحة

فيما اراده التطور ان يكون من تبدل او تقدم ورتى .

فكم من شعوب وقبائل في اوربية كانت ترسف في قيود انقطاع بحول بينها وبين الحرية الاجتماعية . وكم بد ام كانت تمنو لسلطنة دينية يضيق صدرها عن الاتساع للافكار الجديدة فتزيدها قيودا على قيودها وتحول بينها وبين التطور الفكري فتبقي " رعين المحسنين " الانقطاع والكبتة " كحنى اذا ما شئت تلك القوى الرجعية التمسك في الشرق رغبت في التسلط على افكاره واقلبيه وارادت التفتيح مرافق الحياة فيه ، اهابت بذلك القبائل والشعوب والامم الى المسترخت رايدها . وما ان وطئت اقدام القوم تلك البروق واخشت جموعها بشعبيتها حتى وجدوا انفسهم وجها لوجه امام ثقافة بهرت منهم العيون وادخلت منهم العقول فهزت منهم المشاعر وصقلت منهم النفوس .

وقد يكون الموضوع بحد ذاته يكر بالامانة اليك ، أسسا الذين وقد استفادوا كل جهد في الانكباب على مراجعهم وتبين حقيقة امره فعبثوا لنا الطريق بما اعدوه من مؤلفات اعتدوا فيها على المراجع الاصلية من " رؤية وثيرة " وذلكوا لنا المصاحف فيما جمعوه ونقحوه من تلك المخططات . ندر يسمع الواحد منا اذا ما يفتك عنه في هذا الحقل من مصادر رويت ونسقت ونولا جهود اقوم وعنايتهم لاكتشاف التلبس ولاضاهها الحقل والاعمال . انول لا يسمع الواحد منا اذا كان لا ان يكون لهم من الشارحين فهنا حذقة من الرجالين ، وهناك فئة من الكتبة والمؤلفين تباد تدار في كثرة ما خلفوا لنا وتنوعه . أناخذ ما عند الالمان * و ما احسن ما عملوا في سبك الثرى ودرامته درسا عبقيا شظيا ام نكتفي بما خلفه الترنجيمر وما اكثره واغزوه وايست جهود الانايز لنقل كثيرا هـ من جهود هؤلاء * اولئك ثم اغتد اليها جميعا ما راج الايوركيون والمتأركون بيزيدون على تلك الثروة الضخمة .

غير ان وقوفك على هذه المراجع المختلفة المتعددة يذعن امام نظريتين مختلفتين فانك بين رأيين احدهما بمثل الكفة الالمان واشباعهم وهو يرى في الشرق غالبا خيرا وفي شعوبه اما رائبة جا^{جهر} الغرب اليه يهيب من مناهله العذبة رنى ارتوى فعاد وقد تبدل ^{هنا} خطا

بعضهم الآخر . أما الرأي الثاني ويمثله الفرنسيون وسلفهم
فهم في الآخر غلوا ومبالغات وبأي أن يقرر للشرق بكل الحق وللغرب
بجميع الفضل فتعطر عندئذ لان تبذل الجهود الجبارة للتوفيق بين
الفكرين والخلوص منهما بما ينسب السبيل ووضع الحق في نصابه .

ولا بد هنا من الاقرار بجهلي للالمانية التي لو كنت احسنها
اذن لو فت الى الاضطلاع على ما يبدو لي فيما يتعلق ولكن
وما لاحظته ان ما بين الاوروبيين من الترفيق منهم
والذين من نزاع وتنافس اليهم اما يرجع في الاصل الى تفسيرين مختلفين
ولا يعود كما قد يتوهم البعض الى الدوار فحسب او الى الثورة الصناعية
ما نشأ عنها من تطور وتنافس . وتحاسد بل يعود الى نشأتهم الاولى
ولعل الحروب العالمية كانت اول مظهر له .

ذلك ملائكة تلك تبدت لهم احياء ان استجلبها للتاريخ
وبخاصة استنجدتها بعد تولد الحمد بن علي هذا المحدث / ٥٧٧ / فحسب ان
يكون فيها بعض الخير لمن يعتمد على المورث من بعده .
ويقدّر من ان انير اخيرا الى ان تمثل هذه الدراسات

أما تترك في النفس أثرها فتجد لنا ندرك ما كان للشوق عامة وللحرب من أهله
خاصة من فضل في تطوير الذوق والتفكيرين وما باستطاعتنا ان نقدمه غدا بعد
ان ظهرت اليوم بمئات النقطه وبدأت آيات النبضة عندنا ^{بما} واضحة واضحة
فمسي ان يكون الإس حافزاً للقيم والبيع دليل على
ما سيكون الغد .

مصادر الكتاب

١ - العربية

- (١) أبو النداء (إسماعيل صاحب حماء)
- (٢) الأنير (الطلب بنو الدين بن)
- (٣) أحمد حسن (محمد)
- (٤) الأديسي (الشريف)
- (٥) الأرماني (نجيب)
- (٦) باركر (أرنست)
- (٧) بطوطه (أحمد)
- (٨) حماد الدين (المعروف بأبي شداد)
- (٩) البلاذري
- (١٠) بيلي (أحمد)
- (١١) جيز (محمدي)
- (١٢) حني (بيليب)
- (١٣) زيدان (جرجي)
- (١٤) سرور (محمد جمال)
- (١٥) شهاب الدين (المنديسي)
- (١٦) شيخو (لويس)
- (١٧) صالح بن يحيى
- (١٨) طرزي (بيليب)
- (١٩) العبري (أبو)
- (٢٠) عفيفي (عبدالله)
- المختصر في أخبار البشر ١٢١٥ هـ جرجي بمصر
- تاريخه الكامل ١٢٠١ هـ بمصر
- إسماعيل بن منذر من تاريخ الحروب الصليبية ١٩٤٦ بمصر
- نزهة المشتاق ١٥٩٢ هـ برومية
- الشرع الدولي في الإسلام ١٢٤٩ هـ - ١٩٣٠ م بدمشق
- الحروب الصليبية في تراث الإسلام ١٩٢٩ م بمصر
- رحلته ١٢٨٧ هـ بمصر
- سيرة صلاح الدين الأيوبي ١٢١٧ بمصر
- فتح البلدان ١٢١٩ هـ ١٩٠١ بمصر
- حياة صلاح الدين الأيوبي بمصر
- رحلته بمصر
- (٧) تحفة الشرق للغرب - في الكتاب الذهبي ليوبيل المنتطف الخمسيني ١٩٢٦ بمصر
- (٢) كتاب الاعتبار ١٩٢٠ برنستون
- تاريخ التمدن الإسلامي بمصر
- الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ١٩٢٨ بمصر
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ١٢٨٧ بمصر
- بيروت تاريخها وأثارها ١٩١٥ م بيروت
- تاريخ بيروت ١٨٩٨ م بيروت
- عصر السريان الذهبي ١٩٤٦ بيروت
- مختصر تاريخ الدول ١٨٩٠ بيروت
- المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ١٢٠٠ هـ ١٩٢٢ م بمصر

تاريخ البيمارستانات في الاسلام ١٢٥٧ هـ ١٩٣٩ م
بدمشق .

عنفرة العرب في العلم والفلسفة بدمشق

كتاب معالم النوبة في احكام الحسبة ١٩٣٧ بكمبريدج

ذيل للتاريخ دمشق ١٩٠٨ بيروت

(١) خطط الشام ١٢٤٣ هـ ١٢٤٧ هـ دمشق

(٢) الاسلام والحضارة العربية ١٩٢٤ - ١٩٣٦ بمصر

تسريح الاهبار مينا يحتوى لبنان من الآثار ١٩١٣ بيروت

حضارة العرب - نقله زعبيتر ١٢٦٤ هـ بمصر

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري نقله ابو زيد
١٢٥٩ هـ - ١٩٤٠ م بمصر

احسن التباسم في معرفة الاناليم ١٨٧٧ م لندن

كتاب لفظ السلوك لمعزة الملوك ١٩٣٤ بمصر

كتاب الاعتبار - حرره حتى ١٩٣٠ برسنتون

سريانه - نقله يحيى الخشاب ١٢٦٤ هـ ١٩٤٥ م
بمصر .

هداية الارباب في سون الادب بمصر

طرح الكروب في اخبار بني ايوب (مخطوطه بمكتبة
الجامعة المصرية)

(٢١) عيسى بك (احمد)

(٢٢) نروخ (عمر)

(٢٣) الفرشي (محمد)

(٢٤) الفلانسى

(٢٥) كرد علي (محمد)

(٢٦) لامس (هنرى)

(٢٧) لوهون (غستاف)

(٢٨) متر (آدم)

(٢٩) المندسي

(٣٠) المنريزى (غني الدين احمد بي علي

(٣١) منذ (اسامة بن)

(٣٢) ناصر خسرو (علوى)

(٣٣) المويرى

(٣٤) واصل (ابن)

٢ - المرجعيات

1) The anonyme author

2) Barker Ernest

3) Bercovicl, K.

4) BBlackmar, Franker

5) Blochet

6) Cohn, H.G.

Gesta Francorum

The Crusades Oxford 1936

The Crusades, N.Y. Cosmopolitain
book corporation 1929.

History of Humor Society, Boston

Relations diplomatiques des
Hohenstaufen avec les sultans d'E-
gypte 1902.

Chronicles of the Crusades, London
1843

- 7) Bréhier, Louis
 - 8) Bongars
 - 9) Bridrey, E.
 - 10) Byrne, D.
 - 11) Byrne; E.H.
 - 12) Caffarus
 - 13) Cahun; L.
 - 14) Cambridge Medieval hist.
 - 15) Chelaudon
 - 16) Cheikho, L.
 - 17) Conder, C.R.
 - 18) Coulson, Georges
 - 19) Coy, Sir Georges W.
 - 20) Delisle, L.
 - 21) Derembourg
 - 22) De Vogue
 - 23) Dodu, G.
 - 24) Douglass, Amanda N.
 - 25) Encyclopedea of Islam.
 - 26) Eulart, C.
 - 27) Faris, N.A.
- 1) L'Eglise et l'Orient au Moyen Age .
 - 2) Histoire de la 1ere Croisade 1924
 - Gestader per Francès
 - La Condition juridique des Croisés et le privilège de la Croix Paris 1900
 - Crusades, London 1928
 - Genoese Colonies in Syria 1882
 - ~~Annuaire de la Société de l'Histoire de la Géographie et des Voyages~~
Annales Genoeuses
 - Introduction à l'histoire de l'Asie 1896
 - Vol. IV.
 - Jean II, Comène. Manuel Comène 1912.
 - ~~Un dernier écho des Croisades~~ (MFOB)
 - The Latin Kingdom of Jerusalem ~~1099-1211~~ 1897.
 - Crusades, Commerce et Aventures, London 1930.
 - The Crusades, London 1984
 - Opérations financières des Templiers Paris 1889.
 - Osama ibn Mounquith 1889.
 - Les Eglises de Terre Sainte. Paris 1960
 - Hist. des Inst. monarchiques dans le royaume latin de Jerusalem.
 - The heroes of the Crusades, Boston 1897
 - a) Les monuments des Croisés dans le royaume de Jerusalem. - Architecture religieuse et civile Paris 1925-28.
b) La Cathédrale St-Jean de Beyrou dans le bulletin soc. des antiqua' de France, 1904.
 - The Arab Heritage Princeton, 1944

~~xxxxxxx~~

~~xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx~~

28) Foulcher de Chertres

Histoire Hierosolymitane

29) Grousset, R.

Hist. des Croisades et du Roy. Traite
de Jerusalem Paris - 1934.

30) Gruhn,

Der Kreuzzuge Richards I Berlin 1922

31) Hamp, Berl.

Das Hochmittelalter Geschichte des
Abendlands Von 900 bis 1200.

32) Hatim, A.

Les Chansons Epiques au temps des
Croisades, Paris 1930.

33) Heyd, C.

Hist. du Commerce d' Levant au Moyen
Age Leipzig 1905.

34) Heun-am Rhyn

Allgemeine Kulturgeschichte

35) Hitti, Phil.K.

Hist. of the Arabs, London 1937.

36) L'Inst. de France

La Collect. de l'Hist. des Croisades
a) Hist. occidentaux.
b) Hist. arabes.
c) Hist. grecs
d) Hist. arméniens.

37) Jewdal, R.B.

Bohemond, Prince of Antioch.

38) Joinville (^{Sine}~~Hede~~)

Mémoires of the Crusades trans. by Sir
Franck Argiels.

39) Kugler

Geschichte der Kreuzzuge

40) King

The Knights Hospitallers in the Holy
Land.

41) Kugler

Studien zur Geschichte des Zweiten
Kreuzzuge, Stuttgart 1866

42) Lamens, H.

a) La Syrie Précis Historique, Bey-
routh 1924.
b) La description du Liban d'après
Idrisi.

43) Lane Pool, Stanley

a) Saladin and the Fall of the
dom of Jerusalem London 1906/
b) A hist. of Egypt in the M. Age

44) Le Strange, G.

Palestine under Muslims.

45) Marago Bernarhus

Annales Pisani.

46) Martin, E.J.

The trials of the Templars, London

- 47) Mayer, L.A. Larace. Hererldry Oxford.
- 48) Michaud a) Hist. des Croisades 3 vol. 19.
b) *Bibl. coll. Étude des Croisades*
Chroniques Syrienne, éditée et tra
par l'abbé Chebot 1900.
- 49) Michel le Syrien The Mameluks or Slave Dynasty of E
gypt.
- 50) Muir Sir W. The Latin Orient London 1900.
- 51) Mullar, J. Richard the Lion Heart, London 1924.
- 52) Morgate, K. Hist. of the art of War in the
Middle Ages 1898.
- 53) Oman, Sir Charles H. Mahomet et Charlemagne *éd. Paris 1932*
- 54) Pirenne, H. Kulturgeschichte der Kruzze
- 55) Prutz Geste Tanenidi
- 56) Raoul of Caen Hist. Francorum qui ceperunt Les Jeru-
salem.
- 57) Raymond of Agiles a) Colonies Françaises en Syrie aux XII
et XIII siècles Paris 1983.
b) Etudes sur les monuments de l'ar-
chitecture des Croisés en Syrie et en
Chypre.
- 58) Rey, A. Les traditions françaises au Liban.
- 59) Risbhueber Int. to the hist. of Europe 1902. 1903
- 60) Robinson, J. Harvey. a) Geschichte der ersten Kruzze
1901
- 61) Roehrichtes, R. Die Kruzze 1920.
- 62) Ruville, A. Handelsgeschichte der romanschen
volker des Mittelmeergebiets.
- 63) Schaube a) Numismatique de l'Orient Latin
Paris 1878.
b) Renaud de Châtillon prince d'An-
tioche, seigneur de la terre d'Ou-
Jourdain Paris 1931.
- 64) Schumberger Archives de l'Orient Latin.
- 65) Société de l'Orient The Crusades in the East Cambri
1907.
- 66) Stevenson, W.G.

67) Sybel;H.W.

Über den Zweitein Kreuzzuge in
"Kleine Schriftein Bd.I.München 16

68) Weil

Geschichte der Califen 4.und. 5.Bd

69) Wells,H.G.

The outline of history London 1921.

70) Woodhouse,F.J.

The military religious orders London
1872.

71) von Lybel

Geschichte der Ersten Kreuzzuge.

العلاقات الاجتماعية والثقافية

بين العرب والفرنس

خلال الحروب الصليبية

يحسن بنا قبل ان نتعدى الى الموضوع الاساسى وهى العلاقات الاجتماعية والثقافية بين العرب والفرنس ان نلقى نظرة عجل على تلك الحروب التى استمرت قرنين كاملين من الزمن لتبين اسبابها وظروفها وبعض نتائجها المباشرة من تآسيس ملك واقاطة حكومات حتى تكون على بينة من امر ما سنقف عليه بعدئذ من النتائج فى حقل الاجتماع والثقافة .

يتوهم البعض ان تلك الحروب انما حدثت بفعل الدافع الدينى فقط وانه لولا البابوية لما كان قتال ولما تهادم الشرق والغرب آنذاك . والحقيقة انها لم تكن سوى نتيجة لحركات سبقتها ورد فعل للموجة العربية الاسلامية التى بدأت فى منتصف القرن السابع الميلادى تطرق ابواب اوروة من الشرق تارة ومن الغرب اخرى حتى نجحت بعض النجاح من الجهة الغربية وفشلت كل الفشل من الجهة الشرقية .

ثم ما فتئت بين مد وجزر حتى كانت الفرصة فى القرن الحادى عشر للميلاد سانحة امام البابا ليجمع قوى اوروة المبعثرة ويعيد الكرة على الشرق فيستعيد ماكان العرب قد سبقوا واستولوا عليه ويحيط سلطانه على بلاد الشرق فيضم اليه كنيسته لاسيما وقد استطاع من قبل ان يجعل الغرب بممالكه وشعوبه ان تمنو جيفتها الى سلطانه .

هذا فضلا عما كان فى الاقطاع اذ ذاك من شقا وعنا اهابا بجمع الفلاحين الى ان يستجيبوا دعوة البابا ويحققوا رغبة ساداتهم الامراء فى الفزو والفتح . وان تنس قلن تنس التجار وما كان لهم فى ذلك من اثر ورغبة اذ كان الكثير بينهم من اهل ايطالية وجنوى فرنسة قد تعرف الى الشرق وما فيه من تجارات رابحة واسواق لها رائحة وثروات فيه متضخمة كان لهم فيها مطمع . ولنذكر انه كان فى جانب هذا وذاك ظهور النورمان (الشماليين) والبروفنسيين من اهالى جنوى فرنسة بحال تميزهم بحب الاقتحام والفتح ومناجزة العرب فى سبيل الاستيلاء على البلاد وطردهم منها .

عندها تضافت تلك الاسباب مع ما كان فى الشرقيين العربى والاسلامى من تداع فى اركان الملك وتفكك فى اسباب الوحدة وضعف ووهن عند السلطان فكان لا بد ازاء هذا وذاك من قيام

مثل تلك الحروب سواء ادعت اليها البابوية ام الملوك الزنبيون والامراء الانطاكيون او التجار الطامعون .
فما ان دوت كلمات اوربان الثانى فى فاغ كليمون سنة ١٠٩٥ م حتى انتشرت وفعلت فى نفوس
القوم فعلها فاستجاب الناس اليها وراحوا ينضون تحت راية امراء تحرك فيهم حب القتال والنزال
ففادوهم الى الشرق من جهة اسية الصغرى . فما ان تلقاهم الكسيوس فيصر الروم حتى ظهرت بوادر
الخلاف والتفرقة

ثم كانت معارك بينهم وبين السلاجقة فى الاناضول ومن هناك انغضوا على الشام حيث كانت
حكومات عديدة متنازعة متناصرة فاستطاعوا بعناء غير كبير ان يفتحوا طرفهم خلال انطاكية الى
طرابلس فصيدا ثم الى حيفا فالقدس حيث التفوا حامية للفاطميين لم تصمد فى وجههم الا قليلا
فخدعوا افرادها والناس بالخلب من المواعيد فاستسلموا لهم وكان ما كان من اعمالهم السيف فى
رقاب العشرات من الآلاف بوحشية سبق لهم ان باشروها فى المعرة وانطاكية من قبل .

على هذه الصورة استطاع الفرنج خلال بضع سنين ان يؤسسوا مملكة لهم فى القدس وان
يلحقوا بها كونتية طرابلس وامارة انطاكية ومقاطعة الرها . فكانت هذه نتائج الحملة الصليبية
الاولى المباشرة . الا انهم ما كادوا يتبادلون الهجمات والكراوات مع المسلمين حتى كان عماد الدين
زنكى قد صوب لهم ضربة قاضية من الرها سنة ١١٤٤ م وجعلهم يخلون المقاطعة كلها دون
ان يلبوا على شئ . ويوقنون ان ايامهم فى الديار الشاميه قد لا تطول كثيرا .

فكان على اثر ذلك ان قامت دعوة سان برنار وابستجاب لها رجال الحملة الثانية بقيادة
امبراطور وملك ولكنها هى ايضا تكسرت على صخور المعرة عند النيرب من دمشق وكانت نصبا منسيا
بفضل لعبة سياسية قام معين الدين انسر يمثل فيها دوره ببيراغ لا تغل طراقة عن حذى
زنكى فى السفنات .

بيد ان هذا لم يفت فى عضد الغربيين بل قاموا بلبون دعوة صليبية ثالثة فكان على راس
جيوشها ريشار وفيليب اوغست وفردريك بربروسا لكن هذا لم يكتب له سوى الموت العاجل فى
اسية الصغرى ولحملة سوى التعثر والتلاشى فى السهول الساحلية من الديار الشاميه .

وكان قد نبغ فى الديار الشاميه نبيل ذلك الشهيد محمود زنكى ثم تولى على يديه وبنى
شيوخه العظيم صلاح الدين بطل حطين . وما كادت نحل الحملة الثالثة بيمس جيوشها سوسوس
الخلاف ينخر فى جوفها - حتى كانت الظروف المواتية قد هياأت لصلاح الدين ان يؤسس ملكا
ويجمع كافة المسلمين فى مصر واليمن والشام وراح يعد العدة وينتظر الفرصة لينقض على فرسته التى
جعلها بين فكي الكماشة وكان قد ابى احد امراء الفرنج ارباط الكرك الا ان يفتح باب الشر بينه

وبين صلاح الدين وذلك بتعدياته التي لا مبرر لها مع قيام الهدنة بينهم وبين المماليك السلطان ولما لم يعد السلطان يستطيع صبرا جمع رجاله وانقض على جيوش الفرنج في سهل حطين سنة ١١٨٧ م حيث القى عليهم درسا بليغا في وجوب المحافظة على العهد فكانت ضربة موجعة حقا اذ انزلت في جيوشهم وغرق الداوية السبارية منهم ما جعلهم صرعى الى زمن ولما استغافوا لم يستطيعوا معها كبير شئ .

ولم تكن ضربات زكي و انسرو صلاح الدين لتعمل وحدها في اهلاكهم بل كان هناك ايضا ما بينهم من خلاف ونزاع وتدهور في الاخلاق . كل ذلك كان يزيد في طينهم بلة حتى هوت ملكهم وملحقاتها عند اقدام بيبرس وقلاوون والاشرف خليل سنة ١٢٩٢ م . هذا ما كان للحروب الصليبية من نتائج مباشرة بين المتحاربين خلال قرنين من الزمن فلنسر الآن ما نتج عنها بينهم من علاقات اجتماعية وصلات ثقافية وهي في الحقيقة اهم واجدر بالدراسة والتفهم . ان ما كان من النتائج السلبية للحروب الصليبية كتخريب للمدن في الشام ومصر ونقص في الانفس بين المسلمين والنصارى من اهل الغرب لا يقاس بالفوائد الجمة التي اصابها اوربة الغربية في حقل الاجتماع والثقافة بل وفي الاقتصاد ايضا .

اما في المجتمع فقد تبدلوا بحياتهم التعسة الخشنة حياة نعيم وترف ان في بيوتهم وقصورهم او في ملابسهم وما كلهم . هذا فضلا عن خشونة في اخلاقهم خلعوها وتحلوا بدماثة اقتبسوها من اهل البلاد ط يغرب بفضل المعاشرة . فما ان انقض على اقامتهم في البلاد ما يقرب من ربيع قرن من الزمن حتى شمروا وكا نهم اصبحوا شرقيين بلديين وقد نسوا مواطنهم الا لى وعلقوا بحب مواطنهم الجديدة فقلدوا اهلها بكل شئ حتى في لغاتهم واعيادهم وحفلاتهم ومبارياتهم الرياضية وخاصة الصيد منها . وان تنس شيئا فلنسا بناسين الحمامات العاة ونعمتها عليهم فقد اقبلوا عليها اقبالا عظيما حقا حتى تجاوز بعضهم — كالراهبات — حد انظمة حياتهم وقوانينها (هذا ما نقله راي ص ٦٢ من كتابه " المستعمرات الفرنجية " عن جاك دي فنتري) .

هذا وان المرأة الفرنجية يبقائها بعيدة عن احسن ما كان يوسعها ان تكسبه من الاخلاق والعادات ظلت بفحشتها ومجونها سببا من اسباب الفشل عندهم في مشروعهم . اذا كانت النبيلة منهم لا يهيمها على الاغلب الا تحليق رغائبها الجنسية ونزواتها النفسية ولو كان في ذلك خراب القوم والملكة ولم تكن المرأة المتوسطة من بينهم خيرا من زميلتها النبيلة اذا انغمست هي ايضا في حماة من الفحش والمجون ما جاء وبالا على اخلاق الرجال وبالتالي دمارا للملكة وملحقاتها .

بهذا يحدثنا سان برنارد انظر ص ٢٥ - ٢٦ من حياة صلاح الدين لمؤلفه احمد بيلى وانظر غروسيه ج ٢ ص ٣٢٦ .

اما من حيث الفروسية فبالرغم مما يدعيه بعض الغربيين كغروسيه فانه لم يظهر منها في الديار الشاميه في حياة اكثر كبرائهم الا الناحية الجسمانية وذلك في القوة وتحمل مشاق القتال اما من حيث الناحية الخلقية التي تتمثل في المروءة وكبر النفس والعطف على الضعيف فقد اقتبسوا من ذلك جله من الفرسان العرب كما برز ذلك في كتاباتهم الادبية فيما بعد . ولو اتينا الآن الى الحكومة وما افاد القوم منها لرأينا انهم قد اصابوا في هذا الحقل ايضا خيرا كثيرا . اما في الإقطاع فقد تعلموا ان يفصلوه على الأرض وأما الإنسان فيبقى مالكا لحريته فلا يسام في سبيل ذلك سوى العذاب ولا يخرم من حسن المعاملة .

هذا فضلا عما دونوه فيما بعد من القوانين واذا بعثت الشريعة الرومانية عندهم فانما حصل ذلك بعد رجوعهم من الشرق . وما اقتبسوا الفرنج من العرب منصب " المحتسب " للنظر في امور الرعية والكشف عن احوالهم ومصلحتهم .

هذا في الإقطاع والإدارة اما في القضاء فقد اخذوا منه التشريع التجارى بفرعيه البرى والبحرى كما اقتبسوا ايضا اصول المحاكمات القانونية .

وكذلك فقد افاد الفرنج كثيرا من طرق الحروب واساليبها الفنية ومن الاسلحة والآلات الحصار وما شاكل فراحوا اولا يجندون من اهل البلاد فرقا من الخيالة الخفيفة وما لبثوا ان اتخذوا ايضا الدروع الزردية ومن الخوذ الشاميه يتفوق بها ضربات السيوف ملفين جانبيا بدروعهم وخوذهم الخشنة الثقيلة . ولم يتورعوا عن تقليد العرب في استعمال المنجنية وزرع الانغام المتفجرة وصنع مركبات البلرود والمواد المفرقة واعداد النفط المتقد في الماء . ليس هذا فقط بل اقتبسوا ايضا شيئا كثيرا من فن الهندسة العربية كما حسنوا كثيرا من وسائل الدفاع . ثم ما لبث بعض النبلاء من بينهم ان اخذوا انفسهم بالمعلم الدفينة والفنون الآلية حتى اتقنوها .

وما اقتبسوا اهل غرب اوروبا خلال الحروب الصليبية من العرب النار كوسيلة للمخابرة السرية المستعملة ليلا وحمام البطاق نهارا . انظر صالح بن يحيى ص ٦١ وكذلك فلهنهم فقد قلدوا اهل البلاد الشاميه في اتخاذ الرنوك والشعارات واستعمال علامات خاصة لتمييز الاساب .

هذا وكان لآخلاق الشرقيين فضلا عن كل ما ذكر اثرها البين في المتبلدين من الافرنج فنشأت صداقات بينهم وبين الشرقيين من عرب وترك واكراد جعلتهم يتشبهون بهم في كثير من العادات الحميدة والاخلاق الفاضلة كالاستراف بالجميل والتسامح الدينى والدفاع عن الصديق وحفظ الجار ورعاية الطفل وحماية الضعيف .

ولعله من الخير ان نذكر ما قام بين العرب والفرنج من تفاهم ثقافى كان له اثره البين فى تقدم القوم فى هذه الناحية ايضا .

ولو رحنا نعدد ما افاد القوم فى ناحية الانتصديات لكان لنا متسع للقول ومجال فسيح للاشادة . ومن ذلك ما كان يتعلق بالزراعة فما كاد الفرنج يتعرفون الى السكر وحلاته حتى بادروا الى نقل زراعته فصبه الى بلادهم . وكذلك فقد نقلوا ايضا اللبون والبطيخ والشمش والخبخ والإجاص وقد بقى الشمش لمدة طويلة يعرف عندهم باسم " ثمر دمشقى " .

ومن جملة ما نقلوه من الديار الشاميه " الثمر الهندى " وان كان من محاصيل الهند هو

والاوانى والطبوب والبهارات ونخص بالذكر منها الفرة . واما القطاني فقد نقلوا منها الذرة البيضاء الشاميه . واستطاعنا ان نقرر انهم نقلوا زراعة السمسم والخروب والارز والقمح وما علينا الا ان نذكر اسما تلك المزروعات بلغاتهم ونقابلها بما هى فى اللغات الشرقية وخاصة العربية منها فتعلم صدق ما نقول . وما له علاقة بالزراعة ايضا النواعير والدواب الهوائية التى لم تظهر فى نورمانديا من فرنسا الا فى سنة ١١٨٠ م .

وفى هذا كفاية فلفتتقل الى الصناعة التى يظهر انها انتقلت الى لوجوية اوروبية باكثرية فروعها كالخزف والزجاج والحلى والنسيج على انواعه والقيشانى هذا عدا عن مناهة الجعة والسكر التى بسببها احتفظوا بالاسم العربى للمصرة (Maria) اما الصابون فقد عم استعماله فى القرن الثالث عشر واصبحت صناعته فى المستعمرات الفرنجية على شىء كبير من الاهمية ومنها يجب ان يكون قد انتقل الى غربى اوروبا .

ولعل مقتبسات القوم فى التجارة قد فاقت مكسباتهم من الزراعة والصناعة ولا عجب فان التجار من الإيطاليين والفرنسيين الجنوبيين كانوا اول المشتركين فى تلك الحروب رغبة الكسب والا ثرا . ولا غرابة ان يكونوا قد اهابوا بالفرنسيين الى توسيع نطاق ترفهم وتعيمهم بما جلبوه اليهم من منتجات الشرقيين الزراعية والصناعية فنمت بذلك مدن كبيرة وفتحت طرق جديدة مما قرب الشقة بين آسية واوروبا ووسط بين شعوبها روابط اقتصادية زادت فى دفع القوم الى الاقام فى سبيل التقدم والرفى . اصف الى ذلك الشركات التجارية الكبرى والنظام الجمركى ورسومه وغيرها من الضرائب التى فرضت ايام الحروب الصليبية . وما قلدوا العرب به ضرب العملة وسك النقود وتأسيس المصارف واصول ادارتها والبورصة واعداد الإئنية الخاصة بها .

وما كاد القوم يتعرفون الى علوم العرب وفنونهم حتى سارعوا الى اخذ ببعضها فتعددت
عندهم اللغات ولا عجب اذا علمنا ان دراسة اللغات الشرقية قد بدأت في اوروبا مع البعثات
التبشيرية التي ارسلت الى الشرق وقتذاك .

هذا وقد كان للآداب الشرقية عامة والفربية منها خاصة تأثيرها على بعضهم حتى
استوحاها بعض شعرائهم وكتابهم فنقلوا بعض عناصرها الف ليلة وليلة وكليلة ودمنة الى
اسطورة " الكاهن المقدسة " وغيرها من الروايات الخيالية الخالدة .

وكم من قصيدة جديدة نظمت في اثناء تلك الحروب كقصيدة الشاعر الانكليزي

Ambrois

وقصيدة انطاكية (Ghanson d'Antioche) .

وكذلك فقد زادت ثروة القوم في التاريخ والجغرافية كما ازدادت عنايتهم بالفنون الجميلة
كالموسيقى والزخرفة والحفر والعلوم الدقيقة كالرياضيات والطب والتاريخ الطبيعي .
ولعل في هذا القدر ما يرينا ما كان للعرب من اثر في اعداد الفرنج الى نهضتهم
 وخروجهم من ظلمات القرون الوسطى الى انوار العصر الحديث .

زكى النفاش